وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الأدب العربي

قسنطينة بين الأسطورة والتاريخ في روايات نجمة، الزلزال، ذاكرة الجسد

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة:
نـوال مـدوري

إشـــراف:
أ.د. صالـح مفقـودة

لـجنة المنـاقشة

الاسم واللّقب	الرّتبة	الجامعة	الصّفة
1. محمّد خـــان	أستاذ التّعليم العالي	جامعة محمّد خيضر. بسكرة	رئيسا
2. صـالح مفقـــودة	أستاذ التّعليم العالي	جامعة محمّد خيضر. بسكرة	مشرفا ومقررا
3. رابح الأطرش	أستاذ محاضر	جامعة فرحات عباس. سطيف	ممتحنا
4. نصر الدّين بن غنيسة	أستاذ محاضر	جامعة محمّد خيضر. بسكرة	ممتحنا

السنة الجامعية: 1428 هـ - 1429 هـ
2007 م - 2008 م

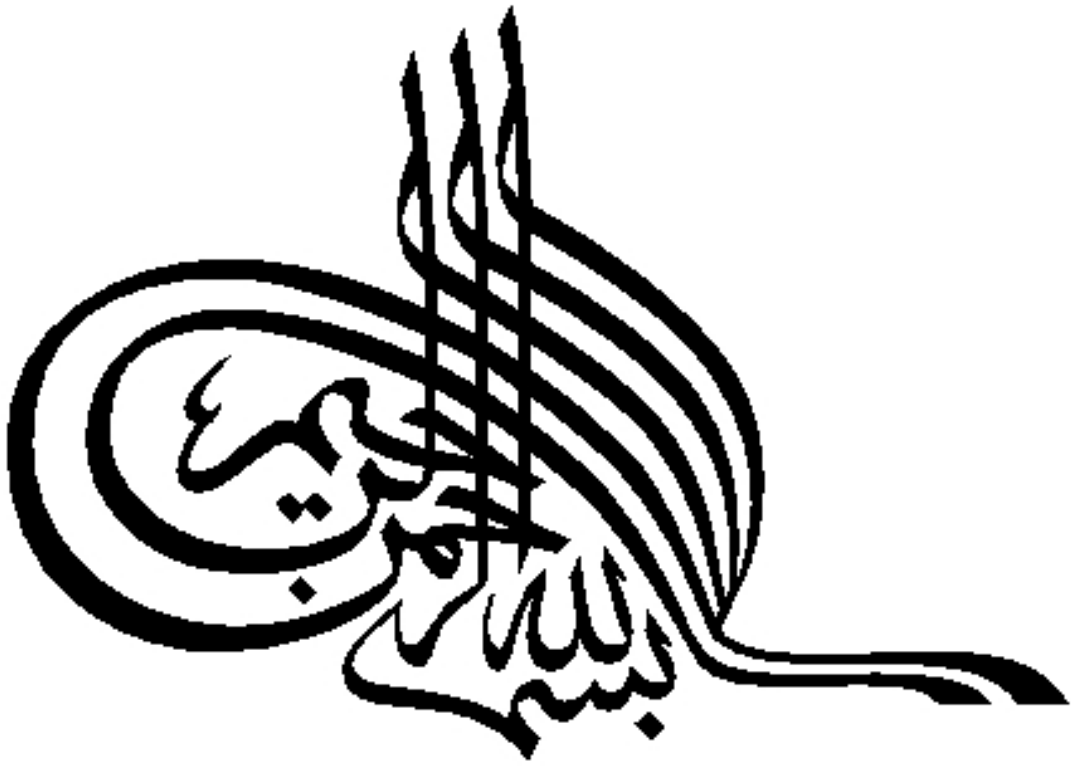
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

تعاملت الرواية الحديثة تعاملا إبداعيا مع المدينة، التي لم تعد ذلك الإطار الخارجي وذلك الديكور الجامد الذي تجري فيه الأحداث وتتحرك داخله الشخصيات، بل أضحت في هذا الجنس الادبي كائنا حيا يتدفق بالحياة ويعكس تجربة إنسانية وجودية، حيث نسجت الرواية الحديثة علاقات تماه وتعالق عضوية مع عالم المدينة.وبالنظر الى تاريخ الرواية الغربية نجد انها نتاج ثقافي خرج من رحم التحولات الحضارية الكبرى التي شهدتها المدينة الغربية مع بداية الثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر.

وأما الرواية العربية فهي رواية حضرية بالدرجة الأولى، لأن أغلب أحداثها تدور في المدينة، ولأن الرواية العربية، بصفتها جنسا أدبيا جديدا، هي نتاج الاحتكاك الثقافي بالغرب عن طريق القيم الحداثية الجديدة التي تجسدها المدينة الجديدة.

وقد خلد كبار الروائيين العرب المدينة وتغنوا بها كاشفين عن شعريتها ودلالاتها العميقة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض الروائيين العرب الذين اشتهروا في وصف حياة المدينة بكل تفاصيلها وجزئياتها،من أمثال توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، وحنا مينة، والطيب صالح، ومحمد شكري، وجمال الغيطاني، وإميل حبيبي، وصنع الله إبراهيم...الخ.

وتعكس الرواية العربية بوفاء هذا التحول الحضاري الكبير الذي عرفه العالم العربي في القرن العشرين والذي يتجلى أساسا في حياة عالم المدينة. وقد سعى الأدباء العرب إلى نسج علاقات إبداعية، بفضل المتخيل الأدبي، بين المدينة الحقيقية من جهة، والمدينة الطوباوية والأسطورية من جهة أخرى. فظهرت المدينة الحلم، والمدينة المرأة، والمدينة التاريخ،و المدينة الرمز، والمدينة الأسطورة والمدينة القصيدة...الخ.

وقد واكبت الرواية الجزائرية هذه التحولات التي حصلت في الشرق والغرب، وقامت بأسطرة المدينة ومسرحتها ودمجها في الصيرورة التاريخية وديناميكية الحياة وذلك بالتعبير عن معاناة الإنسان العربي وعن الاغتراب وعنف التاريخ.وبهذا استطاعت الكتابات الروائية الجزائرية رسم جماليات المدينة وشعريتها بفضل تبني إستراتيجية حداثية في الكتابة.

وتمثل قسنطينة في الرواية الجزائرية ذاك الجبروت الذي فرض نفسه بقوة على المبدعين، لأنها مدينة عريقة تتقاطع فيها الأسطورة مع التاريخ، ولأنها تحيلنا بطريقة أو

بأخرى على أسطورة عجائب الدنيا السبع، وعلى حدائق بابل المعلقة وعلى الجسور المعلقة التي تمثل معجزة معمارية فريدة من نوعها في العالم. وقد سبق لهذه المدينة أن غذت الروح الإبداعية لدى الرحالة العرب وكثير من الأدباء الغربيين الذين انبهروا بسحرها وغرائبها وعجائبها. وقد مارست إغراءها على كبار الرومانسيين الغربيين، رحالة، ورسامين وشعراء وروائيين، بفضل موقعها الجغرافي المتميز وصخرتها المتربعة على عرش السمو والعلو ووواديها الأسطوري " الوادي الكبير " الذي ترحل عبره الأسرار إلى بحر حضارات المتوسط.

لم تحظ مدينة جزائرية بمثل ما حظيت به قسنطينة من إعجاب وتعلق وتقديس لدى الروائيين الجزائريين. وإشعاعها على الرواية الجزائرية يجعلها في مصاف المدن العالمية الخالدة التي فرضت نفسها على المتخيل الأدبي العالمي مثل: فينيسيا وباريس وروما ونيويورك وفيينا ويعود الفضل إلى كاتب ياسين الذي حول هذه المدينة إلى أسطورة أدبية تزخر بالرموز والجماليات والدلالات، فرواية " نجمة " رواية مؤسسة لهذه الأسطورة التي تتشكل إبداعيا عبر تناغماتها المختلفة مع التاريخ والأمة والوطن والمرأة والحياة.

ولهذا سيسعى البحث الموسوم ب "قسنطينة بين الأسطورة والتاريخ في روايات نجمة ،الزلزال ،ذاكرة الجسد." إلى دراسة الإبعاد الأسطورية والتاريخية التي تتفاعل داخل مجموعة من الروايات الجزائرية التي خلدت مدينة قسنطينة.إذ تقوم الإشكالية على طرح جملة من الأسئلة التي يمكن تلخيصها فما يلي:

– لماذا حظيت قسنطينة دون غيرها من المدن الجزائرية بهذا الاهتمام الكبير من لدن الأدباء الجزائريين والأجانب.

– كيف استطاعت رواية " نجمة " لكاتب ياسين أن تؤسس للمدينة الأسطورة التي ستؤثر لاحقا تأثيرا كبيرا في روايات كل من مالك حداد وطار، وأحلام مستغانمي.

– كيف تتأسس في الرواية الجزائرية أسطورة " الفردوس المفقود " وأسطورة " العود الأبدي "؟ وكيف نفسر هاجس الحنين إلى الجذور والبدايات؟

– هل لتشكل قسنطينة الروائي علاقة بالسيرة الذاتية للكاتب؟

– كيف تتحقق عملية التعالق بين الفضاء الهندسي والفضاء الخيالي؟

– ماهي علاقة الشخصيات بعضها ببعض، وعلاقة الأسطوري بالتاريخي؟

تلك هي بعض مكونات الإشكالية التي يطرحها البحث، ويعود اختياري لهذا الموضوع إلى ميلي الخاص للرواية الجزائرية وتذوقي لهذا الجنس الأدبي الذي أصبح ظاهرة حضارية؛ لقد وجدت في الرواية فضاء رحبا يعج بالكنوز والأسرار والجماليات التي هي جديرة بأن تكتشف وتدرس ويماط عنها اللثام. وارى أن الرواية الجزائرية المتجذّرة في شخصيتنا الثقافية هي المنطلق الذي يؤدي بالإبداعات الجزائرية إلى التواصل والتحاور مع روائع الإبداعات العالمية.

إضافة إلى هذا الميل الشخصي للرواية الجزائرية، فقد وجدت أن هناك أسبابا موضوعية شجعتني على القيام بهذه المغامرة العلمية، وأذكر من جملتها أنّ هذا الموضوع يكتسي طابعا إستراتيجيا لأنه يهدف إلى تحقيق التواصل بين مكونات الهوية الجزائرية، وكذلك التواصل بين عدة أجيال روائية.

إن هذا البحث يتيح إنجاز قراءة متميزة للمدينة، تقوم على الكشف عن الشعرية وعلى مكونات المتخيل الفضائي.

يتيح كذلك هذا البحث القيام بتحديد التناصات المختلفة بين هؤلاء الروائيين وطبيعة التفاعلات والتعالقات النصية.

وقد اعتمدت على المنهج النقدي الأسطوري الذي طعم بمناهج أخرى كلما اقتضت الحاجة إلى ذلك، وتتمثل في المنهج المقارن، والمنهج السيميائي، والمنهج التاريخي.

إن أهمية هذا الموضوع تكمن كذلك في محاولته الربط بين جمالية التشكيل الفني من جهة وعمق الإلزام الإنساني والإيديولوجي من جهة أخرى، بعيدا عن الشعارات والدعاية المذهبية.

يبدأ البحث بتمهيد كان عتبة أولى تبصّر القارئ بماهية الأسطورة وتقاطعاتها مع أهم الفنون الأدبية.

ثم انتقلت إلى الفصل الأول الذي يحوي الشقّ الأسطوري لهاته المدينة ويتقصى تشكلاتها والذي حدّد كما يلي:

- التشكل الأسطوري لمدينة قسنطينة.
- أسطورة البدايات والفردوس المفقود.
- أسطورة عودة الابن الضال.

– التشكيل المكاني للأسطورة.

– الأسطورة توظيفها ودلالاتها.

أمّا الفصل الثاني فيحوي الجانب التاريخي لمدينة قسنطينة ويترصد تحولاتها، والذي حدد كما يلي:

– تمهيد: إذ بينا من خلاله أهم التقاطعات بين الأسطورة والتاريخ.

– قسنطينة عبر التاريخ.

– قسنطينة التاريخ والحضارة.

– عظمة التاريخ وزيف الواقع.

– حفريات الذاكرة والوعي المأسوي بالتاريخ.

– ثم جاء الفصل الثالث ليبرز هذا التمازج والتلاقح المثمر بين الأسطورة والتاريخ بوساطة الرمز إذ تضمن، تمهيدا وضحنا من خلاله أهم الروابط التي تجمع بين الأسطورة والرمز.

– رمزية قسنطينة.

– السيرة الذاتية بين الأسطورة والرمز.

– التاريخ المغيب أو المسكوت عنه.

تأتي الخاتمة لترصد أهم النتائج المتوصل إليها ولفتح آفاق مستقبلية لدراسة جوانب أخرى لم يتعرض إليها البحث.

وقد تم الاعتماد على الروايات الثلاثة للدراسة هي نجمة لكاتب ياسين، والزلزال للطاهر وطار، وذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي . حيث أسعفتني مجموعة من الكتب النقدية ساهمت في إثراء معلوماتي وتوجيهي منها:

– مغامرة العقل الأولى لفراس السواح، والأساطير لأحمد كمال زكي والأدب الجزائري المعاصر لسعاد محمد خضر.وغيرها من المراجع التي تناولت الأسطورة والأدب الجزائري.

– كما اطلعت على مذكرة الماجستير المتعلقة بالنقد الأسطوري والتي قدمها الأستاذ عبد الحليم منصوري والتي فتحت بعض الآفاق في دراسة الأدب الأسطوري

ولا يسعني في الأخير إلاّ الاعتراف بجميل الأستاذ الدكتور الطيب بودربالة الذي لطالما ساعدني والأستاذ الدكتور صالح مفقودة الذي شاركني مشقة هذا البحث بتوجيهاته ونصائحه القائمة دوما على احترام رأي الأخر.كما أشكرا لأستاذ عبد القادر رحيم الذي قام بتصحيح هذا العمل من الهنات اللغوية .

وأرجو أن تكون حسنات البحث أكثر من سلبياته، فجلّ من لا يسهو.

تمهيد

- **الأسطورة والأدب.**
- **مفهوم الأسطورة.**
- **أنواع الأساطير.**
- **خصائص الأسطورة.**
- **وظائف الأسطورة.**
- **انتشار الأساطير وانحسارها.**

1- مفهوم الأسطورة:

يعد تحديد مفهوم الأسطورة وضبط تعريفها أوّل عائق معرفي يواجه الباحث في علم الأساطير، فمعظم الباحثين الذين تصدّوا للأساطير بالدّراسة من بين علماء الإناسة وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والفلاسفة قد صادفتهم هذه القضية، فمنهم من رفض التقيّد بتعريف صريح لها، ومنهم من حاول تعريفها بمضمونها، ومنهم من ضمّن تعريفها تعريفا وظيفيا.

ويرجع هذا الاختلاف حول ضبط مفهوم للأسطورة – على الأرجح– إلى ذلك الخيط الرفيع الذي يربط الأسطورة بالأجناس الأدبية الأخرى كالقصة الشعبية، والخرافة والملحمة والقصة البطولية، ربطا يجعل الفصل بينها صعبا، بالإضافة إلى تداخلها مع بعض الحقول المعرفية كعلم الاجتماع، وعلم الأديان وعلم النفس والأدب...وغيرها.

ولذلك يصعب التقيّد بتعريف دقيق وشامل للأسطورة في ضوء ذلك التنوع المعرفي وتلك المنطلقات الفكرية المتعددة.

1.1- الأسطورة لغة:

جاء في "لسان العرب" في مادّة (س ط ر): "الأساطيرُ: أباطيل والأسَاطِيرُ: أحاديث لا نظام لها واحدتها إِسْطَارٌ وإِسْطَارَةٌ بالكسر، وأَسْطِيرٌ وأَسْطِيرَةٌ وأُسْطُورٌ وأُسْطُورَةٌ بالضم".[1]

كما فسر الزجّاج قوله تعالى:" وَقالوا أَسْاَطِيرُ الأوّلِينْ"[2] إنّها خبر لابتداء محذوف، والمعنى قالوا الذي جاء به أساطير الأولين معناه سطره الأولون، أي أخبار كاذبة.

ويرى اللّغويون العرب القدماء أن الأسطورة من سطر إذا كتب، ومنه سطر الكتاب يسطره سطرا، واَسْتَطَرَهُ: كتبه. وفي التنزيل "وَالطورِ وَكِتابٍ مَسّطُورٍ فْي رِقٍ مَنّشُورٍ"[3] أي مكتوب.

---

[1]- ابن منظور.الأفريقي المصري. لسان العرب. دار صادر بيروت: ط1. 2000 مج 7.(مادة: س.ط.ر). ص182.
[2]- المرجع نفسه. ص182.
[3]- سورة الطور/ الآية 01.

كما نجد في القرآن الكريم أن كلمة "أسطورة" لم ترد إلا في صيغة الجمع أو مضافة إلى لفظ الأولين، وقد وردت في تسع آيات، منها قوله تعالى:" وَقالوا أَسْاَطِيرُ الأوُلِينْ، اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاَ".[1]

وعليه فإن مادة "سطر" توحي بمدلولات التدوين والتسجيل كما توحي بمعاني الأباطيل.

1 .2- الأسطورة اصطلاحا:

خطت الأسطورة خطوات عملاقة في القرن العشرين وذلك نتيجة للتطور العلمي وظهور المناهج الحديثة، حيث ظهر مصطلح علم الأساطير، الذي أدرج الأسطورة ضمن الدراسات العلمية، أي تحويلها من معطى ثقافي إلى معطى علمي، وهذا ما نجده عند بشير زهري حيث يقول: " أن الأسطورة انتقلت من قيم الخرافة إلى أفاق العلم، وأصبح للأساطير علم يعرف بالميثولوجيا، له علماؤه، ومؤلفاته ومؤتمراته، وأنصاره ...إذ تتمثل في الأسطورة محاولة إدراك وفهم وتكوين معرفة وعلم"[2].

نلاحظ أنّ بشير زهري يؤكد على علمية المبحث الأساطيري بوصفه علما قائما بذاته، غير أننا نجد في المقابل أن أحمد كمال زكي يرى كون " الأساطير في الواقع علم قديم، بل أزعم – مرة أخرى– أنّه أقدم مصدر لجميع المعارف الإنسانية، ومن هنا ترتبط كلمة أسطورة " Myth " دائما ببداية الناس، وببداية البشر قبل أن يمارسوا السحر كضرب من ضروب العلم أو المعرفة"[3].

كما يؤكد مرسيا إلياد إرتباط الأساطير بالإنسان عبر التاريخ، ذلك أنّها " أخبار تاريخية تروي بعض الوقائع والأحداث التاريخية التي حصلت في الماضي لبعض الجماعات من البشر فوق بقاع الأرض"[4].

ويجرّد هذا التعريف الأسطورة من طابعها القداسي الذي تتفرد به، وهو ما يميزها عن سائر المظاهر الإنسانية، بل ويؤكّد صعوبة تحديد مفهوم الأسطورة وضبطه بوصفها واقعة ثقافية بالغة التعقيد في نظر مرسيا إلياد، إذ يقول أنّ " التعريف الذي يبدو لي أقل

---

[1]- سورة الفرقان/الآية 05.

[2]- بشير زهري .مقدمة في الميثولوجيا. مجلة المعرفة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. ع 197. يوليو 1978. ص34.

[3]- أحمد كمال زكي. الأساطير .دار العودة. بيروت. ط2. 1979. ص44.

[4]- مرسيا إلياد. مظاهر الأسطورة. ت: نهاد خياطة. دار كنعان للدراسات والنشر. دمشق ط1. 1991. ص10.

التعريفات نقصا لأنه أوسعها هو التعريف التالي: الأسطورة تروي تاريخا مقدسا، تروي حدثا جرى في الزمن البدئي، الزمن الخيالي، زمن البدايات، بعبارة أخرى، تحكي لنا الأسطورة كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود، بفضل مآثر اجترحتها الكائنات العليا"[1] .

يبدو أنّ " إلياد" يقرّ بتعدد التعاريف وعجزها على الإحاطة الدقيقة بمفهوم الأسطورة ذلك أنّها غالبا ما تخضع لمرجعيات فكرية وفلسفية متنوعة.

ويتدعّم هذا الطرح من خلال التعريف الذي أشار إليه فراس السواح حيث يرى أنّ الأسطورة " حكاية مقدسة يلعب أدوارها الآلهة، وأنصاف الآلهة، أحداثها ليست مصنوعة أو متخيلة، بل وقائع حصلت في الأزمنة الأولى المقدسة، إنّها سجل أفعال الآلهة، تلك الأفعال التي أخرجت الكون من لجة العماء، ووطّدت نظام كلّ شيء قائم، ووضعت صيغة أولى لكل الأمور الجارية في عالم البشر...والأسطورة حكاية مقدّسة تقليدية. بمعنى أنّها تنتقل من جيل إلى جيل بالرواية الشفهية، ممّا يجعلها ذاكرة الجماعة التي تحفظ قيمها وعاداتها وطقوسها وحكمتها، وتنقلها للأجيال المتعاقبة، وتكسبها القوة المسيطرة على النّفوس..." [2].

يؤكّد هذا التّعريف الطّابع القداسي والجماعي للأسطورة بوصفها فكرا وممارسة تنتهي في الأخير إلى اعتقاد أو إيمان مطلق.

وهذا ما تتميّز به الأسطورة عمّا يشترك معها في الجنس الأدبي كالخرافة، والملحمة، والقصة الشعبية.

كما يعد هذا التباين في الآراء والتعاريف حول الأسطورة بوصفها ظاهرة ثقافية ما يجعلها تكتسب أهمية بالغة في المجالات المعرفية والأبحاث الإنسانية.

1. 3- أنواع الأساطير

– ينضوي تحت لواء الأسطورة عدة أنواع منها:

1 . الأسطورة الطقوسية:

[1]- المرجع نفسه. ص10.
[2]- فراس السواح. مغامرة العقل الأولى. دار الكلمة للنشر. لبنان. ط2. 1981. ص14.

حيث يرتبط هذا النوع من الأساطير بعمليات العبادة والطقوس قبل أن تصبح حكاية لهذه الطقوس مثل أسطورة "أوزوريس" في مصر وما يتبعها من طقوس وعبادات.

2. الأسطورة التعليلية:

وقد ظهرت هذه الأسطورة بعد ظهور فكرة وجود كائنات روحية خفية متعلقة بمختلف الظواهر الطبيعية: كالرعد، والزلزال، والبراكين.. وهو ما أدى بالبحث عن مختلف التغيرات والتعليلات حول هذه الظواهر الكونية.

3. الأسطورة الرمزية:

تعبر هذه الأسطورة عن فكرة دينية، أو كونية كما نجدها قريبة من الأسطورة التعليلية.

4 .الأسطورة التاريخية:

تجمع هذه الأسطورة بين التاريخ والخرافة، ذلك أنّها حكاية تنتقل من جيل إلى جيل آخر، كما أنّها تشتمل على عناصر تاريخية ومجموعة خوارق من هذه الأساطير نجد ملحمة "جلجامش" عند البابليين و"داحس والغبراء" عند العرب.

ويميز أحمد كمال زكي بين ضربين من الروايات: يتعلق الضرب الأول بأبطال أصبحوا رموزا للأساطير مثل: أوديب، وفي حين يرتبط الضرب الثاني بأبطال دخلوا التاريخ من أبوابه الواسعة غير أنّ أعمالهم طمست مثل "سيف بن ذي يزن وعنترة، ووولان، وهانيال..." [1]

ويرى "توماس بولفينيش" أنّ الأسطورة تنقسم إلى أربع نظريات هي:

أ- الأسطورة الدينية:

حيث تستقي هذه الأساطير مادتها الأولية من الكتاب المقدّس مع بعض التحريف والتغيير بالإضافة إلى استبدال الأسماء الأصلية بأسماء أخرى.

ب- الأسطورة التاريخية:

[1]-الأساطير. أحمد كمال زكي. دار العودة. ط2. بيروت: 1979. ص46-52.

ويرى توماس أنّ أبطال هذه الأساطير هم أبطال حقيقيون إلاّ أنّ خيال الشعراء والشعوب قد أضفى عليهم مجموعة من الخوارق والأعمال العجيبة.

ج- الأسطورة المجازية:

حيث يعتقد أنّ كلّ الأساطير القديمة ليست سوى مجازات فهمت حرفيا.

د- الأسطورة الطبيعية:

يرى أنّ كلَّ ظاهرة طبيعية يكمن خلفها كائن روحي معين...[1]

ومن خلال ما سبق يمكن القول بأنّ هناك انسجاماً بين التقسيمين السابقين.

غير أنّ "نبيلة إبراهيم" تعتقد أنّه بالإضافة إلى الأسطورة الطقوسية والتعليلية هناك أسطورة تكوين الكون، والأسطورة الرمزية، وأسطورة البطل الإله حيث يتصف أبطال هذه الأسطورة كونهم أنصاف الآلهة.

كما تُرجع أصل الأسطورة الرمزية إلى مرحلة فكرية أرقى من المراحل الأخرى، لأنّ تفكير الإنسان في هذا النوع يتعدى العالم السماوي والظواهر الكونية ويقتصر اهتمامه بالعالم الأرضي عالم الإنسان... [2]

يبدو من خلال ما سبق ذكره أنّ هذه التقسيمات تقوم على خلفيات ثقافية تتعلق بتعدد المجتمعات التي سادتها هذه الأساطير متجاوزة بذلك مبدأ المنطق والعلم.

---

[1]- أحمد كمال زكي. الأساطير. دار العودة. بيروت ط2. 1979. ص58.

[2]- نبيلة إبراهيم .أشكال التعبير في الأدب الشعبي. دار غريب. القاهرة. ص23.

1. 4-خصائص الأسطورة:

تتقاطع الأسطورة مع مجموعة من الظواهر التي تشترك معها في الجنس مثل الحكاية الخرافية حيث أشار فلادمير بروب في كتابه "مورفولوجيا الحكاية الخرافية" بعلاقة التشابه أو الاختلاف ما بين "الحكاية الخرافية" والأسطورة حيث يرى أن الحكاية الخرافية تقوم على خيال شعري وأنها تشويه للواقع، أمّا الأسطورة فهي قصة مقدسة، تتميز بالصدق كما أنّها تعبير عن إيمان شعب...[1]

ويرى أنّ جوهر الأسطورة يكمن في التعبير عن المقدّس ويؤكّد ذلك دوافع ابتداع الأساطير حيث أنّها بدأت من خلال الشعائر التي تهدف إلى الإجابة عن أسئلة تتعلق بنشأة العالم وبداية الحياة البشرية على الأرض ومصير الإنسان بعد الموت.[2]

غير أنّ "بيار سميث" يرى أنّ الأساطير لا تقتصر على حكايات الآلهة الإغريقية فحسب، بل تتعداها إلى حكايات الأبطال ولكنّها تختلف عن الحكاية الشعبية، وهي حكايات عن الأجداد إلاّ أنّها تختلف عن الحكايات التاريخية كما أنّها حكايات عن الحيوان مختلفة عن الخرافات...فالحكاية الأسطورية تتميز بأنّها حقيقية...[3] الأمر الذي يجعلها معرفة يقينية.

نلمح من خلال ما سبق فروقاً دقيقة ما بين كلمة وأخرى، وقد يكون جانب الحقيقة هو الحد الفاصل بين الأسطورة وما عداها من الأجناس المتداخلة معها إضافة إلى جانب تفسير الظواهر المختلفة وهو ما أغفله بيار سميث.

ويرى "فراس السواح" أنّ ما يميز الأسطورة عن غيرها هو:

9. أنّ الأسطورة من حيث الشكل هي قصة قد تكون شديدة التركيز وكأنّها موعظة خاضعة لقواعد السرد القصصي وطابعها شعري والرمزية فيها واضحة.
9. الأسطورة ذات صيغة ضاربة في القدم ويمكن أن تتعرّض للتطور فيضاف إليها أو يحذف منها.
9. تدور موضوعات الأساطير حول الوجود الكوني والخلق الإلهي للبشر.

---

[1]-فلادمير بروب. مورفولوجيا الحكاية الخرافية. ت: أبو بكر أحمد باقادر. النادي الأدبي الثقافي. جدة. 1989. ص357.
[2]- المرجع نفسه. ص358.
[3]- Pierre Smith, encyclopédie Universalis, Tome, 15, P 1037. .نقلا عن عبد الحليم منصوري. ملامح أسطورية في رواية الحوات والقصر للطاهر وطار. مقاربة نقدية أسطورية رسالة ماجسينر .إشراف عبد المجيد حنون.قسم الأدب العربي. جامعة باجي مختار عنابة 2000-2001.

9. الأسطورة تصور فعلا خارقا، جوهريا بالنسبة للكون أو الإنسان.

9. الأسطورة حكاية مقدسة، انبثقت عن الشعائر الأولى وذات سلطة على عقول ونفوس الناس.

9. الأسطورة مجهولة المؤلف لأنّها نتاج جماعي وليس فرديا، أو هو فردي تتبناه جماعة.

9. تجري أحداث الأسطورة في زمن مقدّس هو غير الزمن الحالي، ومع ذلك يبقى مضمون الأسطورة أكثر صدقا وحقيقة من الروايات التاريخية.[1]

ولعلّ أهمّ ما يميّز الأسطورة هو طابعها القدسي وجدية الموضوع اللذين يسموان بها على درجة المعرفة والممارسة.

1 .5 - وظائف الأسطورة:

اختلف معظم الدارسين في تحديد وظائف الأسطورة فقد ذهب بيار برونال "Pierre Brunel" إلى حصرها في ثلاثة وظائف هي:

أ. ***الوظيفة التبليغية:*** ومعناها أنّ الأسطورة تحكي قصة، فهي تحكي وتبلغ شيئا ما.

ب. *الوظيفة التفسيرية:* ترتبط بنشأة الأسطورة وتفسيرها لظاهرة ما.

ج. *الوظيفة الاستكشافية:* تحاول كشف حقائق الإنسان والإله، بصبغة قداسية تمنح الأسطورة بعدا دينيا.[2]

ويضيف فيليب سيليي "Philippe Sellier" إلى هذه الوظائف وظيفة اجتماعية دينية، حيث تعدّ الأسطورة عنصرا مؤسسا للجماعة، وذلك من خلال تحديدها لجملة من المعايير الحياتية التي تجعل المقدّس يكتنف الحاضر.[3]

ويذهب فراس السواح إلى أنّ الأسطورة –وإن كانت ذات منشأ ديني– فهي "تعمل على توضيحه، وإغنائه، ومن ناحية أخرى فإنّ الأسطورة تعمل على تزويد فكرة الألوهية بألوان وظلال حيّة، لأنّها ترسم للآلهة صورها التي يتخيلها الناس".[4]

---

[1]- فراس السواح. الأسطورة والمعنى. دار علاء الدين. دمشق. . ط1 1997. ص12-14.

[2]- Pierre Bruenel, dictionnaire des Mythes littéraire (préface) est du rocher. Paris. 1988 . نقلا عن عيد الحليم منصوري. ملامح أسطورية في رواية الحوات والقصر للطاهر وطار. مقاربة نقدية أسطورية رسالة ماجسينر .إشراف عبد المجيد حنون.قسم الأدب العربي. جامعة باجي مختار عنابة 2000-2001. P7-15.

[3]- Philippe sellier. qu'est ce qu'un mythe littéraire ? revue littérature, paris, 1984,p113-114. نقلا عن عيد الحليم منصوري. ملامح أسطورية في رواية الحوات والقصر للطاهر وطار. مقاربة نقدية أسطورية رسالة ماجسينر.

[4]- فرا س السواح. الأسطورة والمعنى. ص24.

نستشف مما سبق أنّه لا يمكن عزل الوظيفة الاجتماعية عن الوظيفة الدينية، ذلك أنّ القيم الجماعية تحدّد من خلال الممارسة الدينية بوصفها سمة من السمات الخصوصية التي تجسد المنظومة الاجتماعية.

وتعدّ الوظيفة التفسيرية من أهمّ وظائف الأسطورة إذ تمثل الأصل بالنسبة للوظائف الأخرى

كون الظواهر توجد أولا ثم تظهر تفسيراتها.

5.1-انتشار الأساطير وانحصارها:

هناك طريقتان لتفسير حضور الأساطير في أي مجتمع، وذلك من خلال الانتشار وأعمال المخيلة المستقلة حيث يرى يوسنر "Usener" إمكانية العثور على أسطورة الطوفان في كل جزء من العالم، حيث نجدها حاضرة من خلال الأساطير البابلية والسومرية وانحصارها في منطقة وادي دجلة–الفرات كما نعثر على هذه الأسطورة في بلدان يستعبد فيها الفيضان كما في اليونان أو كنعان.

فمن الجلّي أنّ الأسطورة قد انتقلت من موطنها الأصلي وأبرز مثال على هجرة الأساطير من مواطنها الأصلية هو اكتشاف مقاطع من أسطورة "جلجامش" في أثناء الحفريات الأمريكية في ميجيدو، تروي بطولات كادموس، وكيف حملت الأبجدية الفينيقية إلى اليونان وأصبحت أم الأبجديات.

ويمكن ملاحظة تفسخ الطّقوس وانقراضها، وذلك من خلال زوال الحضارة التي أدت فيها دورا هاما، كما نجد أنّ الأساطير المتعلقة بالطقوس المتفسخة تتحرر من ارتباطاتها الطقسية لتنطوي تحت لواء الأشكال الأدبية وتدخل بذلك في تراث شعوب أخرى، نلمس من خلال أسطورة ذبح التنين التي تعد عماد أسطورة "الخلق" البابلية.[1] نجد أنّ الأساطير قد رافقت الإنسان منذ نشأته ولا تزال ترافقه.

[1]- صموئيل هنري هووك .منعطف المخيلة البشرية. ت: صبحي حديدي. دار الحوار للنشر والتوزيع. سوريا. ط1 1983. ص13. 14

الأسطورة والأدب:

ترتبط الأسطورة ارتباطا وثيقا بالأدب، فكلمة "Mythos" الإنجليزية مشتقة من الأصل اليوناني "Mythos"، وتعني قصة أو حكاية، وكان الفيلسوف أفلاطون أوّل من استعمل تعبير Muthologia وقصد بها فن رواية القصص، وبشكل خاص تلك القصص التي ندعوها اليوم بالأساطير. ولا يحدث هذا الارتباط من خلال أصل الكلمة فحسب، بل إنّه يمتد ليشمل عددا من الخصائص التي تجعل من الأسطورة أدبا أو نصا مدونّا يوفر لنفسه خصائص النص الأدبي جميعها، فإذا كانت الأسطورة شكلا من أشكال النشاط الفكري، فهي بهذا المعنى تلتقي بالأدب بوصفه نشاطا فكريا أيضا، كما تلتقي معه في أنّ لكليهما وظيفةً واحدة هي إيجاد توازن بين الإنسان ومحيطه، كما تسهم – الأسطورة – في تحرير العقل من سطوة الواقع، والتحليق به فوق عالم المحسوسات ومنحه طاقة لترميم حالات التصدع التي ينتجها هذا الواقع. فإنّ الأدب يعد هو الآخر بحثا في الواقع ولكن دون امتثال لقوانينه الموضوعية أو الانصياع لأعرافه المادية... [1]

وتبرز العلاقة بين الأسطورة والأدب على نحو أشدّ وضوحا من خلال الأنواع الأدبية التي يمكن عدّها حلقات متصلة من سلسلة النشاط الإبداعي للفكر البشري، ولا سيما الشعر الذي يمثّل الحاضن الأدبي الأول للأسطورة فـ:" بفضلها اكتسب نفحة الحكمة"[2] . ولعّل أبرز الصلات التي تقيمها الأسطورة مع الشعر أو التي يقيمها الثاني مع الأولى هو أنّ لكليهما جوهرا واحدا على مستوى اللّغة والأداء، فعلى المستوى الأول يشترك الاثنان في تشييدهما لغة استعارية تومئ ولا تفصح وتلهث وراء الحقيقة من دون أن تسعى إلى الإمساك بها.[3]

ويتجلى الثاني من خلال عودة الشعر الدائمة إلى " المنابع البكر للتجربة الإنسانية، ومحاولة التعبير عن الإنسان بوسائل عذراء لم يمتهنها الإستعمال اليومي"[4].

---

[1]- نضال الصالح. النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. منشورات اتحاد كتاب العرب. 2001.
[2]- غريمال بيار. الميثولوجيا اليونانية. ص17. نقلا عن نضال الصالح. النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة
[3]- نضال الصالح. النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة . ص19
[4]- داود أنس. الأسطورة في الشعر العربي الحديث. نقلا عن نضال الصالح النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة.

وعلى النحو نفسه تبرز علاقة الأسطورة بالملحمة التي تعرّف بأنّها قصة مكتوبة شعرا – تتناول خلق الآلهة وصراعها، كما تتميز سيرة بطل " ملحمي" ومغامرته"[1]. ثم بالمسرح

الذي نشأ في أحضان عبادة آلهة الأسطوريين، ولا سيما علاقتها بـ " المأساة" التي " أعطت الأسطورة صوتها، ومنحتها الأسطورة قوتها" [2] .

أمّا الرواية والتي تمثّل: " استطالات للسرد الميثولوجي " والتي مارست فكرة الأحدوثة "Episade " المميزة للأساطير بعامة دورا حاسما في تشكلها"[3] بوصفها وسيلة تعبير جديدة تضاف إلى ما سبقها من وسائل التعبير الدالة على خصوبة المخيلة البشرية وثراءها.

[1]- فريحة أنيس. ملاحم وأساطير من الأدب السامي.ص211 . نقلا عن نضال الصالح.النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة.ص15.

[2]- استييه كولييت: أسطورة أديب.ص50. نقلا عن نضال الصالح النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة.ص15.

[3] -إلياد مرسيا مظاهر الأسطورة .ت:نهاد خياطة. دار كنعان للدراسات و النشر دمشق. ط1. 1991. ص19.

الفصل الأول

التشكل الأسطوري لمدينـة قسنطينـة

- **المبحث الأول:**

أسطورة البدايات والفردوس المفقود

- **المبحث الثاني:**

أسطورة عودة الإبن الضال.

- **المبحث الثالث:**

التشكيل المكاني للأسطورة.

- **المبحث الرابع:**

الأسطورة توظيفها ودلالالتها

المبحث الأول: أسطورة البدايات والفردوس المفقود

لم تحظ مدينة من المدن الجزائرية بهالة من القداسة الأسطورية كما حظيت بها الدهماء[1]وذلك لما تحمله أطلال سيرتا من غموض والتباس. فلو حاولنا التنقيب والتعمق حول بدايات قسنطينة وجذورها لصمت التاريخ وتوارى خجلا، فهو زمن خارج من التاريخ، هارب من كتبه، حلقة منفلتة منه، ففي ذلك الزمن الغابر الغائر في العصور كان النوميديون يملؤون هذه الطلاسم الأسطورية بطولة ومجدا "فالماضي يزهر على حساب ما سيولد...قسنطينة وعنابة المدينتان اللتان كانت سلطتهما تمتد على نوميديا* القديمة...".[2]

وهو ما يحيلنا على أسطورة كبلوط التي تجسد زمن التوحد المنغرس في أعماق الوعي الجماعي(الكل في الواحد والواحد في الكل)، هذه القبيلة التي قدمت من الشرق الأوسط ووصلت إلى إسبانيا وأخيرا استقرت في المغرب تحت قيادة "كبلوط "*، وتعود تسمية كبلوط إلى الأتراك، وتعني " الحبل المقطوع، كبلوط، خذ كلمة حبل بالعربية، فإنك لا تجد بينها وبين الاسم إلا الكاف في البداية عوض الحاء، أضف إلى ذلك تحريف المقطع الأخير".[3]

وجاء معنى الحبل في لسان العرب:"حبل: الحبل: الرباط بفتح الحاء، والجمع أحبل وأحبال وحبال وحبول".

والحبل الرّسن، وحبل الشيء حبلا: شدّه بالحبل.

والحبل العهد والذمة والأمان، يقول الأزهري:

مَازِلْتُ مُعْتَصِمًا بِحَبْلٍ مِنْكُمُ مَنْ حَلّ سَاْحَتَكُمْ بِأَسْبَابِ النَجَا

يقول بن السكيت: الحبل الوصال وقال عز وجل:"وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمْيِعًا..."[4]

قال أبو عبيد: "الاعتصام بحبل الله هو ترك الفرقة واتباع القرآن...".[5]

---

[1]-الدهماء. هي الصفة التي تنعت بها مدينة قسنطينة(التعليق من الكاتب) راجع كاتب ياسين .نجمة. ت:محمد قوبعة. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.ط2. 1987. ص157.

* جاء في الجغرافية الإفريقية القديمة من أنّ الفرس استعمروا هذه الأرض من عصر متوغل في القدم واختلطوا بسكانها واشتهرو فيها يومئذ باسم نوميديا، أو نوماد، ومعناه بلغتهم الرمل، وهو ما يطلق على سكان شرقي الجزائر. ينضر: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة بيروت لبنان، ط1983،6، 32/1. ونموديا منطقة في إفريقيا الشمالية وجدت في أثناء العصور القديمة في جزء مما يعرف بالجزائر، وكانت نوميديا متحالفة مع قرطاجة المجاورة لها عندما بدأت الحرب البونية الثانية بين قرطاجة وروما217 ق م، ومن زعمتئها ماسينيسا. ينضر: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1999، ص591.

[2]-المصدر نفسه. ص182

* تم الإعتماد على ترجمة محمد قوبعة لـ."كبلوط" **Keblout**

[3]-المصدر نفسه. ص130.

[4]- سورة أل عمران/ الآية 103.

[5]- ابن منظور الإفريقي المصري. لسان العرب. دار صادر. بيروت:ط1. 1412هـ1992.(مادة: ح ب ل) ص134- 135.

كما نجد أنّ كلمة كبل تعني الكبل: قيد ضخم، ابن سيده: الكبل والكبل: القيد من أي شيء كان، وقيل هو أعظم ما يكون من الأقياد.[1]

يقول كعب بن زهير:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يفد، مكبول[2]

-ويعتقد أن هذه القبيلة عاشت في الجزائر، كما ارتبطت أسطورة كبلوط بـ:

" أبناء القمر"[3]، فأبناء القمر "عند عرب الجنوب كان القمر هو الإله الذكر الأب، وكانت الشمس الإلهة الأم ".[4]

غير أنّ الراجح أنّ الكاتب يقصد "بني هلال" القبيلة التي قدمت من المشرق العربي وتحديد من أعالي نجد بالجزيرة العربية لتستقر بالمغرب العربي، بوصف أن الهلال جزء من القمر وذلك لارتباط الجزء بالكل. ويذكر كاتب ياسين قبيلة بني هلال الآتية من الشرق الأوسط إلى إفريقيا حاملة شجاعتها وصمودها وتمردها... [5]

« Selon l'un des rares ulémas qui connaissent l'histoire de nos tribus dans le détail, Keblout serait venu d'Espagne avec les Fils de la lune[*] ,et se serait d'abord établi au Maroc, puis serait passé en Algérie… » [6]

وهذا ما يزيد سكانها اعتزازا وفخرا بنسبهم:"ولم تكونا تتحدثان إلا عن قسنطينة والجزائر زمن البطولات، والمجد الغابر... وكانتا-إذا ما انتسبتا- ارتقتا بشجرة النسب إلى النبي، فتقفزان القرون والعصور...".[7]

وهناك رأي ثالث يميل إلى الاعتقاد أنّ " الكبلوط الأول لم يكن قائدا للجند ولا وجيها، بل كان صاحب مذهب، وكان فنانا"[8]، وهذا ما جعله يغادر بلده بحثا عن بلد يوائم أفكاره " فقدم إلى الجزائر صدفة واستقر بها فانتخبه السكان الأصليون أو

---

[1]- ابن منظور الإفريقي المصري .لسان العرب . (مادة: ك ب ل). ص580.
[2]- حنا الفاخوري. الموجز في الأدب العربي وتاريخه. دار الجيل. بيروت: ط3. 2003. م1. ص446.
[3]- كاتب ياسين. نجمة. ت:محمد قوبعة. ص131.
[4]- محمد حسن عبد الله. أساطير عابرة الحضارات: الأسطورة والتشكيل.دار قباء.القاهرة 2000. ص85.
[5]- نور سلمان. الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرر.دار العلم للملايين .بيروت:ط1 .يناير 1981. ص423.
[*] - يبدو أن المترجم جانب الحقيقة عندما ترجم les Fils de la lune بأبناء القمر بينما المقصود "بني هلال".
[6] - Kateb Yacine Nedjma,Edition du seuil 1956. P . 124
[7]- كاتب ياسين. نجمة. ت:محمد قوبعة. ص69.
[8]- المصدر نفسه. ص132.

تبنوه...وانتهى بهم الأمر إلى أن جعلوه شيخ الجماعة"[1].ولا يكاد يصمد هذا الرأي أمام الأحداث التي تلت الاحتلال الفرنسي فمن المرجّح أنْ : " يكون كبلوط الأول ذا سلطان ونفوذ، شيخ قبيلة بدوية أو عشيرة مسلحة تعيش منذ القرون الوسطى في جهة قسنطينة".[2]

وهذا لما يتميّز به جبل الناظور من موقع منعزل مكنّه من تحصين القبيلة والاحتفاظ بها.

وهذا ما يؤكد اختلاف الأجناس واختلاط الأعراق والدّماء والأمم والشعوب، بحيث يستحيل علينا أن نفصل بين كل هذه المكونات والتأثيرات التي شكلت سكان قسنطينة (الجزائر) وبانصهار هذه العناصر المتناثرة معا أُوجدت نجمة " نجمة، السّعلاة ذات النسب الغامض ..."[3]

نجمة التي تومئ إلى التقاء الأرض بالسماء، التقاء الأب "السماء" والإله "الابن" المسيح الإنسان والروح، نجمة تنطلق من التقاء الأرض بالسماء والتوحد، وحدة الكون وهو ما يحيلنا على "أسطورة السديم"[4] التي تروي بدايات العالم، فتكون نجمة مرادفا لهذا الشعب المتعدد الأصول.

ويساند ها الرأي الطاهر وطار في أن الجزائر مزيج من الأعراق.

–"من أين أنت؟

–من الجزائر.

–لكن الجزائر شعوب وقبائل، عرب وبربر وأتراك وغير ذلك

–الجزائر شعب واحد يا أبي. الدم الذي لم يربط أبداننا ربط ترابنا".[5]

هذه الدماء التي سقت الأرض هي أكبر دليل على توحد الجزائري بأرضه لأنّ الشخصية الجزائرية تكوّنت من مجموعة أجناس انصهرت في كيان واحد هو حصيلة هذا التفاعل والتعايش عبر التاريخ... [6]، والتي ما تزال طرقاتها وأزقتها تشهد مرور:

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة. ت:محمد قوبعة. ص132.

[2]- المصدر نفسه. ص ن.

[3]-المصدر نفسه. ص187.

[4]- أوفيد. التحولات: ت: أدونيس. المجمع الثقافي أبو ظبي. الكتاب الأول 2002. ص11.

[5]- الطاهر وطار. الزلزال. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1973. ص82.

[6]- نور سلمان. الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرر. ص430.

"صفاكس ... ماسينيسا ... ويوغرطة... وقبلهم آخرون تركوا في كهوفها ذاكرتهم نقشوا حبهم وخوفهم وآلهتهم".[1]

وقد استثمر وطار هذا البعد العجائبي الذي يغلف سيرتا فيضفي عليها هالة من السحرية والسرية، كما نلمح فراغا وصمتا رهيبا، فهي قسنطينة " الباشاغاوات والآغاوات وقياد ونواب وموظفين ساميين...أنوار ثرية ضخمة تتلألأ، منعكسة على ملاعق الفضة، وكؤوس البلور ومزهريات النحاس ".[2]

وهو ما يعكس الأبهة والفخامة والمستوى الراقي الذي كان ينعم به سكان قسنطينة أيام الباشاوات والآغاوات وباياتها التي نسجت عنهم حكايات وأساطير ما تزال ترويها الأجيال، منها قصة الباي صالح أكبر بايات قسنطينة حيث : " تقول أسطورة شعبية، أن هذا الجسر كان أحد أسباب هلاك (صالح باي) ونهايته المفجعة...".[3]

وقد خلدت ذكراه في مزار " سيدي محمد الغراب "[4] الذي تقام به مجموعة من الطقوس يتشارك فيها كل من المسلمين واليهود، حيث ترمي إلى فكرة التسامح الديني والعقائدي، "عَبْرَ هذه الرابطة أبرزت الكاتبة كيف أنّ التسامح الديني ممكن إذا ما استبدلت الأحقاد التاريخية بالتفاهم وذلك بخلق رابطة دموية بين أعراق عاشت مدة من الزمان في وئام"[5]، هذه هي قسنطينة المزارات والأعياد، حيث: "كان أهل قسنطينة يأتون يأتون إليها كل سنة لاستقبال الربيع ... محمّلين بما أعدّته النساء لتلك المناسبة من " براج " وحلويات وقهوة...".[6] وقد انتقلت هذه الأسطورة مع العرب الوافدين حيث كان المصريون يحتفلون بموسم الربيع، وهذا ما يحيلنا على أسطورة "ديونيزوس".[7]

كما أنّها قسنطينة المولعة بالأغاني الشعبية."فقد خلّدت من بين واحد وأربعين بايا حكمها، اسمه صالح باي وحده، فكتبت فيه أجمل أشعارها، وغنت فجيعة موته في أجمل أغنية رثاء..."[8] غير أنّها مع مرور الزمن أصبحت تغنى للطرب:

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. موفم للنشر.الجزائر. 1993. ص343.
[2]- الطاهر وطار. الزلزال. ص27.
[3]- أحلام مستغانمي .ذاكرة الجسد. ص350.
[4]- المصدر نفسه. ص351.
[5]- محمد معتصم. الرؤيا الفجائعية الأدب العربي في نهاية القرن وبداية الألفية الثالثة.منشورات الاختلاف الجزائر. ط1. 2003. ص28.
[6]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص349.
[7]- ديو نيزوس بن زوس من سيميلي آلهة خصوبة الكروم يقابله باكوس عند الإغريق.
- .ك.ك.راثقين. الأسطورة . ت: جعفر صادق الخليلي. منشورات عويدات: بيروت:1981. ص142.
[8]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص351

"- كَانُوا سْلاَطِينْ وَوزراء ماتوا وقبلنا عزاهم
- نالوا من المال كثرة لا عزهم...لا غناهم
- قالوا العرب قالوا مانعطيوْ صالح ولا مالوُ...".[1]

وهي أيضا قسنطينة الأولياء الصالحين: "أبي يا عيساوى ...أنت الذي كنت في تلك الحلقات المغلقة، في تلك الطقوس الطرقية العجيبة، تغرس في جسدك ذلك السفود الأحمر الملتهب نارً... فيخترق جسدك من طرف إلى آخر، ثم تخرجه دون أن تكون عليه قطرة دم...". [2] فهي توحي إلى ذلك الزمن العجيب. الذي لو حاولنا البحث عن الأسطورة التي تؤسس لهذه المدينة " سيرتا " لوجدناه حافلاً بالمفاجآت، كون "الحكي عن الجذور، اختبار صعب سواء أكان الجذر ممتدا في الخيال أو منبعثا من أرض صلبة...".[3]

فيعتقد أنّ قبيلة "كبلوط" هي النواة المؤسسة لهذا الشعب "القسنطيني" فقد ظل الكبلوطيون يهبون خيرة رجالهم للذوذ عن حمى القبيلة ولتظل القبيلة متماسكة متحدة ضاربة بجذورها في أعماق كل كبلوطي "الواقع أنّ هذا الرجل كان ذا كياسة يعز وجودها، فهو باق في أرضه لم يبرح وكره، تتآكله نزوات غريبة من بينها حبه لنجمة، وتقديسه لمؤسسة القبيلة "كبلوط" ولعله أحد أحفاده... فتاريخ قبيلتنا لم يدون قط، ولكن خيوطه متصلة بعضها ببعض، لم ينقطع منها واحد، لمن شاء أن يبحث في أصوله..."[4]، حيث حيث نلمس حنين-كاتب ياسين- إلى جذوره، فهو يحكي بحميمية وانسياب، ليسترجع ذكرى أجداده آنذاك. ولاسيما "كبلوت" الذي حارب الغزاة الأجانب. [5] أرى انّ القبيلة ترمز ترمز إلى الهوية وإثبات الأصل والدفاع عن الكينونة، كما أنّها ترمز إلى الحياة والعنفوان والحلم والحرية، فهي رمز الجزائر قبل استنزافها ،كما أنّها تحيل إلى أرض المغرب حيث يعتقد أنّ:"أحد أولئك الصعاليك الشرفاء المنفصلين عن قافلتهم أثناء الرحلات التي يرويها الجغرافيون العرب، - قد شهد- وهو ينتقل بين الشرق الأوسط وآسيا، فشمال إفريقيا، أرض المغرب ولادة نجمة..."[6]، أليست ولادة نجمة هي ولادة الجزائر من رحم التحولات والمتناقضات، هذه المدينة الأسطورية التي لطالما تحطمت عند سواحلها كل قوارب الغزاة

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص425.
[2]- المصدر نفسه.ص431.
[3]- محمد معتصم. الرؤيا الفجائعية.الأدب العربي في نهاية القرن وبداية الألفية الثالثة . ص35
[4]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص51.
[5]- عايدة أديب بامية. تطور الأدب القصصي الجزائري. ت: محمد صقر. ديوان المطبوعات الجزائر. ص270.
[6]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص196.

بفضل أبطالها الملحميين حيث: كانت "سيرتا" مدينة نذرت للحب والحروب، تمارس إغراء التاريخ، وتتربص بكل فاتح...[1]. غير أنّ الأيادي الآثمة سرعان ما امتدت لتدمر المدينة "القبيلة" فالناظور خرب على يد الفرنسيين الذين استأصلوا جذور القبيلة " ودمر وقتل أهله...وبعد زمن يسير جزت رؤوس أعيان الستة في اليوم نفسه الواحد تلو الآخر... أما الشيخ كلبوط (وليس هو كبلوط الجد الأكبر، ولكن أحد أحفاده)". فإنه في تلك الفترة قد مات وأصبحت القبيلة بعد تلك الإعدامات الستة، دون شيخ..." [2]، وهي إشارة واضحة إلى انتهاء سلطة القبيلة القبيلة التي خانها أحفاد كبلوط وتخلوا عن تعاليمها ومبادئها، و"أخذت قبيلتنا أثناء ذلك تنهار وقد فقدت شيوخها..." [3]، وتلاشى اسم "كبلوط" وتشتت القبيلة بتحالف أبنائها مع الاستعمار وكان ثمن الخيانة أَنْ :"عين أبناء المحكوم عليهم الستة وهم في المهد قضاة وولاة..." [4]، كما ظهرت "أسماء وألقاب فخمة تناسب وظائفهم وظائفهم المقبلة..." [5]، وهذا ما يعكس الانهيار الأخلاقي وتراجع قيم التكافل والوحدة وانتصار التحالفات الضيقة والمصالح الذاتية تبرر صورة الخيانة المتوارثة... [6] عند الطاهر وطار في –الزلزال– على لسان بوالارواح:" أبي كان عظيما،رئيس قبيلته وزعيم قومه ،عندما كان الفرنسيون يدقون بمطارق من حديد أبواب منطقتنا، كانت قبيلتنا تقاتل ببسالة، ترد الغزو من البحر، وتصد الهجوم من البر، كانت قبيلتنا محصنة، منطقتنا منيعة ومكافحون بواسل...". [7] يبدأ وطار بالفخر والحنين إلى أمجاد الماضي وينتهي به به المطاف إلى الخيبة والألم من واقع مرير يعكس انهزام القيم الأخلاقية الثورية وسجود الأنا للآخر الذي يجسّد القوى المعادية التي تطمح لنسف القبيلة "الوطن" بأيدي أبنائه. "أرسل أبي إلى الفرنسيين يعلمهم" أعطيكم المكافحين وأعطوني الباقي...".[8] إن لفظة الباقي تجسد مدلول الأرض ومجموعة من النياشين والزعامة على الأرجح إلى أنّهم قد "ألبسوه برنسا أحمرَ، ونصبوه "قايد"...".[9]

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص344.
[2]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص132.
[3]- المصدر نفسه.ص133.
[4]- المصدر نفسه. ص ن.
[5]- المصدر نفسه. ص ن.
[6]- مصطفى فاسي دراسات في الرواية الجزائرية. دار القصبة. الجزائر. ص35.
[7]- الطاهر وطار. الزلزال. ص172.
[8]- المصدر نفسه. ص113.
[9]- الطاهر وطار. الزلزال. 113.

وهكذا فقدت القبيلة وانفصل أبناؤها عنها وتاهوا كما ضاعت مبادئهم، عندها حسمت أحلام الأمر في رواية " ذاكرة الجسد " بقولها: " فاسقطي قسنطينة...هذا زمان السقوط السريع".[1]

هو زمن السقوط الذي تسبقه الخيانة وغدت القبيلة "قسنطينة" أملا أو حلما نسيته الذاكرة فأضحت حكاية يرويها الأجداد للأبناء بكثير من الفخر وقليل من الحياء محتفظين لأنفسهم بآلام فقدانها:"إذ حرم اسم كبلوط إلى الأبد، فأضحى في القبيلة سرا يثير الحزن والذكرى الأليمة...".[2]

وبانفصالهم عن القبيلة يبدأ عهد التيه والضياع والقطيعة مع الماضي وجفاء الجذور: "فجعل بعض الشبان ممن نشأوا في الرعب والقلق والضياع يغادرون الناظور خلسة ليستقروا في جهات أخرى من المنطقة...".[3] غير أن قداسة القبيلة ما تزال تفعل مفعولها داخل الضمائر فهؤلاء الشبان غادروا الناظور"دون الانتساب أو الكشف عن هويتهم..."[4]، ويحيلنا على انبثاق الدم الكبلوطي ومحاولة الكبلوطيين استرجاع هذا الماضي الذي وَلّى من دون رجعة حيث: "استجمعت القبيلة المستأصلة أواصرها، وأكثرت من الزيجات بين الأقارب..."[5] كما أنّ " الجماعة أبقت بعض الشيوخ والأرامل في أرض أرض الأجداد التي دنست كي تبقى آثار القبيلة المقسومة قائمة..." [6]

وعادت تعاليم كبلوط تلقن من جديد غير أنّها في هذه المرة كان المشعل بيد النساء– نساء كبلوط– وهذا ما يحيلنا على أسطورة "صلامبو" هذه الراهبة القرطاجنية التي نذرت نفسها لخدمة المعبد إذ:"يحكى إنّ إحدى الأرامل اللاتي ضحت بهن القبيلة فتركهن في الناظور، بقيت وحدها بين الأطلال لتواصل بثّ تعاليم كبلوط..."[7]، وهذا راجع إلى مدى تقديسهم للقبيلة وإدراكهم لمكانتها والدم الكبلوطي الذي:"أضحى رمزا للتكافل ولم الشعث في الأيام العصيبة..."[8] مثيرا فيهم مكامن الذكريات، بهذا الواقع المأساوي أو الرمادي الذي يلف القبيلة، وبذلك يمكن الاهتداء إلى أنّ الكبلوطيين مروا بمراحل ثلاث لتأسيس القبيلة:

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص249.
[2]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص133.
[3]- المصدر نفسه.ص132.
[4]- المصدر نفسه. ص ن.
[5]- المصدر نفسه. ص ن.
[6]- المصدر نفسه ص ن.
[7]- المصدر نفسه. ص ن.
[8]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص133.

حيث بدأت الإرهاصات الأولى مع آباء كبلوط الذين خسروا في الشام:"لقد مر من هنا، بين مصر والجزيرة العربية، آباء كبلوط تتقاذفهم الأمواج مثلنا نحن الآن، غداة هزيمة، لقد خسروا عندها ملكا عظيما..." [1]، فقد ضاع ملكهم في غفلة منهم وحاولوا تجميع الشتات وبعث قبيلة متماسكة متخطين بذلك أخطاء الماضي، وكانت وجهتهم شطر المغرب حيث أسّسوا لقبيلة كبلوط، وبذلك مهدوا لجيل الكبلوط الجد الذي أسس للقبيلة أيام عزّها وكرامتها هذا الجد الذي:"كان يبدو لأحفاده أنّه هو الوحيد الذي عاش حقا حياته بكل ما فيها، هو الوحيد الذي استطاع أن يجد له طريقا حتى والناظور حيث هزم، ولكنه مات على رأس قبيلته، مات وهو على الأرض التي اجتاز من أجلها صحاري مصر وليبيا..."[2]، يعكس قوة وصولة القبيلة وتماسك أفرادها زمن البطولة والكرامة والعزة والعزة والفردوس.

أمّا الجيل الثاني:"جيل الخونة الذين باعوا القبيلة بأبخس ثمن، جيل هدم ما بناه الأجداد وخذلوا وصاياهم، إنّه جيل العار والهزيمة تمثل من خلال:"سي مختار، والد كمال، والد رشيد وسيد أحمد" تتضح نقمة كاتب ياسين على الآباء الذين أجهضوا المقاومة واستسلموا للاستعمار[3] حيث إنّهم تخلوا عن القبيلة التي أرى أنّها تومئ إلى "الجزائر" وانسياقهم خلف الفرنسية التي جعلت أربعة عشاق يتنافسون عليها، كان ثلاثة منهم من قبيلة واحدة، كانوا من سلالة كبلوط..." [4]، بينما كان العاشق الرابع من سلالة أرسطوقراطية:" الذي يحمل كمال اسمه".[5]

يبدو لي أنّ الفرنسية تجسّد فرنسا كما أنّها إشارة واضحة إلى ذلك الصراع الذي كان بين الجزائر وفرنسا بالتالي بين الحضارتين؛ الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية، كما تعكس فترة الغيبوبة والضبابية التي كانت تلف الفكر الجزائري في تلك الفترة حيث انساق الجزائريون خلف الحضارة الغربية البرّاقة المخادعة:"كلّها حركات أخاذة تحول الناظر إلى صنم..."[6]، إشارة واضحة إلى فرنسا المبهرة بأنوارها، كما مثل الأربع عشاق فترة الانحطاط وضياع القبيلة، فهم رغم أنّهم آباء بيولوجيون إلاّ أنّهم آباء يمثلون أبوة ضحلة تافهة سلبية، مرفوضة من أبنائها لأنّهم لم يسلّموا المشعل لأحد:"وانتهى تخريب

---

[1]- المصدر نفسه. ص135.
[2]- المصدر نفسه. ص140.
[3]- نور سلمان. الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرر. ص424.
[4]- كاتب ياسين.نجمة. ت: محمد قوبعة.ص186.
[5]- المصدر نفسه. ص186.
[6]- كاتب ياسين.نجمة. ت: محمد قوبعة. ص8.

القبيلة في دفاتر الحالة المدنية، تلك الدفاتر الأربعة...لقد أنهت السلطة الجديدة عملها على القضاء على القبيلة بأن قسّمت أبناء كبلوط إلى فروع أربعة..."[1] فظهرت الألقاب الفخمة والمناصب العليا، كما أنّ السلطة الفرنسية منحتهم مقابل الخيانة أرضا ومراكز في القضاء:"فمنح رجال السجل الأول أراضي شاسعة...وإلى هذا الفرع ينتسب أبوك وسيدي أحمد...ومنح رجال السجل الثاني وظائف قضائية...وإلى هذا الفرع ينتسب أبي وآل أمر المسجلين في السجل الثالث إلى المصير نفسه أهل السجل الثاني...إلاّ أنّهم ابتعدوا كثيرا بسبب تزاوجهم مع أسر أخرى...أما أهل الفرع الرابع فظلوا قائمين على المسجد، والمزار وما يحيط به من أرض صغيرة وسنجق الجد الأول...".[2]

وهكذا انطفأت شمعة القبيلة الزاهية، وطمر الزمن ذلك الأريج الكبلوطي، "وبضياع الأرض حل اليتم بين الجزائريين، وغاب عنهم الفرح والسلام والحنان".[3]

و أمّا الجيل الثالث: فيبعث عن طريق التقاء الجيل الذي عايش الهزيمة وهذا الجيل الذي توالد منها، وتجلى ذلك من خلال التقاء "رشيد" بـ "سي مختار" الذي يمثل الجيل الذي أضاع الفردوس، فمن أنقاض الخيبة ووخزات الضمير يستفيق سي مختار محاولا بعث "رشيد" من تحت الرماد، فالنار تلد الرماد ومن جمر الرماد تبعث النار، فيعلن سي مختار أبوته التي طالما أنكرها محاولا بذلك جمع شتات القبيلة:"سنذهب معا لنعيش في الناظور، أنت وهي، إبناي، وأنا الشجرة الهرمة التي لم تعد تقوى على تغذية أحد، ولكنها قادرة على أن تمد عليكما ظلها...ويستعيد دم كبلوط حرارته وكثافته فتحمل ككل هزائمنا، في سر القبيلة...".[4]

ماذا...أهو الندم على فقدان الفردوس؟ أم وقوف على طلل القبيلة؟ الفردوس الذي أسسه الأبطال وورثه الخونة وتجرع ويلاته الأبرياء؛ "فما أظلم الليل، في أعماق الأطلال المستردة...".[5]

فهل ترضى هذه الأطلال احتواء أجسادهم وتجاوز خطاياهم بالصفح والغفران؟.

---

[1]- المصدر نفسه. ص133.

[2]- كاتب ياسين. نجمة.ت: محمد قوبعة. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ط2. 1987 ص134.

[3]- Mohammed Dib.qui se souvient de la mer (edition du seuil), paris 1962, p.142 نقلا عن نور سلمان. الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرر. ص426

[4]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص135.

[5]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص135.

المبحث الثاني: أسطورة الابن الضال:

يتطلّع كلّ إنسان إلى عالم مثالي كله سعادة وارتواء وجودي، متخيلا أمكنة ينتعش فيها الحلم وتزهر فيها الحياة، وعندما تظلم الدنيا في وجه الإنسان وتعصف به الرياح والأعاصير من كل جهة يولي وجهه شطر فضاءات أخرى بحثا عن البدائل وعن الغد السعيد، فتصبح الحاجة ماسّة لشد عصا الترحال والضرب في الأرض وارتداد الآفاق المفتوحة، وهنا تبدأ المغامرة بأفراحها وأتراحها، بعذابها ورونقها، بمأساتها وفتوحاتها، إنّه الخروج والتغرب عن الأوطان واستشراف الآمال العريضة وتتجلى هذه الظاهرة بوضوح لدى بعض شخصيات الرواية الجزائرية الذين جسّدوا هذا المسار الدرامي وهذه الأسطورة المرتبطة بالخروج والعودة إلى المنبع والأصل او إلى الجذور، فالأرض تقدم الإنسان السعيد في وفاق مع الطبيعة وإنّ تمرّد الإنسان على الأقدار والآلهة وتنكره للجذور فسيعيش حتما شقيا إلى الأبد[1]، هذا ما سنلمسه من خلال دراستنا لأبطال الروايات الثلاث "نجمة"- "ذاكرة الجسد"- "الزلزال". حيث كان خروجهم طلبا للبديل وبحثا عن المدينة الفاضلة والأرض الطوباوية لتحقيق حلمهم في ظلّ المجتمع السعيد، مخلّدين بذلك ملحمة مأساوية تبدأ بخروجهم بحثا عن الأرض الموعودة الخصبة الأحلام تتجاذبهم الأحلام النرجسية من جهة، ووهم السعادة من جهة أخرى لتنتهي بفشلهم وعودتهم منهزمين يجرون أذيال الخيبة والهزيمة، إنّها لعنة الجذور وثمن عقوق أرض المنبت والأصل.

كان خروج "رشيد"- "بطل رواية نجمة"- بحثا عن نجمة الوهم الذي يراوده ويسعى جاهدا لتجسيده على أرض الواقع، فقد غادر قسنطينة:" مع والد المرأة المجهولة أطلال سيرتا إلى أطلال هيبونة..."[2]، ومن هنا تنطلق رحلة عذابه وتشرده في أزقة بونة "عنابة" بحثا عنها متوهما أنّه سيظفر بها لا محال وقد ساعده "سي مختار" الذي يعتقد أنه والد "نجمة" على اختطافها والعودة بها إلى جبال الناظور بعد أن فشلا في الحج "والحق أننا كنا عازمين على مواصلة الرحلة إلى البقاع المقدسة... ثم عدنا معا، وقد جمع بيننا السر الذي لم يفض منه إليّ إلا بجزء يسير..."[3] إذن حلت الطلاسم وعرف السر الروحي

---

[1]- ويبدو ذلك بوضوح في الأساطير اليونانية القديمة.
[2]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص190.
[3]- المصدر نفسه. ص189.

الذي تستمد منه القبيلة تماسكها وذلك بالالتفاف حولها والعودة إلى الجذور وذلك خلال سماعه لملحمة المشرق أرض "كبلوط" فيلتهب الحنين للجذور ويقرر العودة إلى جبال "الناظور" القبيلة، ويحاول مد جسور الوصال بعد طول هجر وغياب ساعيا في أن يجد له "مكانا في مضارب القبيلة..."[1]. غير أنّ هذه العودة كانت مستحيلة في جبال الناظور "أتركا لنا نجمة واذهبا..."[2]. فضاع الحلم المنشود بضياع نجمة، نجمة التي كلما حاول الظفر بها تحولت إلى سراب:"نجمة التي كنت ظفرت بها في عنابة وفقدتها إثر الاختطاف الذي دبره أبوها..."[3]

وبذلك فشل في استرجاع "نجمة" التي "ترمز للجزائر الكبيرة..."[4]، يفشل في استرجاع الجزائر التي تخطف في جبال الناظور، إنها فكرة الجزائر التي تبحث عن أرض تأصل لها وتمد بها جذورها لذلك يحتضنها الناظور وتبعث قوية من أعاليه في: "– من جبالنا طلع– صوت الأحرار يناديا...". [5]

لذلك رفضت عودة رشيد بالعود والدف لا بالسيف والرمح عاد سائحا ولم يعد مكافحا فمن يريد امتلاك نجمة يجب أن يكون قويا للذود عن شرفها "أين قوتكم؟ أهي العود والدف...؟".[6]

وهكذا انسدت الآفاق أمام رشيد بعد عجزه عن تحقيق مشروعه وطرده من القبيلة والنهاية هي رجوعه إلى قسنطينة مهزوما " كما لو كان يدور في حلقة، دون أن يغادر نقطة الانطلاق..."[7] مستسلما لعجزه فعودته كانت بمثابة "عودة الأعمى يصطدم بماضيه المشحون أساطير... أو كصخرة تائهة محملة بذكريات لا يستطيع شيء أن يصيب منها..."[8] لينتهي به المطاف تائها مفلسا ضائعا في غياهب المخدرات في "فندق "فندق أو "البنسيون" هو مأوى للتعذيب يتعاطى فيه رشيد... تدخين الحشيش هربا من همومه وشقائه..."[9] إنّها اللّعنة، لعنة الأجداد الذين ضيع مجدهم، تلاحقه فلا مجال

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة . ص152.
[2]- المصدر نفسه ص153.
[3]- المصدر نفسه. ص189.
[4]- سعاد محمد خضر. الأدب الجزائري المعاصر. منشورات المكتبة العربية. بيروت. 1967. ص198.
[5]- ورد في رواية نجمة. كاتب ياسين. ت: محمد قوبعة. ص239
[6]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص152.
[7]- المصدر نفسه. ص174.
[8]- المصدر نفسه. ص ن.
[9]- نور سلمان. الأدب الجزائري. ص444.

للهروب منها إلاّ إليها من قسنطينة وإلى قسنطينة غير أنّها عودة مأساوية يشوبها الحزن والألم والشجون.

غير أنّنا نجد خروج "بطل الزلزال" عبد المجيد بوالارواح من قسنطينة الأرستقراطية والعظمة. والمجد الذي يعبده، خرج وهو "بوالارواح" الإقطاعي كما أنّه "عالم في الدين والنحو والصرف..."[1] إضافة إلى المكانة المرموقة التي احتلها بالعاصمة حيث إنّه أصبح من أكبر الأساتذة في إحدى الثانويات ومن أكبر المدراء كذلك، يسمع بقرار الثورة الزراعية، القاضي بتأميم الأراضي فيبادر للعب أوراقه الأخيرة، قبل أن يمسه القرار... [2] فيشد الرحال للعودة إلى قسنطينة وبعد تسعة عشرة سنة من الغياب يعود محتالا مدبرا لا زائر قد شده الحنين، يريد بهذه الزيارة أن يسبق الأحداث وأن ينقذ أملاكه قبل أن تنالها يد التأميم"جئت أقطع الطريق بين الحكومة وبين أراضي بتسجيلها على أقاربي، شرط ألا يحوزوها أو ينالوا ثمارها إلا بعد أن أموت..." [3] محاولا بذلك تجديد علاقته مع أقاربه فقد فقد أوحت له عبقريته الانتهازية الاستعانة بأقاربه، حتى يضمن بقاء أراضيه ريثما تمر حملة الثورة الزراعية فيسترجعها منهم مجددا... [4]

يعكس بوالارواح مأساة الطبقة البرجوازية نتيجة التغيير الذي لحق بقسنطينة منذ الاستقلال حيث توحي لفظة "الزلزال" إلى التغيير والوضع الجديد الذي نسف الذهنية القديمة و"الزلزال رمز للثورة التي يعلنها الحديث الروائي كوعي ممكن، وديمقراطية لا توجد ولكنها في طريق الولادة..."[5] لأنه وما إن يطأ المدينة حتى يصطدم بواقع جديد عكس الذي عاشه فلم تعد قسنطينة النبلاء والباشاوات والآغاوات، غدت قسنطينة الشعب الكادح "قسنطينة الحقيقة انتهت، زلزل زلزالها..." [6] فليس الزلزال غير إحساس بزلزلة وعيه وشعوره وذهنيته اتجاه واقع جديد، فقسنطينة لم تعد "قسنطينة بالباي، وبالفقون، وبن جلول، وبن تشيكو وبن كراره؟..."[7] لقد انتهت وحلت محلها "قسنطينة بوفنار وبو الشعير، وبو الفول، وبوطمين، وبكل الحيوانات والنباتات..."[8] وبذلك يبدأ اليأس يتسلل

---

[1]- الطاهر وطار. الزلزال. ص105.
[2]- واسيني الأعرج. الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية. طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية. الجزائر 1989 ص80.
[3]- الطاهر وطار .الزلزال. ص132.
[4]- مصطفى فاسي. دراسات في الرواية الجزائرية. ص39.
[5]- سعيد علوش الرواية والايديولوجيا في المغرب العربي. دار النشر. لبنان. ط2. 1981. ص69.
[6]- الطاهر وطار. الزلزال. ص28.
[7]- المصدر نفسه. ص ن.
[8]- الطاهر وطار. الزلزال. ص ن.

إليه بعد أن جاء وكله أمل في نجاح مشروعه وهذا ما دفعه بالرجوع إلى الماضي ومقاطعة الحاضر محاولا بذلك إطالة ما أمكن من عمر الماضي واستحضار شخصياته والتأسف على ما آلوا إليه"بالباي الكبير صديق الآغاوات والباش آغاوات والعلماء والحكماء والنواب، وصل إلى هذا المصير...". [1]

هذا المصير الذي أدى به إلى الثورة على الواقع الذي يتغير بسرعة وبهذا الشكل، هؤلاء الناس الذين كانوا كلّ شيء، فجأة أصبحوا لا شيء، الأمر الذي حدا به إلى التوغل أكثر بين دفات الماضي لاستحضار ذلك الزمن الهادئ زمن الاستعمار حيث "تتألق الأنوار، وتنطلق العطور من الغادات الأوروبيات والإسرائليات اللائي يملأن الشوارع كالحوريات...".[2]

فلم تعد قسنطينة "الكولون"[3] فقد صارت مدينة الفلاح والإنسان البسيط وشيء طبيعي أن يحن بوالارواح لزمن الاستعمار لأنه ينتمي إلى "الطبقة البرجوازية التي خلقها الاستعمار...".[4]

بوالارواح يرفض كل محاولة للتغيّير لأنّ هذا التغيّير "الثورة الزراعية" يهدد أملاكه كفرد، وطبقته كنظام يبسط نفوذه اجتماعيا على الطبقات الشعبية، لأنّه لا يؤمن بالمساواة بين أفراد الشعب متجاهلا بذلك تعاليم الدين بل يتحايل على الدين لخدمة مصالحه "يوم يتطاول الحفاة والرعاة رعاة الشاة في البنيان ويوم تلد الأمة ربتها، تقوم الساعة..." [5] والساعة هنا تومئ إلى اقتراب قيام ساعة هذه الطبقة البرجوازية وانقراضها... [6] وهي إشارة واضحة إلى احتضار الطبقة البرجوازية، ولعل عقم بوالارواح يوحي إلى عقم هذه الطبقة واستحالة إخصابها وتكاثرها... [7]

وهكذا يصطدم بوالارواح بواقع جديد هو للطبقة المضمورة التي وجد أصحابها أنفسهم بين ليلة وضحاها ذوي مكانة هامة في المجتمع.

فابن أخيه الطاهر النشال يتحول إلى سي الطاهر صاحب مرتبة عالية في الجيش وبن عمه الغرابلي صار أستاذ بالثانوية غير أن بن خالته عيسى انتحى منحى آخر فمن

---

[1]- المصدر نفسه. ص30.
[2]- الطاهر وطار. الزلزال.ص12.
[3]- واسيني الأعرج. الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية. ص80
[4]- مصطفى فاسي دراسات في الرواية الجزائرية. ص42
[5]- الطاهر وطار. الزلزال. ص160.
[6]- محمد مصايف. الرواية العربية بين الواقعية والالتزام. الدار العربية للكتاب. تونس. 1983. ص68.
[7]- مصطفى فاسي. دراسات في الرواية الجزائرية. ص40.

عيسى الرجل الصالح التقي الصوفي إلى نقابي يدافع عن العمال، هكذا خارت قوى "بوالارواح" بعد أن يأس من التّقرب من أقرباءه والتأقلم مع قسنطينة الجديدة واستسلم للانهيار واليأس والسخط على الواقع وعلى السلطة[1]

فالعالم تغيّر ولم تعد العلاقات القديمة هي المسيطرة، فقد حلّت محلها علاقات إنتاجية جديدة، فيضيع بوالارواح وسط الزحام والضغط النفسي، وإذ "لم يبق في هذا البلد إلاّ ما هو شكلي وحتى هذا الشكلي من الأنهج والمباني والجسور ... والأماكن لن يلبث على ما يبدو أن يستسلم للضغط الفوقي, والتخريب التحتي..."[2] فكل هذه التغيرات التي انتقلت إليه إن بمعايشتها أو بسماعها زادت في التنغيص عليه والزيادة في إثارته حتى تؤدي به إلى تلك النهاية المأساوية "الجنون"أي الانقلاب عن مسار الواقع إلى التيه والضياع فقد ظلت الأرسطوقراطية طريقها إلى قسنطينة وآلت إلى الفناء كما أنّ "الجنون هنا يشير إلى لا معقولية الفكر الإقطاعي...".[3] وبذلك لم يستطع بوالارواح تجاوز تلك اللّعنة –لعنة قسنطينة– التي انصبت عليه وعلى مشروعيه وفشل في التواصل معها.وإذا رأينا من خلال ما سبق ذكره أنّ ضياع رشيد قد تحقق بين مدينة ومدينة أخرى وضياع بوالارواح قد تحقق بين عصر وعصر آخر فإنّ ضياع خالد وأحلام سيتحقق بين زمن وزمن آخر وبين مدينة ومدينة أخرى

ليبلغ ذروته بالضياع بين وطن ووطن آخر إذ تصور –رواية ذاكرة الجسد– خروج كل من خالد وأحلام من قسنطينة باتجاه باريس فكان خروج خالد من قسنطينة الجحيم هربا من ذلك الواقع المأساوي الذي كان سائدا في فترة الاستقلال وانتشار الانتهازية والاستغلال واضطهاد كل من كان ضد هذا النظام حيث كان مصيره "في سجن للتحقيق والتأديب يستضاف فيه بعض الذين لم يبتلعوا ألسنتهم بعد..." [4]وكان خالد واحد منهم وبهذا ضيق الخناق حول خالد، الذي ما يزال متشبثا بمبادئ الثورة وتعاليمها وإخلاصه لهذه الأرض وأولئك الذين أريقت دمائهم دفاعا عنها فـ"هناك أسماء عندما تذكرها تكاد تصلح من جلستك، وتطفئ سيجارتك، تكاد تتحدث عنها وكأنّك تتحدث إليها بنفس تلك الهيبة وذلك الانبهار الأول..." [5] ولذلك كانت رحلة خالد بعد الجبهة امتحانا صعبا لكل

---

[1]- مصطفى فاسي. دراسات في الرواية الجزائرية. ص43.
[2]- الطاهر وطار. الزلزال. ص40.
[3]- واسيني الأعرج. الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية. ص81.
[4]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص283.
[5]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص33.

ما آمن به وناضل من أجله... [1] وهذا ما جعله"يفضل حياة الاغتراب عن الوطن...".[2]

فما كان منه إلاّ أنّ يحزم حقائب القلب ويردف ذلك بقوله "...وأمضي دون أن أدري في اتجاه آخر أيضا، في الاتجاه المعاكس للوطن..." [3]، رحل خالد حاملا معه هم الوطن واللاانتماء محاولا التأقلم مع الوضع الجديد متوهما أنّه باستطاعته التخلص من ذكرى الوطن وشذى قسنطينة وأن يكبح جماح حنينه يقول "رحت أؤثث غربتي بالنسيان، أصنع من المنفى وطنا آخر لي، وطنا ربما أبديا، عليّ أن أتعود العيش فيه...". [4]

عبثا يكابر خالد فقسنطينة جرحه وبلسم جرحه، فهي شفاؤه وشقاؤه، فقد نصحه الطبيب اليوغسلافي قائلا "إذن أرسم أقرب شيء إلى نفسك...أرسم أحب شيء إليك..."[5] إليك..."[5] وكانت قسنطينة الأقرب والأحب والمنفى"ولذلك تتعدد مشاعره نحوها، بين القبول والرفض، بين الهروب واللجوء...".[6]

فهو يغادرها إلى باريس علّه يجد فسحة أوسع لأحلامه وليضع حدا لعذابه وآلمه، رحل خالد إلى "المصير المجهول وهل للمصير اتجاه إلا العودة...".[7]

ولهذا نجده ازداد شوقا وولعا بها فراح يخلدها في لوحاته ولا يرسم سواها، فكانت أوّل ما رسم في غربته وآخرها، وبذلك انهزم أمامها وأرجعته إليها وفي هذا يقول "على أصابع الجرح أعود إلى الوطن..."[8] بعد عشر سنوات من التغرب الممزوج بالألم والحنين والوحدة والفشل ها هو "ذا اليوم، في غربة أخرى وبحزن آخر وبقهر آخر...ولكن بربع قرن إضافي، كان لي فيه كثير من الخيبات والهزائم الذاتية...وقليل من الانتصارات الاستثنائية..." [9] وضاع بذلك حلمه هذا الذي كتبه الاستعمار وشما على جسده وكتبه الانتهازيون بعد الاستقلال صفقة في رصيدهم، ففشل بذلك بالظفر "بأحلام" آخر أحلامه وفرحته المزيفة يقول خالد " لقد بتروا أحلامي...".[10]

---

[1]- فريدة النقاش .قراءة نقدية في رواية ذاكرة الجسد. م العربي الكويت: ع 457. ديسمبر 1996. ص110.
[2]- صالح مفقودة .نصوصوأسئلة دراسات في الأدب الجزائري. دار هومة. الجزائر. ط1. 2002. ص39.
[3]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص459.
[4]- المصدر نفسه. ص ن.
[5]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص70.
[6]- محمد الصالح خرفي .المدينة في الشعر الجزائري المعاصر. م العلوم الإنسانية. جامعة محمد خيضر. بسكرة. الجزائر العدد 10. نوفمبر 2006. ص254.
[7]- محمد معتصم. الرؤيا الفجائعية.الأدب العربي في نهاية القرن وبداية الألفية الثالثة. ص36.
[8]- أحلام مستغانمي .ذاكرة الجسد. ص333.
[9]- أحلام مستغانمي .ذاكرة الجسد. ص72.
[10]- المصدر نفسه. ص123.

يعود خالد إلى قسنطينة تائها ضائعا بين غربة موجعة وواقع مأساوي، ففي الماضي بتر الاستعمار ذراعه وفي الحاضر بتر أبناء وطنه أحلامه على مرأى ومسمع منه فراح يبارك انتصارهم بحضوره، لكأنها لعنة حلت به منذ أن قرر مجافاة قسنطينة فتربصت به وأعادته مرة ليزف حلمه "أحلام" ومرة ليدفن آخاه حسان...[1]

لتصل المأساة ذروتها، فعاد إلى الوطن مهزوما كأنّه طول هذا العمر كان يدور في حلقة مغلقة في دوامة من الحزن والأسى لم يجن منها سوى الجراح "وهذا الوطن...من أين له هذه القدرة الخارقة على لوي المستقيمات وتحويلها إلى دوائر... وأصفار !..." [2]، [2]، فما إن وطأت قدماه أرض الوطن حتى وجد نفسه تائها ضائعا لا يلوي على فعل شيء، إلاّ أن يتضرّع مستعطفا قسنطينة التي تحداها فهزمته "اشرعي بابك واحضنيني...موجعة تلك الغربة...موجعة هذه العودة...".[3]

محاولا بذلك مد جسور التواصل بعد طول قطيعة متوهما خلالها أنّه بمقدوره قطع صلة الرحم مع جذوره وبتر انتمائه غير أن الصخرة الأم لا تلبث مطالبة بأبنائها لتستردهم ولو مكرهين "تلك الأم الطاغية التي تتربص بأولادها، والتي أقسمت أن تعيدنا إليها ولو جثة...".[4]

وهكذا تتحقق عودة خالد إلى قسنطينة غير أنّها عودة مشحونة بالألم والحزن مكللة بالحيرة والضياع .

رحل خالد غريبا وعاد غريبا فيال تعاست الغرباء ! الذين عصف بهم الوطن ولفضتهم الغربة ليرجعوا منكسرين خائبين.

رحل ناشدا حرية التعبير والتغيّير"كنت ممتلئا كذلك بالمثل والقيم، ورغبة في تغيير العقليات، والقيام بثورة داخل العقل الجزائري...".[5]

وعاد متألّما حزينا تائها يطلب الصمت والخلوة."ها أنذا... بحقيبة صغيرة، هنا في اللامكان في هذه النقطة المعلقة بين الأرض والسماء، والهاربة بي من ذاكرة إلى أخرى أجلس على مقعد في الدرجة الثانية للنسيان...". [6]

---

[1]-المصدر نفسه. ص481.
[2]- المصدر نفسه. ص368.
[3]- المصدر نفسه. ص336.
[4]- المصدر نفسه. ص467.
[5]- أحلام مستغانمي .ذاكرة الجسد. ص167.
[6]- المصدر نفسه. ص335.

ففي خضم هذه المأساة وجد أنّ أبلغ تعبير عن الرفض وعن المعاناة، عن الإحساس بالإحباط هو "الصمت" ويكتسي الصمت دلالة عميقة باعتبار أن الكلام الحر أصبح مصادرا وعديم الجدوى لأنّ السلطة الحاكمة ترفض حرية الفكر وحرية التعبير وتصادر كل أنواع الحريات.

فالصمت أصبح له طابعا ثوريا يمثل موقفا وجوديا وإنسانيا وإيديولوجيا.

في المقابل نجد أحلام –ذاكرة الجسد– تغادر قسنطينة باتجاه باريس لتواصل دراستها بجامعة باريس بعد أن توفيت جدتها التي تمثل ذاكرة الماضي والوثاق الوحيد الذي كان يشدها للجزائر"لقد توفيت منذ أربع سنوات، وبعد وفاتها انتقلت أمي لتعيش مع أخي ناصر في العاصمة، وجئت أنا إلى باريس لمتابعة دراستي، لقد غير موتها حياتنا بعض الشيء ...فهي التي ربتنا في الواقع..." لتحقق بذلك ما عجز عن تحقيقه أخوها ناصر الذي تخلى عن الدراسة واتجه للتجارة...[1]، فتعيش عند عمها "الشريف" الذي يقدمها قربانا ليصل من وراء ذلك إلى منصب أعلى، وبذلك تفشل أحلام في مشروعها وهو البحث عن مصير أفضل خارج حدود قسنطينة التي تنعتها بعد زيارتها لها بـ"أنها مدينة لا تطاق...إنها الوصفة المثالية لكي ينتحر المرء أو يصبح مجنونا...". [2]

وبذلك تهزم وتعود خائبة إلى قسنطينة فتزف لضابط عسكري لتسقط في مخالب الانتهازيين وتنهار أمام نظامه الديكتاتوري العسكري، مبدّدة بذلك حلم والدها الذي صادروا حلمه في أن يحضن أبناءه ووطنه"كم أحبك ذلك الرجل...بجنون أبوة الأربعين...بحنان الذي كان يخفي خلف صرامته الكثير من الحنان، بأحلام الذي صودرت منه الأحلام، بزهو المجاهد الذي أدرك وهو يرى مولوده الأول أنه لن يموت تماما بعد اليوم...".[3]

غير أنّهم أماتوه ميتته الثانية يوم زفاف أحلام ومعه كل من أحبوها "زياد" و"خالد".

عودة أحلام إلى قسنطينة تختلف عن عودة رشيد وبوالارواح وخالد لأن عودتها على الرغم من سلبيتها تمثل تخليا عن الحلم الذي طالما راودها، وخضوعا لواقع الحياة المرير، واستسلامها للسلطة التي تجسد كل القيم والرؤى وتناقض منطلقات وأحلام البطلة، فهذه العودة تمثل قمّة المأساة لأنها تكرس الروح الانهزامية وتعمق الجرح الذي هو جرح

---

[1]- المصدر نفسه. ص105.
[2]- المصدر نفسه. ص229.
[3]- أحلام مستغانمي .ذاكرة الجسد. ص52.

البطلة ومن ثمة جرح الوطن فهي "إشارة بالغة الوضوح لسقوط الجزائر في أيدي التجار وأصحاب الصفقات المشبوهة...".[1]

فتعود أحلام إلى قسنطينة لتسقط في أيدي الانتهازيين والمستغلين.

نجد من خلال كل ما سبق ذكره، أن عودة هؤلاء الأبطال هي أسطرة للواقع وتناقض مع أسطورة عودة "الابن الضال".[2] التي نجدها في الأساطير اليونانية القديمة، كما ورد ذكرها في "الإنجيل" فقد أشار المسيح –عليه السلام– إلى قصة عودة "الابن الضال" عندما سرد عودته حيث أخبر المسيح –عليه السلام– "أنّه كان هنا رجل له ابنان فطالب الأصغر بنصيبه من الأملاك، وبعد أن وزع الوالد أملاكه على إبنيه سافر الأصغر إلى بلدة بعيدة وبدد ثروته، والتحق بخدمة رجل من أهل تلك البلدة فأرسله ليرعى الخنازير، عندها ندم وقرر الرجوع إلى بلدته، ولما رآه أبوه أشفق عليه، وقال الأب لعبيده أسرعوا وهاتوا أفخر ثوب وألبسوه وضعوا خاتما في يده...وهاتوا العجل المسمن واذبحوه...".[3]

واحتفل بعودة ابنه الذي رفض أخوه الأكبر عودته، فقال له والده:"أخوك هذا كان ميتا فرجع إلى الحياة، وكان ضالا فَوُجِدَ...". [4]

غير أن عودة أبطال الروايات الثلاث "نجمة"، "ذاكرة الجسد" و"الزلزال" إلى قسنطينة تختلف عن عودة الابن الضال التي ورد ذكرها في "الإنجيل" لأنّ الإبن الضال يندمج في الحياة الاجتماعية وتمحى هفواته ويتغير جذريا فيتخلى عن ماضيه المأساوي ويشرع في حياة جذرية كلها أمل ونشاط وحياة جديدة.

أمّا عودة الأبطال فكانت كما يلي:

رشيد– بطل نجمة– انتقل من قسنطينة الطفولة العراقة والأجداد إلى قسنطينة الخاضعة للسلطة الاستعمارية ويعكس بوالارواح –بطل الزلزال– انتقال قسنطينة من قسنطينة الاستعمار والإقطاع والماضي المجيد للطبقات الغنية إلى قسنطينة الشعب والتحولات الاشتراكية والعهد الجديد يسعى بوالارواح إلى مقاومته بكل الوسائل غير أن قسنطينة الجديدة بروحها الثورية قضت على حلمه وحلم طبقته.

---

[1]- فريدة النقاش. قراءة نقدية في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي. ص112.

[2]-الإنجيل الشريف. مثل الابن الضال. ص116.

NT ISLAR for NA SM.TRANS SECONDPRINTING, 1992 SOM (c)inter national center educational & media services.

[3]-المرجع نفسه. ص117

[4]- الإنجيل الشريف. مثل الابن الضال. ص117

في المقابل نجد عودة خالد "ذاكرة الجسد" تمثل الانتقال من قسنطينة العراقة والتاريخ والثورة إلى قسنطينة الانتهازية والتيه والضياع.

وأخيرا نجد أحلام "ذاكرة الجسد" تصوّر الانتقال من قسنطينة "الفردوس المفقود" إلى مدينة القمع والتسلط والقهر والانتهازية.

فكان التأثر بالأساطير المتعلقة بالخروج والعودة ولكن وفق دلالات جديدة.

المبحث الثالث: التشكيل المكاني للأسطورة:

شكلت الأسطورة عبر الروايات الثلاث "نجمة–الزلزال–ذاكرة الجسد" خلفية بارزة لتطور مجريات الأحداث. فقد اتخذت الأمكنة أبعادا أسطورية تثير الغرابة وذلك من خلال الأوصاف العجائبية التي أُضْفِيَت على هذه الأمكنة إذ امتزج الواقعي بالأسطوري " فالنسيج الأسطوري لم يكن بريئا ولم يكن سهلا في شكله وبنائه (...) وأنّه كان يعتمد على عناصر سحرية، وخرافية لتدعيم تصوراته فإنّ شكل وبناء ذلك المحتوى جعل من الأسطوري والخرافي شيئا ذا أهمية، وذلك الشكل هو الذي أضفى قيمة الكمال على الحكايات".[1]

ففي رواية "نجمة" نجد أنّ الكاتب قد أضفى طابع الأسطورية على فضاء قسنطينة حيث يكمن ذلك في روعة البحث عن سر الجذور وسحر الغوص في أغوار المكان لأنّ "الإحساس بالمكان لا يتم إلا بما يعمر هذا المكان من أشكال وأجسام، وينشئ فينا كل واحد منها إحساسا مميزا له، متصلا بنوعه وهذا الاختلاف في نوعية الإحساس هو الذي يقوم عليه وعي الإنسان للمكان".[2] وقد استطاع كاتب يا سين أن يرحل بنا في هذا الفضاء السحري فضاء "قسنطينة" بوديانها وصخرتها وجسوره رغم ما يكتنف هذا المكان من غموض وضبابية إلاّ أنّه استطاع أن يلج دهاليزه السرية في محاولة للتنقيب عن الجذور والمنبع.

وقد ارتبط المكان في رواية "نجمة" بأسطورة المرأة المتوحشة "نجمة". هذه المرأة التي يتقفى أثرها الأبطال الأربعة "مصطفى، رشيد، الأخضر، ومراد" مخلّدين بذلك ملحمة الجزائر، هذا الوطن الحائر التراب إضافة إلى فضاء مدينة عنابة "بونة" المدينة الثانية التي أرادها كاتب ياسين بشوارعها وأزقتها ببحرها الأسير الذي امتدت على شواطئه هذه المدينة الأسطورية توأمة قسنطينة فـ"قليلة هي المدن المماثلة لتينك اللتين تتجاوران في قلب شمال إفريقيا، تحمل إحداهما اسم العنب والعناب، وتحمل الأخرى إسمًا أقدم من ذلك (...) وربما كان اسما أقدم من سيرتا".[3].

ويمكن حصر الأمكنة الأسطورية عبر الروايات الثلاث إذ نجد:

---

[1]- محمد معتصم. النص السردي الصيغ والمقومات. شركة النشر والتوزيع. الدار البيضاء. ط1. 2004. ص123.
[2]- عبد الصمد عبد الزائد. مفهوم الزمن ودلالاته في الرواية المعاصرة. الدار العربية للكتاب. 1988. ص254.
[3]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة.ص191.

أولا: رواية نجمة.

أ- جبل الناظور:

حيث كان هذا الفضاء بمثابة التربة الخصبة لتبلور أسطورة "كبلوط" هذه القبيلة التي انصهرت فيها مختلف العروق والدماء لتشكل النواة الأولى لتأسيس هذا الشعب الجزائري، كما يضفي كاتب ياسين على شخصيات هذه القبيلة طابع القوة والبطولة والصمود "وبدا له كبلوط، الجد الأسطوري (...) بشاربين كثّين وعيني نمر، وفي يده هراوة (...) الجد الذي كان وجهه كوجه سبع، وعيناه قاتمين ماكرتين، كان يجول بنظره المتكبر بين أفراد قبيلته، وهراوته في يده..."[1] فقد شهد هذا الفضاء قوة وبأس القبيلة أيام عزها، كما شهد تفككها وضياعها بسبب خيانة أبنائها وتحالفهم مع الاستعمار "فخرّب الناظور ودمر وقتل أهله، وعين القضاة العسكريون وبعد زمن يسير، جزت رؤوس أعيان القبيلة الستة".[2]

وتتوالى الصور لتحدد أبعاد المأساة وعمقها وذلك بتفكك القبيلة وضياع مجدها وتجزئة رقعتها وذلك بتخريب المسجد الذي كان بمثابة منارة للعلم والدين بالنسبة لأبنا ء كبلوط، كما يرمز للوحدة والعروبة اللذين سعى الاستعمار جاهدا لطمسها، بافتعال تلك الجريمة لإدانة أبناء كبلوط وتمزيق وحدتهم إذ كان "رمز الدم المسفوح في المسجد يبدو في غير حاجة إلى دليل، وكان حريّا بأنّ يثير حفيظة الغزاة"[3]، وانتهى المسجد إلى طلل مهجور بعد أن غادره أبناؤه "بقي المسجد خربا، طللا، لا يقوم منه إلا السنجق الأخضر، وقد قُدَّ من أسمال الأرامل والشيوخ"[4] فقد عكس هذا الفضاء استبداد وظلم الاستعمار وسعيه لطمس الأسس التي يقوم عليها كيان الشعب الجزائري.

وهكذا يتوحد الأسطوري بالتاريخي ليعبر عن واقع مأساوي، لذلك يجعل كاتب ياسين "النسر رسولا للسلف وكأنه طائر الثأر عند الجاهليين، الذي تتجسّد فيه روح القتيل فيحوم حول الأحياء طالبا الورد من الماء والدم ثأرا له، فالواقع بحاجة إلى الثأر، الثأر من

---

[1]- كاتب ياسين .نجمة.ت:محمد قوبعة.ص139.
[2]- المصدر نفسه. ص132.
[3]- المصدر نفسه. ص133.
[4]- المصدر نفسه. ص ن.

ماض كان الرومان فيه الأسياد والجزائريون عبيدهم وتجدد الماضي بأسياد جدد، ويبقى الجزائريون عبيدا أو قبائل مفككة".[1]

لذلك تخطف نجمة هذه المرأة الأسطورية في جبال الناظور حيث الجذور والانتماء والأصالة من طرف الزنجي الذي يرمز إلى إفريقيا السمراء التي تحرس الجزائر البطلة وتحميها[2] فبواسطة أسطورة نجمة استطاع الكاتب أن يملأ الفراغ الفاصل بين جزائر الماضي وجزائر الحاضر، وذلك بتوحيد الأمكنة حيث ربط الجزائر بالأصل " إفريقيا" فالجزائر جزائرية إفريقية.

فتتلاشى بذلك صورة المرأة "نجمة" شيئا فشيئا لتحل محلها صورة الجزائر بماضيها العريق الممتد حتى أدغال إفريقيا وحاضرها المؤلم المتقوقع، لذلك كان حضور نجمة مسيطراً على الأمكنة كافة كما كان حضورها مهيمناً على "أفكار الأبطال وأحاديثهم حين يجتمعون أو حين ينفردون في عنابة أو قسنطينة أو الناظور، في القطار أو الباخرة حتى في المعتقل والسجن"[3]، فمنها ينطلقون وإليها يرجعون.

فكان هذا الفضاء السحري الأسطوري فضاء الوحدة والقوة حيث استطاعت أسطورة كبلوط أن تؤسس لفضاء جديد فضاء الجزائر المترابطة المترامية الأطراف.

ب- مدينة قسنطينة

عكس كاتب ياسين من خلال هذا الفضاء أسطورة مدينة قسنطينة، وانزياح أمكنتها، فقد استطاع أن يزاوج بين فضاء قسنطينة وأسطورة نجمة و"كأن التغزل في جسد المحبوبة الأسطورية الخالد تغزل في الوطن بكل مكوناته وتاريخه الباذخ الحافل، وبكل انكساراته وانتصاراته، جسد مهما قسا في البعاد والتدلّل فإنه حاضر عزيز بهيّ في النفس والمخيلة"[4]، وبقوة الحلم والخيال تحولت نجمة إلى أسطورة عكست تمسّك الكاتب بمدينته قسنطينة، هذه المدينة التي ولد بها فيقول:"مدينتان عزيزتان إلى نفسي: المدينة التي ولدت بها"[5]...(قسنطينة). فهو بذلك يسترجع ماضي هذه المدينة العريقة، ويربطها بالمرأة المعشوقة، هذه المرأة الطيف الذي يراوده ويجذبه من فضاء إلى آخر "من عنابة إلى

---

[1]- نور سلمان. الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرر. ص424.
[2]- سعاد محمد خضر. الأدب الجزائري المعاصر. ص198.
[3]- أحمد منور. التداخل النصي بين الجازية ونجمة. م.اللغة والأدب. معهد اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر. عدد 13. 1998. ص136.
[4]- محمد معتصم. الرؤيا الفجائعية.الأدب العربي في نهاية القرن وبداية الألفية الثالثة. ص52.
[5]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص180.

قسنطينة ومن قسنطينة إلى عنابة"[1]، حيث تعكس مسيرة شعب يسعى للبحث عن أرضه، هذه الأرض الممزقة التي يسعى لجمع أواصرها والبحث عن أصولها فقد كان البحث عن نجمة بحثا عن الذات ولأجله إذ التحمت المدينة بالأسطورة، أسطورة المرأة الرافضة فـ:"من المدن ما يماثل النساء اللاتي يعصفن كالقدر".[2]

هذه المدينة التي ظلت تحارب الغزاة من فوق صخرتها المتعالية التي ترمز للصمود والمقاومة كما رمزت وديانها إلى تلك الدماء المتدفقة من أعالي المدينة لتخضب هذه الصخرة الصامدة ولتبعث هذه المدينة من مرقدها الفَيْنَقِي.

قسنطينة هذه المدينة العجائبية المعروفة بطلسمها السحري الذي يعتلي بوابتها وكأنّه لغز أو تميمة تحفظ هذه المدينة من نوائب الدهر وتقيها شر الغزاة، كما يشير إلى ذلك بن المبارك حيث يقول:"وبها سور أسفل الجبل أعلى الماء الحار من ناحية الجوف يعرف بباب الرواح (...) ويقال إنّ حكماء قسنطينة الأولين العارفين بموضع الطلاسم وعلم النجوم جعلوا بباب الوادي رصدا لا يدخلها عدو، وقد وُجِدَ مُقَيَّدًا على ظهر كتاب:" غزيت ثمانين مرة فلم يدخلها عدو ولا نال منها شيئا لرصد بها من عمل الحكماء".[3] جعل منها مدينة أسطورية تضاهي المدن الأسطورية العريقة فتحيلنا على مدينة طروادة وطيبة وغرناطة؛ فطيبة التي استقبلت الملك أوديب كان عليه أن يفك طلسمها حتى تفتح له بوابتها المحروسة، ومدينة غرناطة التي اشتهرت بطلسمها "قَرُوج الرواح" الذي يعتلي باب القصبة ليحرس مصيرها.[4]

وبذلك يتناغم التاريخي مع الأسطوري فيضفيان على المدينة وهجا من القداسة والعجائبية، إنها قسنطينة الوعد والوعيد.

ج- فضاء مدينة عنابة

صور الكاتب من خلال هذا الفضاء مدينة عنابة الأسطورية، هذه المدينة النائمة في أحضان البحر الأبيض المتوسط والتي تحيلنا بدورها على أسطورة "سيرين" عروس البحر حيث يمتزج العالم الإنساني بالعالم الحيواني على مدى فضاء الأسطورة اللامتناهي ليضفي على المدينة هسهسة أسطورية وقد نقل كاتب ياسين من خلال هذا الفضاء

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص190.
[2]- المصدر نفسه. ص190.
[3]- عبد الله حمادي. أصوات من الأدب الجزائري الحديث. دار البعث. قسنطينة. 2001. ص329.
[4]- المرجع نفسه .ص328.

عجائبية عنابة وسحرها حيث يصف امتزاج سكان "بونة" الأصليين بالنازحين إليها نتيجة الحربين وازدهار الميناء. [1]

كما أنها مدينة النوادي والمقاهي والمنازل الفخمة والطبيعة الخلابة التي استلبت لب الفرنسيين وعنابة هي المدينة التي فقد فيها رشيد النوم:"والمدينة التي فقدت فيها النوم"[2] فيغرق في هذا الجو الرومانسي عبر فضاء عنابة وقد اختار كاتب يا سين حي "البوسيجور" العتيق الذي يضم المنازل الفخمة والقصور الواعدة المختلفة، حيث كانت تسكن "نجمة" دار "تشرف على فناء منزل تسكنه الجن والأشباح (...) تحيط بها منازل فخمة"[3] هذه المرأة الأسطورية التي اكتشفها بمدينة عنابة، المرأة التي تربط بين قسنطينة وعنابة من خلال انتقالها الدائم عبر هذين الفضاءين "من قسنطينة إلى عنابة، ثم من عنابة إلى قسنطينة، امرأة تسافر متنقلة بينهما".[4]

فعنابة تكمّل قسنطينة، وأسطورة عنابة هي امتداد وتواصل مع أسطورة قسنطينة التي تظهر حقيقتها وتجلياتها من خلال ربطها بعنابة فكانت نجمة هي الخط الواصل بين هاذين المكانين المتناغمين.

د- فضاء الباخرة

رغم أنّ فضاء الباخرة محدود ومغلق إلاّ أنّه يمثّل فضاء الحرية الفسيحة الأرجاء، وقد أحس من خلاله رشيد وسي مختار بالراحة فراح سي مختار يسترسل في الحديث دونما قيد ولا رقيب إذ راح يحكي عن الجذور، عن قبيلة كبلوط، كما كشف سر تلك المرأة الأسطورية "نجمة" قائلا "سأحدثك بأمر: لقد كانت لي ابنة من امرأة فرنسية (...) ثم ضاعت عني آثار البنية (كادت الريح أن تأخذ الصورة التي أبداها لي سي مختار، لقد كانت صورة تلك الفتاة الغريبة التي لقيتها بالمصحة)". [5]

كما طرحت لأول مرة فكرة الوطن هذا الوطن الذي ما يزال في المهد "ينبغي أن تفكر في مصير الوطن الذي جئنا منه، فهو ليس مقاطعة فرنسية(...) ستفكر ربما في أمر الجزائر التي ما انفكت مغزوة، وفي تاريخها المعقد المتشعب".[6]

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة.ت: محمد قوبعة. ص96.
[2]- المصدر نفسه. ص180.
[3]- المصدر نفسه. ص66.
[4]- المصدر نفسه. ص190.
[5]- المصدر نفسه. ص135.
[6]- كاتب ياسين. نجمة.ت: محمد قوبعة. ص134.

فالباخرة تعد فضاء الانطلاق والبوح ففي هذا الفضاء أدرك سي مختار ورشيد كُنْهَ هذا الوطن واستطاع تجاوز شجرة القبيلة التي قطعت واستحال الرجوع إليها "لأننا لسنا أمة، لم نصبح بعد أمة فاعرف ذلك، ما نحن إلا قبائل نكبت واستؤصلت".[1] فالبحث ينبغي أن يكون عن هذا الوطن، وعن بعث فكرة الأمة التي هي في طور الإرهاصات، فيتوحد المكان بالمصير من خلال هذا الفضاء، فهذه الباخرة تحيلنا على باخرة سيدنا نوح عليه السلام إنها باخرة السلام والنجاة...، فتبدو من خلاله نجمة كحمامة سلام لتدلّ على هذا الوطن الغارق في أوحال الاستعمار، لذلك يعودان للبحث عن هذا الوطن الضائع فالعودة إذن هي عودة تاريخية تحمل إلينا عبق التاريخ وروح الأسطورة.

هـ- فضاء السجن

اتّسم هذا الفضاء بالعتمة والضّيق، مما سمح لرشيد بالاختلاء بأفكاره وأن يسبح في فضاء الذاكرة إلى تلك اللحظات التي جمعته مع سي مختار، حيث استرجع ذلك الحديث الذي دار بينهما عن تلك القبيلة وأولئك الأجداد الأسطوريين الذين تزعموا هذه القبيلة المتمردة وبقوة الحلم استطاع رشيد أن يستحضر الجد كبلوط وأفراد قبيلته داخل هذا الفضاء حيث "تجمعت القبيلة شيئا فشيئا في الزنزانة وضاقت الزنزانة بالحضور والمزدحمين والمناكب ولكن لم يكن أحد منهم يجرؤ على الاقتراب من كبلوط".[2]

فاستحضار كبلوط هو استحضار للسلالة التي أضاعها الأبناء لذلك نجد أنّ رشيد لم يخش محاكمة الاستعمار بل خشي محاكمة كبلوط هذا الجد الذي "كان يجول بنظره المتكبر بين أفراد قبيلته وهراوته في يده، كانت نظرته وحدها تروي بسخرية مريرة قصة كل واحد منهم".[3]

فيكشف هذا الحلم عن مدى التعلق بالماضي والاعتزاز بأبطاله الأسطوريين، رغم اتسام هذا الفضاء بالانغلاق إلاّ أنّه مفتوح على ساحة الحلم والذكريات.

ثانيا: روايتا الزلزال وذاكرة الجسد

فضاء مدينة قسنطينة: عكست مدينة قسنطينة في رواية الزلزال المجال المكاني الملعون فقد صور فضاؤها أسطورة مارد يعبث بكل مقدسات الطبقة البرجوازية التي يمثلها

---

[1]- المصدر نفسه. ص ن.
[2]- المصدر نفسه. ص139.
[3]- المصدر نفسه. ص140.

بطل الرواية "بوالأرواح"، هذا المارد الذي يعكس صورة الشعب؛ الطبقة الكادحة فالكاتب قد جعل هذه الشخصية "بوالأرواح" تنتقل، تشتري، تتحاور، تعلق، تنصت، تجلس في المقهى، تطوف بالشوارع والساحات، ليعيد تشكيل هذه المدينة مرة أخرى وذلك من خلال كشف مساوئها ومعالجة عيوبها إنطلاقا من مخاطبة أماكن واقعية خطابا أسطوريا ينبئ بحلول عهد جديد.

أما مدينة قسنطينة في رواية ذاكرة الجسد فقد جاءت حبلى بالدلالات الأسطورية المختلفة حيث تم التركيز على الجانب الأسطوري للمدينة إذ تحولت مدينة قسنطينة بقوة الحلم والخيال إلى فضاء أسطوري إرتقت من خلاله إلى أبراج الأسطورية هذه المدينة التي: " كان اسمها يوما سيرتا، قاهرة كانت... كمدينة أنثى وكانوا رجالا... في غرور العسكر"[1]، إذ أضفت الكاتبة وهجا من الأسطورية والشاعرية على هذه المدينة لتعكس أسطورة وطن بأكمله، يتضح ذلك من خلال مناجاة خالد–بطل ذاكرة الجسد– لهذه المدينة بقوله: " يا شجرة توت تلبس الحداد وراثيا كل موسم.

يا قسنطينة الأثواب...

يا قسنطينة الحبّ... والأفراح والأحزان والأحباب. أجيبي أين تكونين الآن؟

ها هي ذي قسنطينة...

باردة الأطراف والأقدام. محمومة الشفاه. مجنونة الأطوار..."[2]

نلمح تعالقا أسطوريا بين الآلهة اليونانية ومدينة قسنطينة التي غدت فضاء اسطوريا ترقص على ثراه آلهة الأساطير التي تروي أسطورة هذه المدينة وينبغي الإنصات إليها، فالصخرة مثلا تروي نضال أبطال تحولوا بفعل الزمن وعراقة المكان إلى أبطال أسطوريين تقول أحلام: " من هنا مرّ صيفاكس... ماسينيسا ... ويوغرطة ... وقبلهم أخرون. تركوا في كهوفها ذاكرتهم. نقشوا حبّهم وخوفهم وآلهتهم ..."[3]

وهكذا يستدعي المكان الأسطورة ليصوغ محكيات وشخصيات ولدت بفعل هذا التلاحم الذي أضفى على المدينة نكهة الشاعرية التي نلمسها من خلال جسورها، وزواياها، وأولياءها الصالحين، ومقاهيها كلها أنتجت أسطورة مدينة قسنطينة،

---

[1] -أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص343

[2] -المصدر نفسه. ص ن.

[3] - أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص343.

أو بالأحرى جعلتها تولد كأسطورة ساهمت في تشكل هذا الكيان الجزائري. وهذا ما سنفصله فيما يلي:

أ- فضاء المساجد والأضرحة والزوايا

لقد كان حضور المساجد في رواية الزلزال أوفر حظا، إذ ارتبطت المساجد بشخصية "بوالارواح" فهذا الشيخ هو "عالم في الدين والنحو والصرف"[1]، ومن ضمن هذه المساجد نجد مسجد "سيدي رشيد" حيث يقصده بوالارواح لصلاة ركعتين لم تكن للعبادة بل كانت للتضرع لهذا الولي لإيقاف مشروع التأميم، ورغم التغيير الذي شهدته مدينة قسنطينة إلاّ أنّ المساجد والأضرحة ما تزال كما هي "لم يبق من قسنطينة سوى المساجد والزوايا والأضرحة".[2]

غير أنّ أصابع المدينة الجديدة ما تلبث أن تقتحم هذه المساجد فتضفي عليها بعض التغيرات إذ "حتى هذه الأشياء، فقدت كلها محتواها، المساجد يؤذن فيها بالكهرباء، وبالأسطوانات بغير ساعتها، والزوايا صارت تكميليات وثانويات".[3]

مما زاد في ضجر بوالارواح واختناقه من جو هذه المدينة التي تستبد به في كل مكان يحل به ولذلك قصد هذه المساجد والأضرحة والزوايا للشكوى والتضرع، فكان فضاء زاوية سيدي عبد المؤمن مجالا للتنفيس والراحة "زاوية سيدي عبد المؤمن هي ذي بطلائها الأخضر(...) قلب المؤمن يكون مستريحا، إنّها أمارات أمل في الحياة".[4]

تعكس هذه الزوايا والأضرحة انتشار البدع والخرافات في أوساط المجتمع الجزائري، والتي تعد من مخلّفات الاستعمار كما "تحمل قيما ثقافية استقتها من الموروث الشعبي، والثقافة الشعبية التي امتزجت فيها الخرافة والبدعة بالدين فتبنّتها الذهنية الجمعية".[5]

حيث اشتمل هذا الفضاء على مجموعة الأساطير والخرافات المرتبطة بهذه الأضرحة والزوايا والتي تسعى الذهنية الجديدة لمحاربتها والحد من هيمنتها.

---

[1]- الطاهر وطار. الزلزال. ص105.
[2]- المصدر نفسه. ص203.
[3]- المصدر نفسه. ص ن.
[4]- الطاهر وطار. الزلزال. ص116.
[5]- سعيدة بن بوزة .بنية المكان في روايات الطاهر وطار. رسالة ماجستير تحت إشراف عمر بوقرورة.قسم الأدب العربي جامعة باتنة 2000-2001. ص75.

أمّا في رواية – ذاكرة الجسد– نجد الكاتبة تكتفي بالإماءة بلفظة المآذن للمساجد، هذه المآذن التي يرفع صوتها فوق كل الأصوات والوحيدة القادرة على الجهر بصوتها دونما خوف أو خجل، كما أنّها تعد بمثابة "جسور من نوع آخر، جسور عمودية، تمثل الحياة الروحية التي لجأ إليها الناس بصورة جماعية".[1]

يعد هذا الفضاء، فضاء واسعاً يهرع إليه الناس للتنفيس والراحة، كما كان المسجد فضاء اللجوء، حيث استطاعت جدرانه احتواء بؤس المدينة:"والله يا خالد...لو رأيتهم يوم الجمعة يتجهون إلى المساجد بالآلاف حتى تضيق بهم جدرانها (...) لوقفت معهم تصلي دون أن تتساءل لماذا".[2]

فنشعر في هذا الفضاء الرباني بالحميمية والألفة، إذ يعكس هذا الفضاء الراحة النفسية والانسجام مع المكان غير أنّ الزوايا اتخذت لنفسها مسارا آخر تجسد ذلك من خلال علاقة خالد بالمكان، هذا المكان الأسطوري الذي كانت تمارس فوقه طقوس الطرقية العجيبة، ومجموعة الخوارق التي كان يمارسها أصحاب هذه الطريقة في تلك الحلقات المغلقة حيث استحضر خالد زوايا قسنطينة وتضرع لأوليائها "قفوا معي يا أولياء الله...متعب أنا الليلة...فلا تتخلو عني...أما كان منكم أبي أبي يا عيساوى أبا عن جد".[3]

وخالد لم يزر هذه الأماكن، وإنما استحضرها تلك الليلة بفعل التذكر، فهذه الصور بقيت عالقة في ذهنه منذ الصغر ليؤكد بذلك هيمنة هذه الزوايا وتأثيرها في نفوس الجزائريين "ومن ثم يصبح وعي البطل بالمكان جزءا من ذاكرته التي تحمل تفاصيل تاريخية وخلفياته الإيديولوجية والاجتماعية والأخلاقية".[4]

فرغم الصّبغة الخرافية التي تطبع هذا المكان إلاّ أنّه يعبّر عن ارتباط خالد البطل بجذوره وذلك من خلال مناجاته السرية ونداءه الخفي لأجداده الأسطوريين "عيساوى" الذين يمثلون الجذور والأصل والانتماء، وبذلك تعد الزوايا الفضاء الرحب الذي احتوى هذه الأساطير وأحياها إذ رحل الماضي وبعثها من خلال ممارستها في مجموعة من الطقوس العجيبة، فكل مزار يحمل قصة أسطورية تعكس الذاكرة الشعبية التي استطاعت تخليد قصة هلاك صالح باي أحد بايات قسنطينة الذي قتل أحد القديسين فوق ذلك

---

[1]- صالح مفقودة. نصوص وأسئلة. دراسة في الأدب الجزائري. ص44.
[2]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص371.
[3]- المصدر نفسه. ص431.
[4]- عمر بلمقنعي. بناء المكان في الخطاب الروائي "نوار اللوز للأعرج واسيني". م تواصل. الجزائر. ع9. 2002. ص152.

الجسر الذي يحوي هذا المزار "مزار سيدي محمد الغراب" وبذلك نلمح التحام الجسور بالمزارات فهما يتضافران لحمل هذه الأسطورة وعلى الأرجح أن تكون الجسور والزوايا المذكورة بمثابة أقلام وأوراق ؛ فالجسور في امتدادها تحاكي الأقلام التي تمتلئ حبرا لكتابة الأساطير فوق تلك الصفحات "الزوايا"، التي تحوي الأساطير وتحتفظ بها عبر العصور بل تمنحها عناوين إذ لا يخلو مزار من عنوان أو اسم يدل عليه ويغري لاكتشافه، فالجسور تحقق التواصل والتعبير والالتحام بين المكونات الدلالية للمدينة والقلم يحقق الكلمات الدلالية بين الجمل، والزوايا تحتفظ بالأساطير والخرافات والسرديات العريقة كما تحتفظ الأوراق بأسرار الكلمات والتعابير وأسرار الحياة.

ب- الجسور:

لقد كان للجسور في رواية –الزلزال– حضور قويّ ومميّز، فقد قسّمت الرواية إلى سبعة فصول وعُنّون كل فصل من فصولها باسم جسر من جسور قسنطينة: باب القنطرة، سيدي مسيد سيدي راشد، مجاز الغنم، جسر المصعد، جسر الشياطين، جسر الهواء. وقد ربطت هذه الجسور بين أحياء المدينة كما عكست بطريقة متتالية كل مرحلة من المراحل التي مر بها بوالارواح في أثناء تجواله بقسنطينة كما تعد أيضا "رمز المعراج الذي سيؤدي بالشيخ بوالارواح إلى التّطهّر من أفكاره".[1]

فقد كانت هذه الجسور الفضاء الذي يبعث الاطمئنان في نفسه وذلك من خلال التجائه إليها للتنفيس والراحة من الفوضى والاكتظاظ "..ثم إله قسنطينة، الجسر المعلق، اهتز قلب الشيخ عبد المجيد بوالارواح عندما لمح الجسر المعلق".[2]

فيهتز قلبه كلما لمح الجسر لأنّه يمثل السمو والرّفعة والتّعالي هذه السمات التي يتشارك فيها معه، فبوالارواح شخصية بورجوازية متعالية ترفض التواضع للعامة وبذلك يتعالق المكان مع بوالارواح فرغم التغيرات التي لحقت بالمدينة إلاّ أنّ الجسور ما تزال وفية لبوالارواح في شموخها وتعاليها فـ"إنسانية المكان تتجلى في وفائه لأبنائه رغم التحولات المتعددة التي طرأت عليه"[3] لذلك يصل تعلقه به حد التقديس والإكبار لأنه

---

[1]- الطاهر وطار. الزلزال. ص78.
[2]- المصدر نفسه. ص11.
[3]- مرشد أحمد. أنسنة المكان.في روايات عبد الرحمن منيف دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.الإسكندرية. ص19.

رمز الصمود والتحدي كما تفصح الجسور المعلقة عن شخصية بوالارواح المعلقة "بدورها بين الرجاء واليأس في تحقيق مشروعها".[1]

كما كشف تقديس بوالارواح لهذا الجسر عن الأساطير القديمة، حيث قدّس الإنسان البدائي كل ما رآه عاليا ولذلك نلحظ أنّ الملوك وذي الشأن دوما تتخذ لها مكانا عاليا عن العامة. وعلى الأرجح أن يكون إحساس بوالارواح بالتقديس والعظمة لهذا الجسر كونه أنجز من لدن الفرنسيين الذين ما يزال يشدّه الحنين لزمنهم، ويبدو أنّ امتداد هذه الجسور ليس امتدادا واقعيا جغرافيا بل هو امتداد نفسي خيالي أراده الكاتب لإبراز جهود بوالارواح في التواصل مع هذه المدينة الجديدة إلاّ أنّه فشل في التواصل معها لذلك كان ينتابه شعور بالزلزال لأنّ هذه المدينة الجديدة ترفض التواصل معه وتصد كل مساعيه.

غير أنّ جسور –ذاكرة الجسد– كان لها دلالات مختلفة ترتبط بماضي المدينة وأساطيرها إذ أنّ "اسم كل جسر من جسور المدينة يخلف وراءه حكاية نشأته وكبره، ومن ثمة ذوبانه في ذاكرة قسنطينة الشعبية".[2]

فقد ارتبط جسر "قنطرة الحبال" بقصة هلاك "صالح باي" الذي قطع رأس "سيدي محمد" أحد القديسين فوق هذا الجسر وعندما سقط رأسه تحول إلى غراب ولعن "صالح باي" الذي هجر أراضيه وبيته واكتفى بداره في المدينة[3]، وبذلك تلتحم الأسطورة بالمكان لتدلل عليه وتؤصل لنفسها، فقد كان فضاء الجسور النواة الأولى لبعض الأساطير والتي لا تتخذ معناها إلا إذا وضعت في علاقة تفاعل مع الزوايا التي تحوي هذه الأساطير ذلك أنّهما فضاءان يكملان بعضهما.

كما ارتبطت الجسور "بالمرأة" أحلام فكانت جسورا خيالية تعكس نفسية خالد – بطل الرواية– في الغربة فكانت جسورا وهمية امتدت من أعماقه لتتواصل مع هذا الوطن الذي هجره وتبعث فيه مكامن الذكريات وتحي الماضي عن طريق هذه المرأة "أحلام" التي كلما هَمَّ برسمها رسم جسور قسنطينة: "فالحديث عن اللوحة "حنين" هو حديث عن طرفي الجسر، عن الحياة الماضية والحاضرة، هو حديث عن أحلام الشهداء، وما آلت إليه في

---

[1]- سعيدة بن بوزة بنية المكان في روايات الطاهر وطار. ص100.

[2]- صالح ولعة. المكان ودارما المكان في رواية العالم بلا خرائط لجبرا وعبد الرحمن منيف. م التبيين. ع 16. الجزائر 2000. ص55.

[3]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص350.

الحاضر، وهو حديث عن الوضع في البلاد وعن المستقبل، وكل ذلك يمكن أن يرمز له بالجسر".[1]

ففضاء الجسر هو فضاء تنتعش فيه الحكايا الأسطورية، كما أنه فضاء الذكريات المشحونة بالألم.

وكأنّ استحضار جسد المحبوبة استحضار للوطن، فالذاكرة هي الجسر الذي يربطه بهذه المدينة.

ج- المقهى والمطعم:

يبرز الكاتب من خلال هذا الفضاء التغيير السلبي الذي لحق بالمدينة إذ أجرى مقارنة بين المقاهي في الماضي زمن الاستعمار حيث كانت فضاء يأوي المثقفين من كامل العمالة "مقهى البهجة كان في ذاكم الزمن وكرا للمثقفين من كامل العمالة، لا يشعر الغريب الذي يدخله إلاّ والنادل يقف عند رأسه هامسا ثمن مشروبك مدفوع.

– ومن دفعه؟

– قسنطيني حر يأبى أن يعلن عن نفسه".[2]

فالمقهى لا يزال في موضوعه غير أنّه فقد بهجته وتدهورت حاله إلى الأسوء ولم يدل عليه إلاّ تلك اللافتة المعلقة. كما استبدلت تلك الأغاني العذبة التي كانت تملأ فضاء المقهى بدقات الحجر القوية "الدومينو". وبذلك يكشف هذا الفضاء عن طغيان المظاهر الشعبية وغياب مظاهر الترف والرقي، فكان فضاء التخلف والاكتظاظ، وحال المقهى لا تختلف عن حال المطاعم في رواية الزلزال إذ تغير المكان إلى الأسوء بل غدا خرابا "عاد ببصره إلى المطعم إنّه هو (...) نزل درجة إلى اليمين ليجد نفسه داخل المحل، طلاء الجدران ذائب إلى درجة فقد معها لونه، المقاعد اختفت وحلّت محلّها مصاطب خشبية متداعية والمناضد المستديرة حلت محلها رفوف زنكية على الجدران...". [3]

نستشف من هذا الوصف أنّ المكان تدهور حاله وفقد مظاهر التألق والرفاهية، فزمن الاستعمار والطبقات البرجوازية قد وَلَّى والحاضر هو للطبقات الكادحة، لذلك أحسّ بوالارواح بالحيرة والضّيق، فالطبقة التي ينتمي إليها في حالة احتضار.

---

[1]- صالح مفقودة. نصوص وأسئلة دراسة في الأدب الجزائري.ص21.

[2]- الطاهر وطار. الزلزال.ص39.

[3]- الطاهر وطار. الزلزال. ص23.

كما تعود بنا –أحلام مستغانمي– في –ذاكرة الجسد– إلى الثلاثينيات حيث تصف المقاهي القديمة التي كانت تقتصر على الوجهاء والعلماء والفنانين حيث كانت "تعد القهوة على الوجاق الحجري، وتقدم بالجزوة، ويخجل النادل أن يلاحقك بطلباته، كان يكفيه شرف وجودك عنده".[1]

زمن "بن باديس" الذي كان يتردد على "مقهى بن يامنة" و"مقهى بوعرعور" الذي كان يجتمع فيه بلعطار وباشتارزي فتضفي على المكان بعد فنيا "وهكذا، تعطي الكاتبة للمقهى القديم صفة الإجلال واللياقة، مشيرة إلى أنّ الوجهاء، كانوا يرتادونها".[2]

د- الساحات والشوارع والأنهج:

لقد ركّز الكاتب في رواية الزلزال على وصف الشوارع والأزقة والأنهج، ذلك أنّ "الأحياء والشوارع تعتبر أماكن انتقال نموذجية فهي التي ستشهد حركة الشخصيات وتشكل مسرحا لغدوها ورواحها عندما تغادر أماكن إقامتها أو عملها"[3] غير أنّ هذه الساحات والشوارع تتسم بصفة الاكتظاظ والضيق، وذلك راجع لنفسية بوالارواح الذي يصفها بـ"الدنيا تغلي تموج تغلي تموج أربعة شوارع كبرى تدفع، وتبتلع، الساحة تبتلع وتدفع، العربات هاربة، الصفوف طويلة في انتظار الشاحنات".[4] فضيق المكان زاد من عذابه واضطرابه وبدت له المدينة بوجهها القاسي ممّا ولد في نفسه السأم والكره كما ملأت حياته بالعذاب والقهر.[5]

كما يقف بوالارواح عند صفة إضافية يتميز بها هذا الفضاء وهي القذارة نتيجة لضيق الأزقة وكثرة المحلات فتمتزج الروائح مع بعضها البعض إلى جانب المسارب والمجاري المائية، فتفوح منها رائحة العفونة والنتانة، "فصفة القذارة تعد نتيجة طبيعة، وحصيلة آلية لمجموعة المواصفات الأخرى "الضيق، الاكتظاظ، الكثرة""[6]، وذلك راجع للنزوح الريفي الذي شوه صورة هذه الشوارع "راح الشيخ بوالارواح يدفع نفسه دفعا، صاعدا الدرج الحجري وسط دقات مطارق الاسكافيين، ورائحة الجلد والأقدام والآباط...".[7] والتذمر من هذا الجو الموبوء الذي يعتري المكان، هذا المكان الذي أصبح بالنسبة له

---

[1]- أحلام مستغانمي ذاكرة الجسد. ص368.
[2]- صالح مفقودة. نصوصوأسئلة دراسة في الأدب الجزائري. ص43.
[3]- بحراوي حسن. بناء الشكل الروائي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط1. ص79.
[4]- الطاهر وطار. الزلزال. ص52.
[5]- مرشد أحمد. أنسنة المكان.في روايات عبد الرحمن منيف. ص33.
[6]- سعيدة بن بوزة بنية المكان في روايات الطاهر وطار. ص82.
[7]- الطاهر وطار. الزلزال. ص33.

كمتاهة معقدة تعكس "تراجيديا الإقطاع في مجتمع ومدينة متغيّرة متحوّلة ومتصارعة (...) هي متاهة "بوالأرواح" وضياعه وسبب إخفاق مشروعه، هي موضع ومقر لنزاعات اجتماعية وصراعات طبقية داخلية، بعد أن كانت مكان النزاع الكونيالي بين المستعمر والمستعمر قديما".[1]

كما يستاء بوالارواح من الحالة المزرية التي آلت إليها رحبة الجمال هذه الرحبة التي كانت واسعة غير أنّ مساحتها تقلّصت بفعل التدفق البشري الذي طرأ على المدينة "رحبة الجمال كما كانت لكنها ضيقة لا تتسع لخمسين جملا(...) يقين أنّها كانت فسيحة وصغرت شيئا بعد شيء، كلما هجرها جمل ومكث فيها راكبه".[2]

فقد كان هذا الفضاء فضاء معاناة واختناق، فهذه المدينة الجديدة تطارد بوالارواح وتتبدّى له كسعلاة تخنقه وتضيق مساره.

هـ- فضاء المباني:

لا تختلف صورة المباني عن صورة الأنهج والساحات والشوارع فالنظرة نفسها، إذ ينعتها بوالارواح بالتخلف والقدم حيث يصف هذه الأمكنة بأنّها "الحي كله يبدو قصبة الجزائر مقلوبة، هذا القرميد من عهد نوح (...) الجدران مائلة إلى المنحدر بشكل فظيع، دور كثيرة متصدعة، دور كثيرة مهجورة، دور كثيرة مستندة على بعضها البعض".[3]

تتصف هذه البنايات بالقدم، فالمواد المصنوعة منها مواد تقليدية ترجع إلى العصور السابقة كما أنّها متصدعة مهددة بالانهيار، يواصل بوالارواح تذمره من المكان واحتقاره للنازحين الجدد إذ يقارنه بين عهدين؛ عهد الاستعمار وعهد الاستقلال "أسكت، أسكت، الفرنسيون خرجوا، المسلمون خلفوهم، الشقة التي كانت تأوي عائلة أضحت تأوي عدة عائلات..أسر الفرنسيين كانت لا تتعدى الثلاثة أو الأربعة (...) أما أسر بني عمك، فلا أقل من تسعة وعشرة"[4] فهذه الشقق تتسم بالاكتظاظ إضافة إلى سمة القدم، والقذارة وعدم الانسجام لذلك يستغرب بوالارواح حينما:"قابلته بناية أنيقة استغرب وجودها فراح يتأملها..."[5] وهي إشارة إلى شعاع أمل في إمكانية تطور المدينة، هذه المدينة التي

---

[1]- عمار بلحسن. صراع الخطابات حول القصوالإيديولوجيا في رواية الزلزال للطاهر وطار. م. فصول. ع1-2. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1989. ص137.

[2]- الطاهر وطار. الزلزال. ص102.

[3]- الطاهر وطار. الزلزال. ص135.

[4]- المصدر نفسه.ص27-28.

[5]- المصدر نفسه. ص15.

تؤسس طبقة جديدة هي طبقة الشعب وهي بالنسبة لبوالارواح المدينة الملعونة....التي ينعتها بأقذر الصفات كما أنه يتيه عبر فضائها الذي أضحى فضاء غريبا عنه، فقد استوحش المكان ولم يستطيع التآلف معه، ذلك لأنه ينتمي إلى طبقة لم يعد لها وجود أو هي في طور الاحتضار.[1].

تتجلى مدينة قسنطينة من خلال هذا التناغم السمفوني بين كل هذه الجزئيات وتلك المكونات إذ تعد بمثابة كائن حي تلتحم فيه الأعضاء وتتعالق في ديناميكية حية وتفاعل خلاّق، فعبقرية المدينة تتجلى في هذا التنوع وذلك الثراء الذي يصفي عليها وهجا وإشعاعية وعمقا حضاريا وتتدخل هنا اللّغات والتعابير الأسطورية لتنسج التاريخ الغائب والحياة الخفية لهذه المدينة الضاربة الجذور في أعماق التاريخ الجزائري والمتخيّل الإنساني.

و- مدينة باريس:

بالمقابل نجد فضاء مدينة باريس هذه المدينة التي تعدّ "رمز الحرية والعدالة والثورية، والتي تحتضن الأحرار والسياسيين من جميع أنحاء العالم".[2]

وقد ارتبطت باريس بقسنطينة عن طريق خالد وأحلام وكاترين حيث شكلوا همزة وصل بين مدنيتين تتصف الأولى بأقسى درجات التحرر والانفتاح وتتميز الأخرى بطابعها المحافظ حد الانغلاق والتقوقع.

وقد كان لاستحضار مدينة باريس نكهة أسطورية ورؤية إبداعية خيالية تجلّت من خلال تمازجها مع مدينة قسنطينة التي استحضرها خالد من خلال لوحاته فيلتقي الماضي بالحاضر ويمتزج الواقعي بالأسطوري ليشكل تناغما سامفونيا بين المدينتين.

غير أنّ الكاتبة لا تنقل من ذلك الفضاء الباريسي سوى فضاءين الشقة التي يسكنها خالد والمعرض الذي أقامه.

1- شقة خالد:

حاول خالد أن يجعل شقته في باريس مرآة عاكسة لمدينته قسنطينة حيث نقل عبر المتخيل والذكريات إلى عالم الصور والذكريات واللوحات الزيتية وكل مكونات البيت

---

[1]- المصدر نفسه. ص102.

[2]- مرشد أحمد أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف. ص37.

الداخلية ويبلغ هذا الفضاء قمته الأسطورية حينما يرتبط بأحلام طيف قسنطينة الذي يلحق به إلى باريس ويغريه بالعودة.

يقول خالد "عبدا لمدينة أصبحت أنت، لذاكرة أصبحت أنت، لكل شيء لمسته أو عبرته يوما".[1]

2- معرض الرسم:

عرض خالد من خلال هذا الفضاء مدينة قسنطينة بكل تجلياتها فكانت حاضرة ومنافسة لمدينة باريس واستطاع جسر قنطرة الحبال أن يبسط نفوذه على جسر ميرابو خاصة بدخول "أحلام" المعرض والتحامه معها فكانت قسنطينة الأسطورة بكل عجائبيتها وإغراءاتها يقول خالد "يوم دخلت هذه القاعة، دخلت قسنطينة معك".[2]

ولم يحد هذا الفضاء عن مسار نظيريه إذ كان فضاء الذكرى المشحونة بالألم والأسى، إذ شكّلت قسنطينة جغرافيّة المتخيّل الخاص بالهويّة الثقافيّة الأصليّة في مواجهة الإختلاف الثّقافي والحضاري الذي تجسّده مدينة باريس كرمز للآخر المختلف ثقافيّا وحضاريا، فالتّواصل بين المدينتين هو تواصلّ بين الحنين إلى الجذور من جهة والتّطلع إلى معانقة الآفاق اللامحدودة والإنعتاق من سيطرة سجن الإنغلاق والإنطواء.

وهكذا يمكننا الإهتداء إلى أنّ الأسطورة قد تسلّلت إلى الفضاء وشكّلته وفق الروح الإبداعية للروائيّين الذين أدركوا أهمية الأسطورة في نسج العوالم الأدبية والثقافية والحضارية.

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص193.

[2]- المصدر نفسه. ص135.

المبحث الرابع: التوظيف الأسطوري ودلالته:

سعى الأدباء إلى توظيف الأسطورة نظرا لحمولتها الثقافية والتاريخية والحضارية والطاقات الإبداعية التي تزخر بها، وقد عمد هؤلاء الأدباء إلى توظيفها بهدف الوصول إلى اجمل الأساليب وأرقاها من الدلالة وتعميق الرؤيا واستحضار عوالم خفية تسكن الذاكرة الجماعية والأبنية الإنسانية العميقة تأريخ لحياة الإنسان بأفراحها وأخزانها وأحلامها المتجددة،وهي أيضا محاولة منه لتغيرعالم لم يعد يرضيه. والأدب ما هو إلا تعامل بطريقة أو بأخرى مع الأسطورة التي تنام في كلّ العوالم السردية وقد برع الأدباء الجزائريون في استحضار الأسطورة بمفهومها الواسع وتوظيفها في شتى مجالات الإبداع للوصول إلى تعابير ودلالات متنوعة تسمو بأدبهم إلى مرتبة الآداب العالمية وهكذا يتجذر الأدب الجزائري في هذه الأصالة الأسطورية لينفتح عن العالم ويستشرف الآفاق اللامحدودة.

أسطورية العدد سبعة:

تبوأ العدد سبعة الأسطوري مكانة مدهشة في التقاليد والسحر والفولكلور والديانات لدى جميع الشعوب منذ العصور الموغلة في القدم و"لعله إنّما استوحى من مظاهر الطبيعة الأخرى كالثريا ذات النجوم السبع".[1]

لذلك نجده محاطا بكل هذه العجائبية، إذ تعامل معه السحرة والمشعوذون كما نجده يتكرر كثيرا في مختلف الأساطير القديمة كأسطورة النسور السبعة في قصة لقمان بن عاد حيث نجد:" أن النزعة الأسطورية هنا تقوم على فولكلورية العدد سبعة، بحيث نجد كل شيء يتكرر سبع مرات"[2]، فالنسور سبعة والأمكنة سبعة والبيضات سبعة والهواتف سبعة.

كما ارتبط هذا العدد في وظائفه الأولى بالفكر الديني"فالذي يقرأ الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ويقرأ القرآن الكريم، يلاحظ أن هذا الرمز يتردد كثيرا وبخاصة في

[1]- عبد المالك مرتاض. الميثولوجيا عند العرب. الدار التونسية للنشر. تونس. 1989. ص72.
[2]- المرجع نفسه. ص72.

التوراة والإنجيل، وحتى التشريعات التي نشأت عن هذه الكتب نجد بعضها مبنيا على هذا العدد".[1]

فقد جاء في العهد القديم ارتباط العدد "سبعة" بأسطورة الخلق والتكوين "وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا".[2]

كما ورد في القرآن الكريم: "إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش".[3]

كما ارتبط هذا العدد أيضا بالعبادات حيث نجده في الحج والطواف بأنواعه الثلاثة حول الكعبة يكون سبعة أشواط، والرجم سبع مرات والسعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط وهكذا "يتردد العدد سبعة في القرآن الكريم أيضا كثيرا وبالحسبان تردد أربعا وعشرين مرة ولم يحدث لأي عدد آخر أن تردد مثله".[4]

ويعد العدد –سبعة– رمزا من رموز الصوفية، فالأسماء السبعة الأولى عندهم المسماة بالأسماء الإلهية هي: الحي، العالم، المريد، القادر، السميع، البصير، والمتكلم...[5]

ويتميّز العدد سبعة كونه "يوم المحاورات الكبرى والصغرى في تاريخ الأمم والأفراد والمجتمعات، هو ملحمة الصراع التي لا تنتهي منذ استراح الرب بعد أن خلق العالم في ستة أيام...أو منذ رفع المسيح على خشبة الصليب وهو صراع الفكر، كما أنّه صراع الفن، ولكنّه قبل الفكر وبعد الفن هو صراع الحياة ذاتها من أدق تفاصيلها وشؤونها الصغيرة إلى كلياتها، الفلسفية الكبرى".[6]

وقد ارتبط اسم بطل رواية –الزلزال– بالعدد سبعة حيث إنّ "اسم الشخص علامة لغوية بامتياز".[7]

وقد أعطى هذا الاسم بعداً أسطوريا، فهو يحيلنا على مرجعية شعبية فـ: بوالارواح اسم يطلق على الهر ذي سبعة أرواح للتدليل على طول عمره رغم المهالك التي يتعرض لها إلاّ أنّه يخرج منها سالما، كما يطلق "بوالارواح" على الشخص الكثير الجرائم "ونعتقد

---

[1]- الصغير محمد. العدد 7 في التراث الديني والإنساني. م المساءلة. ع2. الجزائر 1992. ص125.
[2]- الكتاب المقدس. العهد القديم. سفر التكوين. الإصحاح الثاني.
[3]- سورة الأعراف/ الآية 54.
[4]- عبد المالك مرتاض عناصر التراث الشعبي في اللاز. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1987. ص25.
[5]- الصغير محمد. العدد 7 في التراث الديني والإنساني. ص138.
[6]- غالي شكري. محاورات اليوم السابع. دار الطليعة. بيروت. 1980. ص7.
[7]- حسن بحراوي. بناء الشكل الروائي. المركز الثقافي العربي. بيروت. 1990. ص256.

أنّ الكاتب يوحي لنا بالصفة الأخيرة، فالبطل في المشاهد الأخيرة من الرواية يسترجع صور النساء اللواتي قتلهن".[1]

فقد قام بقتلهن حنقا يقول بوالارواح "ارتميت عليها، انبهرت، استسلمت، ازرورق وجهها وارتسمت آثار أصابعي في عنقها...". [2]

فتبدو هذه الشخصية بغيضة أشبه بغول أو تنين بما تحمله من وجوه واستعارات مخيفة فلقب بوالارواح يقترن:" باسم من قتل أرواحا وبقي مديونا بأعناقها".[3]

وهذا ما تؤكده الرواية، فبوالارواح مقترفٌ لجرائم كلّ ضحاياه فيها نساء وقد عكس عبد المجيد ووالده علاقة هذه العائلة بالمرأة إذ نجده يقتل كما كان والده يقتل:"زوجة أبي الصغرى قالت كلاما فضيعا أبوك قتلها، خنق أنفاسها. طلبها لغسل قدميه، أغلق الباب خلفها وانفرد بها، في الصباح وجدناها ميتة ووجدنا الدم في قميصها".[4]

كما نجد الكاتب يوظف هذا الرقم لإضفاء نوع من الأجواء الأسطورية عبر الرقم سبعة السحري، فالعدد سبعة هو نموذج للأيام السبعة التي تحيلنا على الحياة هذه الحياة التي كانت تحياها هذه الأسرة التي "تذكرنا بما نعثر عليه في بعض الحكايات والأساطير القديمة من تلك اللعنات التي تلاحق أسرا معينة أو أفراد معينين، فلا مجال للهروب منها".[5]

ويتجلى حضور العدد سبعة على مستوى تتابع الأحداث، حيث يقول بوالارواح "دفناها..بعد سبعة أيام ماتت أمي...بعد سبعة أيام أخرى هربت زوجة أبي الثانية...بعد سبعة أيام أخرى دفنت زوجة أبي الثالثة".[6]

ويبدو أنّ الكاتب هنا يرمز للإقطاع هذه الطبقة التي كانت ممثلة في الماضي عن طريق الاستعمار وفي الحاضر مع بقايا مخلّفات الطبقة البرجوازية، فبوالارواح هنا رمز لـ:"تعدد رؤوس الإقطاع وأرواحه"[7]، فما أن ينتهي هذا الشعب من طائفة حتى تبرز أخرى ولعله يجدر بنا الإشارة إلى التنين ذي السبعة رؤوس الذي ورد ذكره في الأساطير الأوغاتية:

---

[1]- إدريس بودبية. الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار. منشورات جامعة منتوري. قسنطينة. ط1. 2000. ص151.
[2]- الطاهر وطار. الزلزال. ص178.
[3]- عمار بلحسن. صراع الخطابات حول القصوالإيديولوجيا في رواية "الزلزال" للطاهر وطار. ص136.
[4]- الطاهر وطار. الزلزال. ص174.
[5]- مصطفى فاسي. دراسات في الرواية الجزائرية. ص37.
[6]- الطاهر وطار. الزلزال. ص179.
[7]- عمار بلحسن. صراع الخطابات حول القصوالإيديولوجيا في رواية الزلزال لطاهر وطار.ص136.

"في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه
القاسي العظيم الشديد لوتيان
وطبع نهاية للحية الملتوية
الهاربة
شالياط ذات الرؤوس السبعة".[1]

حيث تجسد هذه الأسطورة صراع الإله بعل مع التنين لوتان الحية ذات السبع رؤوس كما عكست الصراع القديم الذي كان بين قوى الخير والنور وقوى الشر والعماء حيث تسعى هذه القوى الشريرة لإرجاع العالم إلى حالته السكونية الأولى، هذه القوى العمياء التي تنبعث من جديد في هيئة القوى المدمرة القديمة فتعيد إلى الذاكرة الطيور العملاقة أو التنانين البحرية المريعة، أو الحيات الهائلة المتعددة الرؤوس.[2]

وهذا ما يجسده بوالارواح سليل الطبقة الإقطاعية ووريث "الباش آغاوات" هذه الطبقة الخائنة التي كانت في الماضي عميلة للاستعمار ومتحالفة مع البورجوازية الزراعية الكونيالية، والبورجوازية اليهودية التجارية الربوية.[3]

فتعدّد أوجه هذه الطبقة إلاّ أنّها في الأخير تعود بجذورها إلى الطبقة الأصل الطبقة الإقطاعية الاستعمارية.

وقد أضفى هذا الرقم "سبعة" السحري الطلسمي إشعاعا أسطوريا على الرواية كما استطاع أن يؤسطر المتخيل الأدبي عن طريق تحرير الأحداث الروائية من قيود الواقعية، إضافة إلى تكثيف التجربة الرمزية حيث تنفتح رمزية العدد سبعة عبر صفحات الرواية على كل المجالات الفكرية والأسطورية وحتى الدينية والعقائدية، ويعد هذا العدد دعامة من دعائم المثيولوجيا الدينية والمعتقدات الشعبية التي تحيلنا على الثوابت الإنسانية المتأصلة في ذاكرة الشعوب عبر مختلف المجتمعات الإنسانية.

---

[1]- فراس السواح. مغامرة العقل الأولى. ص185.
[2]-المرجع نفسه. ص171.
[3]- عمار بلحسن. صراع الخطابات حول القصوالإيديولوجيا في رواية الزلزال لطاهر وطار ص136.

أسطورة القرابين:

أدى شعور الإنسان بالعجز أمام القوى الطبيعية التي تحيط به إلى خلق فكرة القوى الغيبية المتحكّمة في هذه الظواهر الطبيعية، مجسدا إياها في شكل أساطير "الآلهة".

وراحت المخيلة الإنسانية تنسج حكايا وأساطير حول هذه الآلهة أو الأرباب ظنا منها أنه بمقدورها التحكم في مصيره إن بشقائه أم بسعادته، فراح يمارس مختلف الطقوس التي يسعى من خلالها إلى كسب ود هذه الآلهة أو إتقاء شرها، من هنا برزت فكرة القرابين التي ورد تعريفها في موسوعة "ميكروسوفت" أن "القربان هو فعل مقدّس نقدمه كهدية إلى الإله أو الكائن الروحي لنحافظ على العلاقة المقدسة بين الإنسان والإله، ويكون القربان في شكل إنسان، أو حيوان، أو فواكه، أو زرع، أو خمر".[1]

ونجد في لسان العرب أن "القربان مصدر قرّب يقرب، أي يتقربون إلى الله بإراقة دمائهم في الجهاد، وكان قربان الأمم السالفة ذبح البقر والغنم والإبل، وفي الحديث الشريف "الصلاة قربان كلّ تقيّ".[2]

وقد اعتقد الإنسان البدائي بوجود القرابين لدى مجتمع الآلهة قبل خلق الإنسان حيث تحكي الأساطير السومرية أن "أنكي" الإله الأعظم بعد فراغه من الخلق استراح وبنى له بيتا و"عندما يصل آنكي في مركبيه إلى نيجور مدينة أنليل، يقيم مأدبة للآلهة يقدم لهم فيها الطعام والخمر، وفي نهايتها يقف أنليل فيثني على ما فعله أنكي (...) ويمنحه بركاته ورضاه"[3] وهكذا فقد كانت المأدبة بحثا وتقربا لنيل الرضا والبركات وتقترن فكرة القرابين بأسطورة هابيل وقاييل حيث نجد في العهد القديم "وحدث بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب، وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ومن سمانها فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر"[4] وبذلك قبلت تقدمة هابيل ورفضت تقدمة قايين.

كما كانت الفتيات تتزين في أعياد آثينا وتحملن القرابين للآلهة في الأعياد اليونانية القديمة:

---

[1]- Encyclopédie Microsoft R. Encarta R.991998 .1993
نقلا عن. عبد الحليم منصوري. ملامح أسطورية في رواية الحوات والقصر للطاهر وطار.رسالة ماجستير. إشراف عبد المجيد حنون. 2000-2001. ص62

[2]- ابن منظور. لسان العرب. مادة:(ق ر ب). ص54.

[3]- فراس السواح. مغامرة العقل الأولى. ص49.

[4]-الكتاب المقدس. العهد القديم. سفر التكوين. الإصحاح الرابع.

"– وحدث في هذا اليوم أن فتيات طاهرات
– أثقلن رؤوسهن، وفقا للعادة بسلال تتوجها الزهور
– كن يحملن إلى قلعة بالآس (Pallas) احتفاء بالعيد
–الأشياء الطاهرة الخاصة بعبادته"...[1]

كما تحكي أسطورة بيجماليون أنه قدم القرابين للآلهة فينوس التي كان يحتفل بعيدها متضرعا إليها بأن تمنحه زوجة شبيهة بعذراء العاج:

"ها هو يحل اليوم الذي تحتفل فيه قبرص كلها
بعيد فينوس احتفالا متألقا:
عِجْلاَت كُسيت قرونها المقوسة بالذهب
.....
التي تحز أعناقهن البيضاء كالثلج
والبخور يتصاعد من جميع الأنحاء
بعد أن وضع بيجماليون قربانه
قال: واقفا أمام المعبد، بصوت خجول:
....
فإنني أتوسل إليك
أن تمنحني زوجة"..[2]

وقد تجلت أسطورة تقديم القرابين في رواية الزلزال في نذر عبد المجيد بوالارواح الذي يتضرع للولي سيدي راشد لإيقاف مشروع الثورة الزراعية "يا سيدي راشد، يا ولي الله، قضيت تسع ساعات في الطريق قادما من العاصمة في هذا الحر، الأمر يهمني، ويهم جميع الصالحين الذين أورثهم الله أرضه (...) جئت أقطع الطريق بين الحكومة وبين أرضي (...).

[1]- أوفيد. التحولات. ت: أدونيس. ص112.
[2]- المرجع نفسه. ص591.

وعدتك كبيرة يا سيدي راشد، شمعة، بل، علبة شمع، إن أوقفت هذا المشروع...".[1]

وقد أضفى هذا العنصر الأسطوري على الرواية بعدا أسطوريا إذ ارتبطت بالمسار الدرامي للأحداث، ففكرة "الوعدة" أو القربان هي التي وجهت مسار بوالارواح، فقد كانت نقطة البداية التي طورت الحدث الروائي وبلغت ذروته حينما نقم بوالارواح على هذه المدينة وسكانها الجدد: "نار فتنة تأكلهم.زلزال عظيم يأتي على الرعاع الذين يفكرون في منحهم أرضنا؟ وعدتك كبيرة يا سيدي راشد".[2]

أمّا في رواية –ذاكرة الجسد–فقد اتخذت القرابين طابعا احتفاليا حيث كان الناس يأتون إلى المزار" في نهايات الأسبوع وفي المواسم، لقضاء أسبوع كامل يرتدون من خلاله ثيابا وردية، يؤدون بها طقوسا متوارثة جيلا عن آخر".[3]

حيث توارث القسنطينيون هذه الطقوس التي كانت تقام يوم السبت في إحتفال عظيم وفي أوقات معينة من السنة بمزار سيدي مسيد فقد كانت النساء تجلب معها أفئدة الضان والمعز ويخرجن إلى الجبل يصطحبهن أفواج من الزنوج بطبولهم، ثم يرمين هذه الأفئدة إلى النسور فتلطقتها النسور عندها يعتقدن أنّ الأولياء الصالحين قد رضوا عنهن، وهذه النسور تمثل الأولياء حسب اعتقادهن، كما كن يطفن الديار بتيس كان قد زين بأفخر الثياب لجمع التبرعات... [4]

ونلاحظ من خلال ما سبق أن هذه القرابين تنحى منحى آخر بالنسبة للجهة التي يتقرب منها حيث نجدها في الأساطير الشرقية تبذل للآلهة، غير أنّها في هاتين الروايتين تقدم للأولياء الصالحين، كما أنّها أحيانا يتقرّب بها إلى الشياطين زعما منهم أنّها تقيهم الشر والسوء حيث كانت تتجه النسوة إلى بركة ماء "فيقدمن له ذبائح الحمام، ويستحممن في المياه الدافئة لبركته الصخرية حيث كانت تستحم السلاحف"[5]، وهذه البركة هي ما يسمى ب"البرمة" تلقي فيه النساء التمر والحمص والجوز واللوز عندما تأكله السلاحف تزغرد النساء زعما منهن أنّ الجن قد قبلت القربان.[6]

---

[1]- الطاهر وطار. الزلزال. ص132.
[2]-المصدر نفسه. ص ن.
[3]- أحلام مستغانمي ذاكرة الجسد. ص350.
[4]- عبد الله حمادي. أصوات من الأدب الجزائري الحديث. ص334.
[5]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص350.
[6]- عبد الله حمادي. أصوات من الأدب الجزائري الحديث. ص335.

وقد أشار بن الحسن بن محمد الوزان في كتابه "وصف إفريقيا" في القرن الخامس عشر الميلادي إلى هذه الطقوس حيث قال:"(يوجد بقرب النهر) وعلى مسافة نحو ثلاث رميات حجر من المدينة، يوجد حمام مكون من عين ماء ساخن يتدفق بين أحجار ضخمة ويعيش فيها عدد كبير من السلاحف تعتقد النساء أنهان شياطين، وإذا اتفق أن أصيبت إحدى النساء بالحمى أو غيرها تقول إن سبب ذلك يرجع إلى السلاحف، وللتخلص من الداء تذبح حينا دجاجة بيضاء تضعها في إناء بريشها الكامل ثم تربط حول الإناء شمعات وتحمله إلى العين حيث تتركه".[1]

وقد كشفت أسطورة القرابين عن المعتقدات المتفشية في المجتمع القسنطيني الذي هو عينة من المجتمع الجزائري حيث كان الهروب إلى العوالم الروحية هو محاولة للهروب من المأزق و"أملا في الخلاص وبحث عن المعادل الوجداني المفعمة بالسمو والامتلاء"[2]، ولأنه وجد من خلالها اللذة والملاذ من واقع مرير.

أمّا في رواية– نجمة– فيبدو أنّ القبيلة قد كانت لها عادة تتمثل في التضحية بالبنات للنسور القابعة في الجبال يقول كاتب ياسين:"إن كان النسر قد مضى بفريسته، كان ذلك دليلا على أنّ اللعنة التي حلت بالقبيلة آذنت بالزوال، بفضل العذراءين اللتين قدّمتا قربانا لتطمئن روح كبلوط في رقدتها"[3]، كما يعد هذا القربان رمزاً لأمجاد القبيلة وقوتها وسطوتها عبر التاريخ ووفاء لروح الأجداد وجسرًا للتواصل مع الماضي والنهل من المنابع الأسطورية الكبرى.

وقد أشعّ هذا العنصر الأسطوري "القربان" على الروايات الثلاث إشعاعا عظيما، إذ ارتبط بمسار الشخصيات كما طور الحدث الروائي وذلك من خلال تلاحم العنصر الأسطوري مع العنصر التاريخي، مما يجعل خيط الفصل بينهما رفيعًا، وهكذا استطاع الروائيون من خلال توظيفهم لهذا العنصر الأسطوري منح نصوصهم بعدا جماليا مشحونا بطاقات رمزية وإيحائية عميقة.

---

[1]- عبد الله حمادي. أصوات من الأدب الجزائري الحديث. ص335.
[2]- عبد القادر فيدوح. الرؤيا والتأويل. دار الوصال .ط1. 1994. ص53.
[3]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص139.

ثالثا: أسطورة الفردوس المفقود:

تحكي هذه الأسطورة أنّ الإنسان كان يعيش في الجنة، وقد ورد ذكرها في الكتب المقدّسة حيث نجد في العهد القديم "وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها، وأوصى الرب الإله آدم قائلا: من شجرة الجنة تأكل أكلا أمّا شجرة المعرفة الخير والشر فلا تأكل منها".[1]

كما في القرآن الكريم:"وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة".[2]

وتروي الأسطورة التوارتية أنّ الإنسان كان يعيش العصر الذهبي قبل هبوطه إلى دنيا العبودية والتغرب.

"في تلك الأيام، لم يكن هناك حية ولا عقرب ولا ضبع

...

لم يكن هناك خوف ولا رعب

....

في تلك الأيام كانت "شوبور" أرض المشرق، أرض الوفرة والشرائع والعدل

وسومر أرض الجنوب، ذات اللسان الواحد، أرض الشرائع الملكية

.....

وكان العالم أجمع يعيش في انسجام تام

وبلسان واحد يسبح الكل بحمد أنليل"[3]

غير أنّ خطأ الإنسان جعله يهبط إلى أرض الشقاء والبؤس، ففي الكتاب المقدّس نجد أن المرأة هي مصدر الخطيئة، فقد أكلت من الشجرة المحرمة، ثم أعطت آدم فأكل، "فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت، فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت، فقال من أعلمك أنك عريان، هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة، فأكلت منها.

---

[1]-الكتاب المقدس. العهد القديم. سفر التكوين. الإصحاح الأول.
[2]- سورة البقرة/ الآية. 34.
[3]- فراس السواح. مغامرة العقل الأولى. ص191.

فقال الرّب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت...فقالت المرأة الحية غرتني فأكلت".[1]

عندها أنزل الرّب العقاب بالحية حيث جعلها "ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية(...) وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه"، كما عاقب المرأة أن جعل"تكثيرا أكثر أتعاب حملك، بالوجع تلدين أولادا، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك".[2]

ولم يقتصر عقاب الرب عليهما فحسب بل تعداه إلى آدم حيث قال "ملعونة الأرض بسببك تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب وإلى تراب تعود".[3]

وهكذا فقد الإنسان الحياة الأبدية بفقدانه لجنة النعيم حيث تم طرده من الفردوس.

نجد في المقابل القرآن الكريم يشرك كل من آدم وحواء في الخطيئة حيث يقول تعالى:"فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه".[4]

وتجلّت هذه الأسطورة "الفردوس المفقود" في النص الروائي من خلال أسطورة أرض كبلوط، هذا الجد الأسطوري الذي أسّس قبيلة كبلوط في جبل الناظور حيث عاشت القبيلة أزهى أيامها على هذه الأرض الفردوسية ونعم أفرادها بالاستقرار.هذه القبيلة التي "قدمت من الشرق الأوسط، ورحلت إلى اسبانيا ثم استقرت بالمغرب تحت قيادة كبلوط".[5]

غير أنّ الأمور لم تستقر على هذا فقد تشتت القبيلة بسبب خيانة بعض أفرادها لتعاليم كبلوط وتحالفهم مع الاستعمار ولم يبق بالأرض المباركة إلا فئة قليلة " الذين نذروا أن يعيشوا في الغابة متزّهدين".[6]

وتتقاطع هذه الأسطورة مع الأسطورة الأصل في تحميل الخطأ حيث كان الرجل هو مصدر الخطأ أو سبب ضياع الفردوس وفقدانه "فلقد كانوا يرفضون كل تصالح مع أقربائهم الذين تركوا القبيلة، وتسببوا في هلاكها".[7]

---

[1]- الكتاب المقدس. العهد القديم. سفر التكوين. الإصحاح الثاني.
[2]- المصدر نفسه.
[3]- المصدر نفسه.
[4]- سورة البقرة/ الآية35.
[5]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص130.
[6]- المصدر نفسه. ص156.
[7]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص156.

كما نجد أنّ المرأة في هذه الأسطورة قد حظيت بمكانة راقية حيث يعود إليها سبب بقاء قبيلة كبلوط ومحاولة بعثها كان ذلك من خلال المرأة "نجمة" هذه المرأة الأسطورية التي يحتضنها "الناظور" أرض الأجداد هذا الفردوس المفقود الذي يسعى أبطال الرواية لاستعادته وذلك من خلال وصية كبلوط "لقد أوصى كبلوط بألاّ نحمي سوى بناته"[1] أمّا العقاب فقد أنزل بالذكور "أما الذكور المتسكعون، فليعيشوا كالوحوش، بين الجبال والأودية، إذ تخلوا عن الذود عن أرضهم".[2]

وهكذا أنزل الجد كبلوط عقابه بالذكور فحسب أما النساء فقد أولاهن بالرعاية والحماية وهنا تتقاطع الأسطورة مع الرواية في تشابك وتناغم يضفي على النص أجواء عجائبية كما يثري البعد الدلالي ويوسع من دارة إيحاءاته.

وقد استطاع الروائيون توظيف الأسطورة وتحميلها دلالات عميقة لتعبّر عن رؤيتهم الأيديولوجية ونظرتهم للعالم ولإبراز موقفهم من الحياة والعالم كما تعبّر الأسطورة عندهم عن رؤية جمالية سردية تعيد تشكيل العالم من خلال عبقريتهم الأدبية.

---

[1]- المصدر نفسه. ص ن.

[2]- المصدر نفسه. ص ن.

الفصل الثاني

قسنطينة التاريخ والحضارة

- تمهيد: تقاطع الاسطورة مع التاريخ
- المبحث الأول: قسنطينة من الاسطورةْ الى التاريخ
- المبحث الثاني: قسنطينة التاريخ والحضارة
- المبحث الثالث: عظمة التاريخ وزيف الواقع
- المبحث الرابع: حفريات الذاكرة والوعي المأساوي بالتاريخ.

تمهيد : تقاطع الأسطورة مع التاريخ:

ترتبط الأسطورة بالتاريخ ارتباطا وثيقا حيث إنّ معظم الوقائع التي تحكيها الأساطير هي وقائع ذات صبغة تاريخية «إذ ولد التاريخ من رحم الأسطورة وتربى في حجرها»[1]، وقد استطاعت الذاكرة البشرية الاحتفاظ بتلك الوقائع لفترة طويلة مما حدا ببعض الدارسين إلى الإعتقاد بـ: «أنّ عددا غير قليل من الأساطير القديمة هو نوع من التدوين البدائي للتاريخ»[2] وهذا راجع إلى أنّ الأساطير تضم بين طياتها بعضا من الحقائق التاريخية الضاربة بجذورها في الأزمنة القديمة ويؤكّد ذلك "مرسيا إلياد" بقوله إنّ «ذكرى حدث تاريخي، أو شخصية تاريخية، لا تدوم في الذاكرة الشعبية أكثر من قرنين أو ثلاثة... وتعزى تلك الظاهرة إلى كون الذاكرة الشعبية تجد صعوبة في الاحتفاظ بالأحداث الفردية وبالوجوه الحقيقية. إنّها تعمل على نسق مغاير وبواسطة بنى مختلفة، فتحتفظ بالأصناف بدلا من الأحداث، وبالنماذج القديمة بدلا من الشخصيات التاريخية...».[3]

كما يرجح عدد من الباحثين قضية التمييز بين التاريخين الأسطوري والتاريخي أنه تمييز معاصر، وإن احتوت بعض الأساطير شيئا من التاريخ فهو «شبيه بالتاريخ» على حد قول "مايكل كرانت" الذي «لا يسجل ما حدث، بل ما حسب الناس، أو اعتقدوا في أوقات مختلفة أنه قد حدث».[4]

فقد ارتبطت الأسطورة بالتاريخ بشكل مثير وجذاب، فالأسطورة تعد ترقيعا للتاريخ الذي ضاع من الذاكرة الإنسانية عبر العصور الماضية.

كما أنّ «التراث التاريخي الباكر امتزج بالأدب في تراث شعوب الأرض كلها كما كتبه "ثوكيديدس" في التراث الإغريقي تاريخا، قريب إلى درجة مذهلة مما كتبه "أرستو فانيس" في فن المسرح حول موضوع واحد هو الحرب البيلونيزية...».[5]

كما يقارن "كلود ليفي شتراوس" بين الأسطورة والتاريخ حيث يرى أنّ ذلك التعارض البسيط بين الميثولوجيا والتاريخ ليس تعارضا متميزا واضح الملامح. بل ثمة مستوى

---

[1]- داوود سلوم وحسن الربابعة. التأثر و التأثير بين التراث الشرقي و العربي و التراث اليوناني . المركز القومي للنشر الأردن.1999 . ص149.

[2]- نضال الصالح. النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة ص14.

[3]- إلياد مرسيا. أسطورة العودة الأبدية. ص76. نقلا عن نضال الصالح. النزوع الأسطوري. في الرواية العربية المعاصرة. ص14.

[4]- ك.ك راثقين. الأسطورة. ت:جعفر صادق الخليلي. ص22.

[5]- داوود سلوم وحسن الربابعة. التأثر و التأثير بين التراث الشرقي و العربي و التراث اليوناني. ص145.

وسيط فالميثولوجيا ثابتة، ذلك لأنّها تعتمد على تركيب العناصر الأسطورية ذاتها المرة تلو الأخرى، غير أنّها لا تحيد عن نسق مغلق، بيد أنّ التاريخ نسق مفتوح وصفة التاريخ المفتوحة تحوي طريق لا حصر لها يمكن من خلالها ترتيب وإعادة ترتيب الخلايا الأسطورية أو الخلايا التفسيرية التي كانت في الأصل أسطورية. هذه الصفة توضّح أنّ استعمال المادة ذاتها: من حيث هي نوع من الإرث العام أو الميراث العام لكل المجموعات والعشائر والسلالات البشرية يتيح للمرء النجاح في بناء عرض أصلي لكل منهما[1]، ويؤكد "كرانت" أنّه:« لكي تتكون لدينا فكرة عن حضارة ما يلزمنا تاريخ وشبيه للتاريخ أيضا»[2] ذلك أنّ الأسطورة تكمل التاريخ والتاريخ يخدم الأسطورة.

كما أنّ التاريخ:« يمنح الأسطورة مادتها الوقائعية ويخدم كحلبة يجري عليها التاريخ الأسطوري».[3]

وبفضل التاريخ نستطيع الاهتداء إلى الأسطورة، كما نلمس الوقائع التاريخية الحقيقية.[4] فالعلاقة إذن تكاملية بينهما، حيث نجد أنّ الأسطورة تحاول ليّ عنق التاريخ وتطويعه للحدّ منها في المقابل نجد أيضا أنّ التاريخ يعتمد على الأسطورة لملء الفجوات والثغرات التاريخية.

---

[1]- كلود ليفي شتراوس. الأسطورة و المعنى .ت:صبحي حديدي.دار الحوار للنشر .اللاذقية ط 1 1985. ص.29.
[2]- ك.ك رائقين. الأسطورة.ت: جعفر صادق الخليلي. ص. 22.
[3]- أليكسي لوسيف. فلسفة الأسطورة.ت:منذر بدر حلوم. دار الحوار للنشر و التوزيع. سورية.ط1 2000ص.216.
[4]المرجع نفسه ص ن.

المبحث الأول: قسنطية عبر التاريخ:

إذا كان الحديث في الفصل السابق عن قسنطينة الأسطورة وعن تشكلها وتجلياتها الأسطورية، فإنّ الحديث في هذا الفصل سينصب على تشكلها تاريخيا وسيبحث عن تجلياتها التاريخية عبر مختلف الحقب والعهود التي مرّت بها هذه المدينة، فقد اتكأ تاريخ هذه المدينة على ذلك الرصيد الأسطوري ليتأسس كجدلية حية مفعمة بالحياة، كما كان لامتزاج هذا التاريخ مع المتخيل الأدبي تجسيدا لروح هذا العصر وتعبيرا عن رؤية الكاتب والجماليات التي ينشدها ويتطلع إلى تحقيقها.

فتاريخ مدينة قسنطينة "سيرتا" تاريخ حافل بالأمجاد والبطولات يخترق حضارات عريقة نسجتها أقوام وشعوب وأمم منها تلك الأمم التي تعاقبت على سيرتا منذ العهود القديمة. لذلك نجد إستناد الروائيين الثلاث: كاتب ياسين، والطاهر وطار، وأحلام مستغانمي إلى الموروث التاريخي في محاولة لبعث العراقة الحضارية لتاريخ سيرتا وذلك بالعودة إلى التاريخ القديم بحثا عن أصالة هذه المدينة وتجذرها.

فقد انطلق كاتب ياسين من العهد النوميدي ليكون هذا العهد نقطة إنطلاقه والركيزة الأساسية التي يتركّز عليها لبعث تاريخ قسنطينة، حيث كانت سيرتا عاصمة نوميديا هذه الحضارة العريقة التي تعد أقدم حضارة عاشت على التراب الجزائري [1]، ويشير إلى ذلك كاتب ياسين "سيرتا عاصمة النوميدين"[2]. وقد انصب اهتمامه حول هذه المرحلة "المرحلة النوميدية"، بحثا عن الهوية الثقافية وبعثا للماضي العريق لهذه المدينة، لذلك نجده ينطلق من الماضي السحيق ليعبر من خلاله عن الحاضر ويعرض صراع النوميدين مع الرومان، ليكشف بذلك حقيقة تشكيل هذا المجتمع القسنطيني الذي ظلّ محافظا على مدينته، كما أنّه ظلّ متماسكا لحظة انفجار المدينة، ولم يستطع الرومان أو غيرهم من الغزاة زحزحته عن أرضه، فهذا الأمازيغي لم يتوان عن الذوذ والدفاع عن هذا المكان الكبلوطي .دون سعير القبائل الأخرى وطيلة كل تلك الأزمنة المنصرمة.

ويمكننا الإهتداء إلى أنّ الكاتب قد جعل من التاريخ الماضي الممثّل في العهد النوميدي مطية للتعبير عن التاريخ الحاضر الذي يعكس صراع الجزائريين مع الفرنسيين

---

[1]- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي. تاريخ الجزائر العام (الجزائر بين الماضي و الحاضر إطار نشأة الجزائر المعاصرة و مراحلها). ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر ط7. 1994.ج1. ص30.

[2]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة.ص161

ليؤصّل لفكرة مردها البقاء للأقوى، والأقوى هم الجزائريين أصحاب هذه الأرض، وأنّ قوة الجزائريين تكمن في تشبثهم بماضيهم وذلك يرجع إلى أن "ياسين رأى أن أسس جزائر المستقبل تكمن في ماضيها العريق....".[1]

ذلك الماضي الذي كان فيه الأجداد يملؤون هذه الأرض بطولات وانتصارات تشهد على ذلك الأطلال التي بقيت وسام مجد للنوميديين ووصمة عار للرومان الذين ولّوا مدبرين شأنهم في ذلك شأن سائر الغزاة الذين حاولوا إخضاع هذه الأمة. ويؤكد كاتب ياسين على ضرورة العودة إلى الأجداد لبعث مجد سيرتا فيقول: "كما لو كان رهان الزمن الماضي، الإمتحان الوحيد الذي على أبطال اليوم أن يتجاوزوه، بعد أن تجمد ذلك الرهان عند لعبة تبدو خاسرة منذ البداية: يكفي أن نبعث الأجداد ثانية، وأن نجعلهم على رأس المعركة حتى ندرك مرحلة الظفر". [2]

ولايقف كاتب ياسين عند هذا العهد فحسب، بل يغوص بنا عبر الأزمنة السحيقة، إلى العصور البشرية الأولى إلى الإنسان البدائي، ويربطها بتاريخ الشعب الجزائري، ليؤصل لوجوده ومنذ عصور سحيقة في محاولة لربط كل المحطات التاريخية التي مر بها الجزائريون منذ النشأة يقول: " لقد شيدت إحدى المجموعات المتوحشة القديمة حصنها في صخر، وتبعتها في ذلك جماعات لا يحصرها عدّ وقبائل لا تحصى".[3]

وهكذا نلمس أنّ الكاتب يركّز على التاريخ القديم لمدينة سيرتا، بتجلياتها التاريخية ليحكى عن مدينة قسنطينة في محاوراتها وتعالقاتها مع سيرتا رمز المجد، وليعبّر أيضا عن مدينة قسنطينة التي غدت سجنا مظلما خانقا لهذا الشعب المقهور الذي يحتمي بالماضي المحفوظ في الذاكرة التراثية من الحاضر الضائع.

وقد واصلت أحلام مستغانمي السبيل نفسه الذي مهّد له كاتب ياسين إذ نجدها تشيد بالتاريخ القديم لبعث الحاضر وذلك بتّتبع خبب الأجداد وتقفي مسارهم تقول الكاتبة: " من هنا مر صيفاكس....ماسينيسا...و يوغرطة.."[4]. لتدلل على صمود هذه المدينة التي لم يستطع أي غاز من الغزاة الذين مروا وتوالوا عليها الظفر بها أو إخضاعها بفضل أولئك الأبطال الأمازيغ الذين أسسوا لهذه المدينة مكانة مرموقة وحملوها إرثا تاريخيا ممتدا

---

[1]- عايدة أديب بامية. تطور الأدب القصصي الجزائري. ت محمد صقر. ص147

[2]- كاتب ياسين. نجمة .ت: محمد قوبعة. ص182

[3]- المصدر نفسه . ص191

[4]- أحلام مستغانمي ذاكرة الجسد .ص343.

عبر العصور السحيقة وفي هذا تقول الكاتبة أيضا:
" ... وقبلهم أخرون تركوا في كهوفها ذاكرتهم.. نقشوا حبهم وخوفهم وآلهتهم ...".[1]

فقد ساقت لنا الكاتبة نماذج بشرية تاريخية استقتها من العهد النوميدي الضارب في أعماق التاريخ الجزائري، كما رحلت أبعد من ذلك؛ إلى الإنسان البدائي حيث تلتقي مع كاتب ياسين في الإشادة بتاريخ هذه المدينة وإثبات وجودها منذ عصور سحيقة.

وهكذا نجد أنّ كاتب ياسين قد استعان بتاريخ هذه المدينة القديم ليستردّ ذاته وهويته ليتحقق من خلالهما حضوره وفعله الثوري ويشعر بالإنتماء ليلمس عبرهم إمتداده التاريخي في ماضي أجداده والممتد عبر التاريخ. في المقابل تبدو لنا أحلام مستغانمي وكأنّها بصدد مواصلة هذه الملحمة لذلك نجدها تنطلق من هذا العنصر الأمازيغي الأصيل لتكتب تاريخ قسنطينة الحديث، وتشيد بأحفاد يوغرطة الذين صنعوا تاريخ هذه المدينة في أثناء ثورة التحرير أمثال " مصطفى بن بولعيد والطاهر الزبيري ومحمد لايفا وإبراهيم الطيب رفيق ديدوش مراد وباجي مختار وآخرون" [2]. لتؤكد ملحمة هذا الشعب الثائر عبر الأزمة وترسم مسار نضال هذه المدينة المستمر وحركات المقاومة التي كانت بدايتها مع النوميدين واستمرت مع أحفادهم الذين توارثوا المقاومة عبر العصور والمراحل التاريخية، تقول أحلام: " هنا أضرحة الرومان...والوندال...والبيزنطيين...والفاطميين...والحفصيين...والعثمانيين...وواحد وأربعين بايا تناوبوا عليها قبل أن تسقط في يد الفرنسيين.."[3]. كما استطاعت الكاتبة أن تمرر أزمة الجزائر ووقائعها وما آلت إليه في فترة التسعينات نتيجة إستيلاء الأصوليون على الوطن و" يأتي سقوط حسان في أحداث 1988 كدليل على الوضع المتردي الذي تعيشه البلاد والذي لا يرسم مخرجا للأزمة"[4]. هذه الأزمة التي تركت بصماتها واضحة في تاريخ قسنطينة، فالإرهاب في النهاية يمثل جمرة الأصولية الملتهبة والتي وإن إنطفاءت ماتزال تحمل بداخلها جمرات أخرى فـ: " لم ينته زمن الزلازل ومازال في عمق هذا الوطن حجارة لم تقذفها البراكين بعد".[5]

---

[1]- أحلام مستغانمي ذاكرة الجسد .ص343.
[2]- المصدر نفسه.ص383.
[3]- المصدر نفسه.ص344.
[4]- صالح مفقودة. المرأة في الرواية الجزائرية. دار الهدى للطباعة و النشر. عين مليلة.ط1. 2003. ص255.
[5]- أحلام مستغانمي ذاكرة الجسد.ص331.

يبدو أنّ الكاتبة قد وظّفت فترة الأزمة الممثلة في الإرهاب بصفته جزءا مهمّا من تاريخ هذه المدينة، وحقبة لا يمكن إغفالها أو تجاوزها لأنّها تمثل جرحا عميقا في جسد تاريخ سيرتا ووصمة عار في تاريخ الجزائر.

نجد في المقابل أنّ الطاهر وطار يرسم مسارا مغايراً لتاريخ هذه المدينة، إذ يستجلي الحاضر من رحم الماضي دون أن ينفصل عنه، عارضا ومن خلال نظرة بوالأرواح لتاريخ قسنطينة نظرة الإقطاعيين الذين يعدهم طبقة استغلالية للتاريخ، فبوالأرواح يحاول تطويع التاريخ لصالحه عن طريق الإشادة بطبقته.

يبدو ذلك جليا برجوعه إلى ماضي قسنطينة، حيث نجد أنّ "الطبقة البورجوازية الكبيرة تركز بصفة أساسية على الماضي بإعتبارها نبعا ثريا وتاريخا حافلا بالتضحيات والمكاسب"[1]، فهو يرى أنّ تاريخ هذه المدينة وأمجادها يخص فئة معينة أو طبقة بعينها، يعود إليها الفضل في صنع تاريخ قسنطينة ومجدها يقول بوالأرواح: " التاريخ يبدأ يوم يبدؤون وينتهي يوم ينتهون.

لعل هذا هو تاريخ المدينة من يوم كانت. إنتهت بإنتهاء البربر وإبتدأت بإبتداء الرومان وظلت تبتدئ وتنتهي بين البربر والرومان ومختلف الأجناس حتى جاء العرب.

إستأنفت تاريخها معهم حتى جاء الأتراك. إنتهت وإبتدأت حتى جاء الفرنسيون. وهاهي تنتهي وتبتدئ من جديد...".[2]

نلمح أنّ بوالأرواح يسعى جاهدا لإثبات أحقية طبقته لإمتلاك هذا المكان كونه دخيلاً على هذا المجتمع فهو : " سليل عائلة من القواد والباش أغوات ....."[3]. من عائلة تركية إقطاعية ترى نفسها نبيلة وأصيلة أكثر من أصحاب المكان، لذا نجدها تحاول التحايل على التاريخ وتطويعه لصالح طبقاتها لتؤصل لمكانتها، فالتاريخ بالنسبة لها هو امتداد لهذه الطبقة وإقصاء لطبقة أخرى، وهكذا يمكننا الإهتداء إلى أنّ بوالأرواح ينظر إلى تاريخ سيرتا نظرة عدائية، ومن منطلق إيديولوجيا مخالفة لإيديولوجيا الكاتب الذي أستطاع أن يعكس نظرة الإقطاعيين إتجاه تاريخ مدينة قسنطينة، ومحاولتهم تزييفه وإقصاء هذا الشعب الذي ساهم ومنذ القديم في صنع مجد قسنطينة والحفاظ عليها، فنظرة بوالأرواح إلى التاريخ ليست نظرة محايدة أو بريئة وإنّما هي نظرة عنصرية ومحتالة

---

[1]- إبراهيم عباس. الرواية المغاربية الجدلية التاريخية و الواقع المعيش. دار الهدى للطباعة و النشر. عين مليلة. الجزائر. ط1. 2002. ص255.

[2]- الطاهر وطار. الزلزال. ص88.

[3]- عمار بلحسن. صراع الخطابات حول القص والإيديولوجيا في رواية الزلزال للطاهر وطار.ص136.

تحاول تكييف الأحداث التاريخية واستغلال الماضي لصالحها، لتضمن بقاءها، فإمتداد هذه الطبقة عبر تاريخ هذه المدينة وهيمنتها هو إمتداد له وضمان لإستمراره.

وعلى الأرجح أن يكون تحمّس الطاهر وطار للاشتراكية أغفله عن حقيقة واحدة مردّها أن تاريخ قسنطينة كان نتيجة تلاحم كل الطبقات، ومساهمتها جميعا ككتلة واحدة في صنع مجد هذه المدينة. فإنْ حاول كاتب ياسين إثبات جذرية وإمتداد قسنطينة وصراع العنصر الأمازيغي صاحب الأرض مع دخلاء كثر وانتصاره في النهاية ليؤكد بذلك خطورة المصير الذي ينتظره الفرنسيون، في المقابل نجد أنّ أحلام مستغانمي قد اتكأت مباشرة على العنصر المستقل وكأنّها بصدد إكمال ما توصل إليه كاتب ياسين، إذ تعتمد مباشرة على العنصر الأمازيغي صاحب الأرض لتكتب لما بعد الثورة وترسّخ لفكرة كاتب ياسين أن البقاء للأقوى ولصاحب الحق وهي إشارة واضحة على اقتراب نهاية الوصوليين الذين أفرزتهم الثورة.

غير أنّ الطاهر وطار قد استعان بالتاريخ وماضي قسنطينة لكشف زيف الطبقة الإقطاعية من جهة وليؤسس للاشتراكية من جهة أخرى، فهو يستعين بالتاريخ ليثبت أنّ هذا التاريخ هو من صنع الشعب، ويفضي هذا الإحتكام للتّاريخ إلى مليه وإنتصاره للاشتراكية الممثّلة من طرف الشعب.

وهكذا نستنتج أنّ كلاً من الأدباء الثلاث قد أسهم في كتابة ملحمة مدينة سيرتا، فقد بعث كاتب ياسين التاريخ السّحيق وأصّل لهذا الشعب، كما أضاء الطاهر وطار التاريخ الوسيط الذي تخلل فترة ما بعد الإستقلال وما أفرزته الحرب وواصلت أحلام مستغانمي التاريخ الحديث، ويمكننا القول في الأخير أنّ تاريخ سيرتا يمتد من عصور سحيقة إلى العصر الحديث إستطاعت من خلاله هذه المدينة أن تضرب بجذورها في عمق التاريخ السحيق وتمتد بعنقها إلى التاريخ الحديث لتشرئب على التاريخ الراهن في سلسلة متكاملة من المراحل والأحداث التاريخية التي حبكت جميعها في حلقة واحدة تبتدأ من سيرتا وتنتهي عند قسنطينة.

المبحث الثاني: قسنطينة التاريخ والحضارة:

أ- التاريـخ

تعد مدينة قسنطينة قبلة الحضارة والرقي في الجزائر، يعود ذلك إلى ما تحمله هذه المدينة من تاريخ وعراقة مكّناها من تصدر التاريخ الجزائري.

فقد سجّلت إشعاعيتها وحضورها بأحرف من نور ونار. منذ عهود قديمة، حيث استطاع هذا الكيان الجزائري ان يؤصّل لماضيه المجيد وعراقته في الفروسية والنضال ضد كل ما هو دخيل وأجنبي، عبر مختلف الحضارات التي تعاقبت عليها، إذ استبسل الأمازيغ بالدفاع عن أرضهم وقارعوا الرومان والوندال، والبيزنطيين وهذا ما أكّدته رواية نجمة وعبّر عنه الزلزال وواصلته ذاكرة الجسد حيث تمت الاشادة في رواية نجمة ببطولة النوميدين في ذلك التاريخ السالف كما افصحت عن قبيلة "كبلوط"، هذه القبيلة التي تعد ثمرة تزاوج حضارتين؛ الحضارة الامازيغية والعربية فقد: " أضافت هذه القبائل إلى حضارة بلاد المغرب سمات جديدة، نتج عنها امتزاج الدماء العربية والبربرية أجيال أقوى شكيمة وأشد عزيمة وأصلب عودا وأقدر مراسا من أجدادهم، وهكذا زاد الاتصال والامتزاج والزواج والمصاهرة، وتم الاختلاط، وبدأت الدماء العربية في الزيادة وتصبح هي السمة البارزة في الملامح، فلم يعد هناك بربري بل أصبح شعبًا عربياً يسكن المغرب الإسلامي...[1]

كما استلهم كاتب ياسين قصص البطولة التي تروي بسالة ملوك نوميديا إذ استعان بشخصية يوغرطة الذي يعد رمز الصمود والمقاومة، هذه الشخصية الفذة ذات الصلابة والبأس الشديدين التي ألحقت هزائم شنيعة بالجيش الروماني ؛ اهانتهم وذلك بإجبارهم على المرور تحت النّير رمزا للإذلال، أثبتت من خلالها ان النوميدين أكثر من ند للرومان.[2]

وهكذا استطاع كاتب ياسين بعث حضارة سيرتا القديمة الممثلة في حضارة نوميديا، هذه الحضارة التي كان لها باع طويل وبأس شديد تمكنت من خلالهما أن تفرض وجودها بين أعرق الحضارات وأن تؤصل لأمجادها.

ومع الحملة الفرنسية على الجزائر بلغت المعارك التي كانت تنظّم بمدينة قسنطينة أوجّها في العنفوان والبأس فللأمجاد الماضية أصداء في المقاومة الشعبية وأثر عميق في نفوس الجزائرين الذين دافعوا عن سيرتا ببسالة، وفي هذه المرحلة ظهر للساحة بطل أقوى شكيمة وأصلب عودا تجلى في شخص الأمير عبد القادر الجزائري الذي حوّل سيف

---

[1]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي موسوعة المغرب العربي مكتبة مدبولي. القاهرة. ط1. 1994 م2. ج3. ص206. 207.

[2]- محمد السيد محمد عبد الغني . نماذج من الكفاح الجزائري القديم ضد الهيمنة الرومانية. المكتب الجامعي الحديث. الاسكندرية. 1999. ص47

نصر الفرنسيين ضدهم، كما استطاع شحذ مقاومة الجزائرين وتعبئة صفوفهم وتحويل هزائم الجزائرين إلى انتصارات. ويبدو ذلك جليا في رواية نجمة إذ يقول كاتب ياسين: " كان جد مراد مقاتلا تحت لواء الامير عبد القادر إذ عرض بنفسه وممتلكاته لانتقام "**بوجو**" الذي عمد إلى توزيع أخصب الاراضي على المعمرين...[1].

فقد جعل الأجداد من قضية الجزائر القضية الوحيدة التي يناضلون لأجلها ويموتون فداء لها فالارض تعني لهم الحصن والكرامة، وبذلك أصبح الأسلاف مرجعا مهما لإحياء الماضي واستلهامه في معارك التحرر التي قادها الأجداد مع الأمير عبد القادر: " أمّا الآباء الذين قتلوا في أثناء المعارك التي قادها الأمير عبد القادر، وهو الظل الوحيد الذي كان بإمكانه أن ينسحب فيغمر هذه الأرض الشاسعة، إذ كان رجل السيف والقلم، والزعيم الوحيد القادر على جمع شتات القبائل لترتفع إلى مستوى الامة... ".[2]

يبدو أنّ الكاتب قد استعان بالرّموز المشّرفة لهذا الوطن ليؤصل لهذه الامة الجزائرية فكان التركيز على بعث شخصية يوغرطة إضافة إلى رمز الأمير عبد القادر الذي استطاع أن يجمع شتات القبائل وأن يستنهض الهمم لتجاوز الولاءات القبلية والانتساب للولاء الموحد فقد سعى ذاك الأمير إلى:" منعِ جيوش الاحتلال الفرنسي من التوغل أكثر داخل الأراضي الجزائرية، وأن تبقى حيث وصلت فلا تتجاوز المناطق التي كانت تسيطر عليها، وتمكّن الأمير الجزائري من السيطرة على ثلثي البلاد...[3].

وتواصل أحلام مستغانمي الإشادة بهذه البطولة الجزائرية، إذ تشيد بأحفاد الأمير عبد القادر حيث نجد أن العلامة ابن باديس يواصل رفع مشعل النضال بمدينة سيرتا، إذ أدّت جمعية العلماء المسلمين دورا جريئا وحاسما في فترة الاستعمار، فقد كانت النّبراس الذي يهتدي به الجزائريون في تلك الفترة الحالكة من تاريخ الجزائر، وأبيات عبد الحميد بن باديس ماتزال محفورة في ذاكرة الجزائريين: " مازالت صرخته التاريخية تلك بعد نصف قرن النشيد غير الرسمي الوحيد... الذي نحفظه جميعا

شعب الجزائر مسلم — وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله — أو قال مات فقد كذب

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة.ت: محمد قوبعة. ص80.
[2]- المصدر نفسه. ص107.
[3]- حليم ميشال حداد. موسوعة قصة وتاريخ الحضارات العربية. تونس-الجزائر- بيروت. ق2. ص104.

أو رام إدماجا له رام المحال من الطلب[1]

هذا النشيد الذي لخص الدعائم الاساسية التي تقوم عليها الدولة الجزائرية، وقد جعلت منه جمعية العلماء المسلمين شعارا لها ردّا على السلطة الفرنسية التي تشكّك في نسب الجزائريين وكذا على دعاة الادماج الذين سعوا جاهدين إلى طرح فكرة إدماج الشعب الجزائري بالأمّة الفرنسية ويعد ابن باديس – اضافة إلى ما سبق– رائداً من رواد القومية العربية بالجزائر حيث يرى "رينيه ديليل" أن : " هذه الجبهة – جبهة التحرير الوطني– قد استقت أصولها من جمعية العلماء ".[2]

الواضح للعيان أنّ هذا العالم "عبد الحميد بن باديس" كان بمثابة الثورة المضادة للثورة الفرنسية المعرقلة، والتاريخ الخفي للتاريخ الحاضر المزور، كما استعانت احلام مستغانمي بشخصية "سي الطاهر" لترمز من خلاله لكل شهيد سقط في سبيل هذا الوطن ولترمز أيضا لأولئك الثوار الذين واصلوا النضال، حيث تشيد بهؤلاء الأبطال الذين صنعوا عزّة هذا الوطن فتقول على لسان بطلها خالد:" أدركت أنّه كان لابد للثورة في ايامها الاولى من رجال مثل سي الطاهر، بذلك العناد وتلك الثقة المطلقة بالنفس، حتى يفرضوا رأيهم وسلطتهم على الاخرين، ليس حبا بالجاه والسلطة، إنما للّم شمل الثورة وعدم ترك مجال للخلافات والاعتبارات الشخصية، وحتى لا تموت تلك الشعلة الاولى وتبعثرها الرياح..[3]

سي الطاهر الذي أرادته أحلام مستغانمي من أبناء قسنطنية كما أنّه من المنخرطين بجمعية العلماء المسلمين ليكون امتدادا لجيل عبد الحميد بن باديس والظّل الوفي للأجداد تقول: " لقد خلق ليكون قائدا، كان فيه شيء من سلالة طارق بن زياد، والأمير عبد القادر، وأولئك الذين يمكنهم أن يغيّروا التاريخ بخطبة واحدة...[4]

كما اختارت له النهاية التي انتهى إليها اجداده، فقد استشهد ذات معركة دون ان يقطف ثمرة الاستقلال ولا يحمل في يده سوى سلاحه: " لقد مات (سي الطاهر) طاهرا

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص377.
[2]- عايدة أديب بامية. تطور الأدب القصصي الجزائري. ت: محمد صقر. ص21.
[3]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد.ص35.
[4]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد.ص37.

على عتبات الاستقلال لاشيء في يده غير سلاحه، لا شيء في جيوبه غير أوراق لا قيمة لها ...لا شيء على أكتافه سوى وسام الشهادة".[1]

و هكذا تمكّنت الكاتبة من انهاء ملحمة البطولة التي شهدتها هذه المدينة العريقة، فقد وضع أساس صمودها كاتب ياسين وواصل الاشادة بها الطاهر وطار فـ: " كل الطرق في هذه المدينة العربية العريقة تؤدي إلى الصمود..".[2]

يبدو أنّ هذه المدينة العريقة "سيرتا" استطاعت أن تصنع لنفسها تاريخا حافلا بالأمجاد مكلّلا بالنّصر الذي توارث أبناءها حمل لوائه عبر الازمنة. "ماسينيسا". "يوغرطة". "الأمير عبد القادر". "ابن باديس"... "سي الطاهر" كلها أسماء توحي بتاريخ واحد هو تاريخ الجزائر على مر الحضارات التي تعاقبت على تراب المحروسة " الجزائر".

ب- الحضارة:

تكشف هذه الروايات: نجمة، الزلزال، وذاكرة الجسد عن حضارة إنسانية متميّزة تمثّلها مدينة قسنطينة "سيرتا" في تجلّياتها ومظاهرها وتشكّلها إذ تشكلت هذه الحضارة على مدى الازمنة والعصور، فقد أبدعت مجتمعا متميّز يمثل الجزائر كلها، فهذه المدينة تعد رمزا للتواصل والعمق والإمتداد الذي يؤسّس للمجتمع الجزائري، وحضارة مدينة "سيرتا" قسنطينة متشبعة بمختلف الرّوافد والعناصر الثّقافية التي أثرت المغرب العربي والبحر المتوسط وإفريقيا بصفة عامة.

يمكننا الاهتداء إلى هذه الملامح الحضارية من خلال هاته الشواهد والأمثلة التي فرضت نفسها على الزمن وتقلّدت كتب التاريخ وقلب الأساطير فتنقش اسمها على صخرتها انتصارا على ذاكرة النسيان ويمكن حصر مظاهرها الحضارية في مايلي:

– الفن المعماري: فقد تصدر الفن المعماري قائمة مكوّناتها الحضارية، إذ ما تزال قصورها وأزقتها الضيّقة وطابعها المتميّز الذي وسم بناياتها تشهد بتميّزها المعماري حيث يصف كاتب ياسين المدينة بقوله: " تلك القمّة الحادة تكاد لا تبدو وسط الخضرة والشجر يحيط بها، كعش زنابير خال تنبعث منه الضّجة، مدفونة في باطن الأرض، بقراميدها ودواميسها، وقنواتها، وأروقتها، ومساطبها، وبقايا مسرحها المفتوح من كل جانب ولكنّه

[1]- المصدر نفسه. ص51.
[2]- المصدر نفسه. ص30.

مسدود"[1]، إذ أضفت صخرتها المتربعة على عرش العلوّ والسّمو طابعا معماريا متميّزا نتيجة المعجزة الجيولوجية التي تفترض حتما معجزة معمارية: " إنها الصّخرة طوقتها الجسور الأربعة ومحطّتا الأرتال وجابها المصعد الضّخم يتردد بين الهاوية والمسبح وضيّق عليها الحصار عند مشارف الغابة..."[2].

إضافة إلى أولياءها الصالحين الذين يعود لهم الفضل في رسم المعالم الحضارية للمنطقة منهم : " سيدي راشد، سيدي مبروك، سيدي محمد الغراب، سيدي سليمان، سيدي بوعنّابة، سيدي عبد المومن، سيدي مسيد، سيدي بومعزة، سيدي جليس..."[3]، وجسورها التي تعد ثاني معجزاتها بعد الصخرة حيث تغفو مدينة قسنطينة على سبعة جسور أهمها: جسر "قنطرة الحبال" الذي يعد اللسان الترابي للمدينة، وكل جسر من جسورها متوج بزاوية ترسّخ لولي من أولياءها الصالحين والذين يخصص لهم أهل قسنطينة خاصة النساء "الزيارة" بجلب الشموع والحلويات وأنواع البخور للتبرّك والدّعوات.

كما ينقلنا الطاهر وطار إلى شوارع قسنطينة زمن الإستعمار حيث: " تتألق الأنوار، وتنطلق العطور، من الغادات الأوروبيات والإسرائيليات اللائي يملأن الشوارع، كالحوريات، بهجة وحبورا..."[4]، وهكذا تمتزج الثقافتان العربية والأوروبية لتضفي على المدينة وهجا حضاريا جمع بين الطابع الشرقي ونظيره الأوروبي زاد من تميزها انتشار الكتاتيب بها التي كان يدرس القرآن بها للأطفال، هذه الكتاتيب التي كانت تفترش بالحصير ويتحلق فيها الأطفال مجموعات لتعلم الحروف والآيات القرآنية التي: " كنّا ننسخها على ذلك اللّوح ونحفظها ...خوفا من "الفالاقة" ...وتلك العصى الطويلة التي كانت تتربّص بأقدامنا لتدميها عند أوّل غلطة...".[5]

وترحل بنا أحلام إلى أحد البيوت القسنطينية العريقة لتكشف بعض الخصائص الحياتية اليومية التي يتفرّد بها الجزائريون والتي منها طريقة نومهم على الأرض تقول الكاتبة: " فقد كان ذلك الفراش الأرضي يذكرني بطفولتي وبنومي إلى جوار امي لعدة سنوات، على ذلك المطرح الصوفيّ الذي مازلت أذكر لونه الأزرق ...[6]. لتغوص أكثر داخل هذا المجتمع الذي كانت تخصص المرأة الجزائرية فصول معينة لغسل الفراش

---

[1] - كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص157.
[2] -المصدر نفسه. ص158.
[3] -أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص431.
[4] -الطاهر وطار. الزلزال. ص12.
[5] -أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص279.
[6] -المصدر نفسه. ص352.

وإعادة ترتيبه فتعود الذكريات إلى: " تلك الأيّام التي كانت تخصّصها (آمّا) كلّ خريف، لغسل الصّوف وتجديد تلك المطارح الصوفيّة التي كانت الأثاث الأساسي لغرفة نومي..."[1]، تلك الأفرشة التقليدية التي توحي: " بالدفء والرغبة بالإنزلاق تحت أغطيته الصوفية الجميلة..."[2]، كما تنقل بعض السلوكات القسنطينية مثل: " الطريق ... الطريق" التي يستخدمها الرجال لتنبيه أهل البيت أنه قادم صحبة ضيوف وهي إشارة تفهم من خلالها النساء ضرورة إفساح الطريق والإختباء.

كما تتميّز المرأة الجزائرية بلبس الملاءة السوداء والعجار الذي يستخدم ستار للوجه حيث تربط أحلام مستغانمي هذا اللباس بقصة حداد نساء الشرق على صالح باي أحد باياتها والتي"مازالت تلبس حداده حتى اليوم ..." [3]، ويشير كاتب ياسين إلى نوع من اللّباس كانت ترتديه المرأة الجزائرية إضافة إلى الملاءة وهي العباءة. يقول: " كانت ترتدي عباءة واسعة من الحرير الأزرق الباهت، تلك التي جعلت تلبسها النساء المغربيات...عباءة غليظة...تتسدل قطعة واحدة حتى الرّسغين، وتكاد تخفي خلاخيل الذهب الخالص..."[4]، تلك الحلي التي اشتهرت بلبسها نساء الشرق إذ تصفها أحلام مستغانمي بقولها:"كان إحدى الحليّ القسنطينية التي تعرف من ذهبها الأصفر المضفور، ومن نقشتها المتميّزة ..."[5]، كما أن نساء الشرق الجزائري كنّ يتزيّن في أعراسهنّ بلبس الثوب العنابي ذلك الثوب:"المطرز بخيوط الذهب، والمرشوش بالصكوك الذهبية، معلقة شعر كتبتها قسنطينة جيلا بعد آخر على القطيفة العنابي..."[6]، والتي كانت تزف عرائسها على أنغام الكمنجة ودقات الدفوف وألحان المالوف القسنطيني وترديد أعرق أغانيها الشعبية الجزائرية والتي منها أغنية شهيرة للترحيب بقدوم العريس حيث: " تعلو أصوات الآلات الموسيقية ... ويرتفع غناء الجوقة...في صوت واحد:

" يادِيني ماحلا لي عرسو... بالعوادة...

الله لا يقطعلو عادة.

وانخاف عليه... خمسة ... والخميس عليه"[7]

---

[1] - المصدر نفسه. ص ن.
[2] -المصدر نفسه. ص353.
[3] - المصدر نفسه .ص351.
[4] -كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة ص74.
[5] -أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص61.
[6] - أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص430.
[7] - المصدر نفسه. ص423.

وعلى وقع هذه الأنغام تستسلم النساء للرقص: " بخجل ودلال في البداية. يحركنّ المحارم يمنة ويسرة على وقع " الزندالي"...."[1]، كما تنثر الأوراق النقدية على العروس رفقة الزغاريد إثر خروج العروس في موكب نسائي، هذا الموكب الذي اصطحبها قبل ذلك إلى الحمام إذ يجتمع النساء للإستحمام فيه وترديد بعض الأغاني منها "بالريحية بالريحية...

خرجت من الحمام...
بالريحية... "[2]

وبعدها يتم وضع الحنّاء للعروس وفق طقوس توارثتها قسنطينة جيلا بعد أخر والتي منها إشعال الشموع والزغاريد وتوزيع الحلويات.

كما تهتم المرأة الجزائرية بإعداد أطباق متنوعة من الأكلات الشعبية والحلويات التي أشهرها "الطمينة" و"البراج"، البراج الذي يعد خصيصا لاستقبال فصل الربيع، أما حلوى الطمينة فهي للمناسبات والأعراس وهي من أعرق الحلويات الجزائرية، والتفنن في إعداد صينية القهوة المصنوعة من النحاس الأصفر، تصفها أحلام مستغانمي بقولها: " صينية كبيرة عليها إبريق، وفناجين، وسكرية، ومرش لماء الزهر، وصحن للحلويات..."[3] للحلويات..."[3] وتتفّرد مدينة قسنطينة بمثل هذه الصينية المخصصة للقهوة ففي مدن أخرى: " تقدم القهوة جاهزة في فنجان..."[4]

كما تهتم النساء بإعداد الكسرة التي تعد نوعا من الخبز المنزلي، الذي كان بمثابة الوجبة الأساسية للمجاهدين في أثناء الثورة.

ويوغل بنا الطاهر وطار إلى زمن الأتراك أيام الوجاهة والأبهة، إذ يصف حياة الرفاهية التي كان ينعم بها القسنطينيون يقول: " هنا معدن القسنطيني الحر، ومعقله على مرّ الأزمان يتحصّن فيه، بحرفه الدقيقة، ضدّ كلّ دخيل، وينطلق منه ليغزو كامل الشرق حتى الصحراء بحرائره، وبنحاسه، وبعطوره، وببخوره، ببشامقه و" قوفياته" المطرزة..."[5]، فقد كان هذا العهد عهد الثراء والترف. كما كان عهد الأناس المتحضّرين انتعشت فيه الطبقة الأرستقراطية كثيرا، وبلغت أسمى درجات التحضّر والفخامة في جميع النواحي، كما ظهرت الأزياء المختلفة التي كانت تحاكي التراث التركي.

---

[1] - المصدر نفسه. ص373.
[2] -كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص167.
[3] -أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص12.
[4] -المصدر نفسه. ص ن.
[5] -الطاهر وطار. الزلزال. ص21

وكل هذه العادات والتقاليد التي ورثتها قسنطينة سواء من حيث اللباس وتحضير الأطباق والحلويات وطريقة تشييد المنازل وزخرفتها، وكل ذلك الزخم الحضاري يصعب تحديد أصله، ففيه من الأمازيغ والرومان والوندال والفينيق والعرب والأتراك التي تتفاعل وامتزجت فيما بينها لتفرز حضارة جزائرية متميزة، وميلاد ثقافة جديدة بطابعها الخاص، ودون أن نسقط من الحسبان أن مدينة قسنطينة هي الوريثة الشرعية لحضارة الأندلس نتيجة قدوم المغاربة المسلمين الفارين من الإسبان حاملين معهم كنوز الأندلس، وأدى هذا التداخل إلى إنتقال الكثير من الثقافة الأندلسية إلى قسنطينة، ومنها طريقة تشييد القصور الفخمة على الطراز الأندلسي، وتسمية بعض الاماكن، منها تسمية واد قسنطينة بـ: " الوادي الكبير " بعثا للوادي الكبير الذي كان يخترق مدينة قرطبة ويمدّها بالإخصاب والحياة.

ويشير إلى ذلك كاتب ياسين بقوله: " لم يكن الوادي المتسلل الهارب يسيل نحو البحر سوى رومل زائف، وقد أضحى يسمى الوادي الكبير، مذكّر بذلك النهر الذي فُقِدَ، الوادي الكبير بالأندلس، وقد عجز المغاربة المطرودون من اسبانيا على حمله معهم، الوادي الكبير، النهر الذي تُرك باسبانيا بُعث وراء المضيق..."[1].و يعد التمسك بهذه القيم الحضارية تمسكا بالأصالة والتجذّر وتدعيما للهويّة والشّخصية الجزائرية التي تستقي مقوّماتها من تاريخها وموروثها الشعبي، هذه الأنا الشرقية الأسطورية في مواجهة الآخر الغرب المادي.

[1] -كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص185.

المبحث الثالث: عظمة التاريخ وزيف الواقع:

تاريخ قسنطينة تاريخ انتصارات وانتكاسات على غرار كل المدن الخالدة، عرفت حلو الحياة ومرّها. فانقلب ذلك المجد الذي طالما تضوّع زهوا عبر العصور إلى مآسٍ وإخفاقات، وذلك لتضافر جملة من الانتكاسات كان معظمها راجعاً إلى الخيانة والفرقة.

كانت تلك الشحنة والإشعاعية تصطدم مع كل نصر بالغزاة، فقد انقلب نصر النوميدين إلى هزيمة. ولم يتبق من نوميديا سوى الأطلال التي ينبعث منها صوت ركض الخيول في ذاكرة أحفاد النوميديين، يقول رشيد: " كركض الخيول زمن النوميديين الذين عوضتهم أسراب ضخمة من سلالة الرومان نجموا من أعماق الليل...". [1]

وتتوالى النكسات على أرض الجزائر التي ما تبرح تنفك من غاز حتى تقع في يد آخر، يقول كاتب ياسين:" نوميديا القديمة التي تعاقب عليها أحفاد الرومان، نوميديا التي لم يعد فرسانها أبدا من المجازر، كما لم يعد القراصنة الذين أرادوا قطع الطريق على شارل الخامس...".[2]

نلمس تشاؤم كاتب ياسين من ظلال الماضي حيث " ينقل قولا لابن خلدون أن كل ما هو عربي منذور للخراب"[3]. فمجد نوميديا حطمه الرومان، كما أن مقاومات الأمير عبد القادر أبيدت على يد الاستعمار،يقول رشيد – بطل نجمة– : " لولا أن جاء الفرنسيون فحطموا كل جهوده تحطيما ودمرّوا انطلاقته..." [4]، تلك الانطلاقة التي لو لم تطعن من طرف المغاربة لاستطاع الأمير عبد القادر ردع الاستعمار وقذفه خارج حدود المغرب، ولما تغلغل الاستعمار في كامل التراب المغربي. فأخمدت تلك المقاومة الشرسة التي كانت موجهة ضد الاحتلال الفرنسي، وتم إلقاء القبض على الأمير عبد القادر وأسر جنوده.

وبذلك سقطت الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي الذي استطاع أن يجتاح كل مدنها رغم مقاومتها، فقد سقطت قسنطينة بعد سبع سنوات من المقاومة، إذ " كانت مدفعية " دمريمون" قد دمرتها زمن الهجوم الثاني الذي انتهى إثر أربعة أيام من القصف كانت فيها

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة .ت: محمد قوبعة. ص181.
[2]- المصدر نفسه. ص182.
[3]- نور سلمان. الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير. ص423.
[4]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص107.

البطاريات الأربع تقصف من مسافة قريبة جدا...فابتدأ عندها غزو المدينة بيتا بيتا، ابتداء من أعلى" الكودية"..."[1].

وهكذا أذعنت قسنطينة للاحتلال واستسلمت لسبات عميق استطاع خلاله الاستعمار السيطرة على هذه المدينة وبسط نفوذه. ويرحل بنا الطاهر وطار إلى فترة السبعينيات فترة الثورة الزراعية حيث يصور لنا سقوط الطبقة البرجوازية على يد الشعب، وتدهور حالة الاقطاعيين الذين كانوا من علية القوم في مدينة قسنطينة التي عرفت الازدهار والتحضّر في تلك الفترة" التي كانت تخضع للهيمنة الارسطوقراطية الزراعية، وللباشوات والقواد والتجار الكبار والعلماء المثقفين والتجار اليهود..." [2].

غير أنّ قسنطينة تغيرت وزلزلت زلزالها نتيجة للثورة المسلحة والاصلاحات التي قامت بها السلطة المعادية لهذه الطبقة وسيطرة الشعب على هذه المدينة، يقول بو الارواح:" تركوا قراهم وبواديهم، واقتحموا المدينة، يملؤونها حتى لم يبق فيها متنفس، حتى الهواء امتصوه ولم يتركوا في الجو إلا رائحة آباطهم..." [3].

ويعد عبد الحميد بو الارواح سليل هذه الطبقة الإقطاعية الرافضة لما آلت إليه قسنطينة بعد ذلك العز والتحضر، وتحولت إلى مدينة فوضوية غوغائية، مدينة المتسولين والكادحين من عامة الشعب بعد أن همّشت الطبقة البرجوازية الحضرية، يقول بو الارواح متحسرا على تدهور حالة " بلباي" :" لا حول ولا قوة إلا بالله، أحقا هذا هو مطعم بلباي الذي عرفه الآغوات والباشوات والمشائخ وكبار القوم أصحاب الأرض والأغنام والجاه؟..."[4].

هذا التغييّر الذي يفسره بو الارواح بنظرة رجعية تقف ضد تأميم الأراضي، هذا التأميم الذي يمسه كممثل لطبقة الأتراك القديمة خاصة بمحاولة تطبيق الإصلاح الزراعي الذي يستهدف مصالحه لأنّه مالك أراضي " (وبو الأرواح) يأتي كممثّل لطبقة تركية تحتضر، إذ النّخبة المغربيّة لم تتجدد بالمعنى الحقيقي ولكن الطبقة الجديدة لا تحتل مكانتها القديمة..." [5].

هذه الطبقة الاقطاعية تكيّف الدّين وفق مصالحها، غير أنّ حرب التحرير قلبت كل الموازين وتحولّت قسنطينة من قسنطينة البرجوازيين إلى قسنطينة الشعب بما فيهم

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة.. ص160.
[2]- عمار بلحسن. صراع الخطابات حول القصوالايديولوجيا في رواية " الزلزال" للطاهر وطار. ص13.
[3]- الطاهر وطار. الزلزال.ص14.
[4]- المصدر نفسه. ص23.
[5]- سعيد علوش. الرواية والايديولوجيا في المغرب العربي. ص68.

العمال والكادحون وغيرهم يقول بلباي صديق بو الرواح:" قسنطينة الحقيقية انتهت، أقول زلزلت زلزالها، الزلزال يحدث مرة واحدة يا السي بو الارواح لكن هناك من يحس به قبل حدوثه، وهناك من يحس به أثناء حدوثه وهناك من يحس به بعد حدوثه بزمن يطول أو يقصر..."[1].

ويبدو أن الزلزال هنا هو رمز للثّورة الزراعية " التي يعلنها الحديث الرّوائي كوعي ممكن وديموقراطية لا توجد ولكنّها في طريق الولادة"[2].

وتأتي خطبة إمام المسجد لتؤكّد ذلك، ولتعلن عن نهاية الطبقة التركية الارستقراطية بقسنطينة ولذلك يجهد بوالأرواح نفسه لإيقاف هذا المشروع غير أنّه يؤول إلى نهاية مأساوية معلنا بذلك عن تقهقر هذه الطبقة وسقوطها، وذلك بثورة الجماهير مرددة:" نحن من سيدي مسيد، نحن من مزبلة بولفرايس، نحن من السويقة، نحن من سوق العاصر، من باردو، من جنان تشينا، نحن أبناء الشهداء..." [3].وهكذا كانت نهاية هذه الطبقة– الإقطاعية– على يد الشعب.

نجد في المقابل أنّ الكاتبة أحلام مستغانمي تميط اللثام عن جزائر ما بعد الاستقلال، وتكشف لنا عن مأساة الشعب الجزائري الذي ناضل في الأمس لتصير الجزائر حرة، غير أنّه اصطدم بجزائر مستعمرة هذه المرة من لدن مجموعة من الثوار المزيفين والذين استنزفوا ثرواتها وغيبوا رجالها كما قاموا بتشتيت هذا الشعب الذي طالما حاول ابن باديس جمع شتاته.

فها هي جهود العلامة ابن باديس وصرخاته وخطبه التي كانت ميثاق هذا الشعب الجزائري والتي أعدت جيلا بأكمله، هجرت مع أوّل نسمة من نسمات الاستقلال، وذلك النشء الذي ناضل– الشيخ ابن باديس لأجل تحريره وعتق أفكاره من براثن الاستعمار والأفكار المتخلفة بتلك الحماسة وذلك الاعتزاز مخاطبا إياها :

" يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب"[4]

غير أن هذا النشء الذي طالما تغنى به:" لم يعد يترقّب الصباح منذ حجز الجالسون فوقنا...الشمس أيضا، إنّه يترقب البواخر والطائرات...ولا يفكر سوى بالهرب..." [5]. عكس جيل مابعد الاستقلال الخيبة واليأس في أي شيء يمت بصلة إلى

---

[1]- المصدر نفسه. ص28.
[2]- المصدر نفسه.ص69.
[3]- الطاهر وطار. الزلزال .ص213.
[4]- الطاهر وطار. الزلزال. ص377.
[5]- المصدر نفسه. ص ن.

الوطن، هذا الشعب الذي لم ترعبه مدافع وقنابل فرنسا إنّما أذلته سياسة الانتهازيين وكبت عنفوانه الأصوليون الذي ينسبون أنفسهم إلى صانعي مجد الجزائر واستقلالها، يقول خالد بطل – ذاكرة الجسد– معبرا عن مأساة الجزائريين:" لم نمت استعمارا...متنا قهرا، فوحدها الإهانات تقتل الشعوب..." [1].

وهكذا اصطدم الجزائريون بواقع جديد مغاير لما حلموا به، وناضل من أجله شعب بأسره:" ولأنّ التّاريخ تصنعه الشعوب ويسرقه الحكام، فإنّ الشعوب تعيد صياغة هذا التّاريخ من خلال فنونها وتختار أبطالها من عامة الناس أو من شخصيات تضع فيها كلّ ما تريد من صفات..." [2].

نجد أنّ الكاتبة اختارت من شخصية خالد ذلك الثوري الذي التحق بالجبهة وهو في الخامسة عشر كما استطاع أن يخلّد كفاحه وشما على جسده، فكان مصدر اعتزازه في الثورة ومعاناته بعد الاستقلال، رمزا لكل الثوار والمجاهدين الذين كافحوا باسم الشعب في الماضي وهجّروا أو غيّبوا باسم الوطن، هذا الوطن الذي لم يستطع احتواء الثورة، فقد أجهضت في سنواتها الأولى بعد الاستقلال هذا الوطن ما إن يتخلص من غزو حتى يقع في آخر، غير أنّه هذه المرة وقع في أيدي الانتهازيين فتحطم بذلك حلم الثوريين. وهكذا أفاق خالد على فجيعة التزييفات الثورية والفجوات التاريخية التي أفرزتها الثورة فقرّر الهجرة والتمرد على التاريخ، هذا التاريخ الذي أصبح مشبوها بعد أن فقد الماضي شرعيته التاريخية وبريقه النضالي في عالم توحيد المصالح والمراكز العليا، يقول خالد:" ها هم هنا ...وزراء سابقون...ومشاريع وزراء– سرّاق سابقون...ومشاريع سرّاق، مديرون وصوليون...ووصوليون يبحثون عن إدارة، مخبرون سابقون...وعسكر متنكرون في ثياب وزارية..." [3].

وهكذا جسدت قسنطينة المدينة المعذبة نتيجة فقدانها لطبيعتها وملامحها، وذلك بتغييب رجالها الذين صنعوا مجدها، فغدت سيرتا جسدا بلا روح، فكان عرس أحلام بمثابة سيرك أو مهرجان يثير البكاء والحسرة على هذا الوطن المعذب المأزوم الذي يتسابق الانتهازيون والأصوليون لاستنزافه:" هذا هو الوطن...وهذا هو عرسك الذي دعوتني إليه، إنه " السيرك عمار"...سيرك لا مكان فيه إلا للمهرجين ولمن يحترفون

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد.ص377.
[2]- قاسم عبده قاسم. بين التاريخ والفولكلور. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. الهرم. ط2. 2001. ص226.
[3]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد.ص424.

الألعاب البهلوانية...والقفز على المراحل...والقفز على الرقاب...والقفز على القيم، سيرك يضحك فيه حفنة على ذقون الناس، ويروّض فيه شعب بأكمله على الغباء..."[1].

كما سلطت الكاتبة الضوء على بعض الاجتماعات التي كانت تقام خارج الجزائر والتي كان معظم المدعوين إليها من مناضلي الأمس وضباط وشخصيات راقية استطاعت أن تجد لنفسها مكانا في الصفوف الأمامية في ظروف مشبوهة، وقد اختارت الكاتبة شخصية "سي الشريف" أخو القائد الشهيد "سي الطاهر" لتعبر عن مدى العفونة التي وصل إليها ثوار الأمس، يقول خالد:" كنت أراه يتدحرج أمامي من سلّم القيم غباء أو تواطؤا لا أدري..." [2]. كما استعانت بشخصية " سي..." الضابط العسكري الذي وجه رشاشه هذه المرة إلى الوطن" ها هو ذا إذن " سي ..." يبدو طيّبا ورجلا شبه بسيط، لولا بذلته الأنيقة جدا...وحديثه الذي لا يتوقف عن مشاريعه القريبة البعيدة التي تمر جميعها بباريس وبأسماء أجنبية مشبوهة تبدو مخجلة في فم ضابط سابق...".[3]

هاته المشاريع التي تنجز باسم الشّعب وإلى الشّعب غير أنّ المستفيد الحقيقي منها هي السلطة وكلّ ما جاورها من وصوليين وطفيليين، يقول خالد:" فاحتفظت لنفسي بما سمعته عن تلك..." المنشآت" وكل ما جاورها من معالم وطنية بنيت حجرا حجرا على العمولات والصفقات، وتناوب عليها السرّاق كبارا وصغارا ...على مرأى من الشهداء الذين شاء لهم سوء حظهم أن يكون مقامهم مقابلا...لتلك الخيانة...".[4]

وهكذا كشف خالد زيف المجاهدين وتدحرجهم من سلّم القيم الثورية وسقوطها اسما بعد آخر أدى هذا الوضع في النهاية إلى تأزم الوضع ودخول الجزائر مرحلة من أحلك مراحلها هي مرحلة الأزمة، حيث صورت اقتتال الإخوة الأعداء، فدخلت بذلك الجزائر مرحلة دموية كان النصر في تلك السنوات للأكثر وحشية وجرما.

لقد استطاعت أحلام مستغانمي أن تنقل لنا استياءها ورفضها لوضع الجزائر بعد الاستقلال والنهاية التي آل إليها صانعوا مجد الجزائر وحريتها، الذين انقسموا بين معارض رافض للأوضاع فكان مآله إمّا النفي أو التجاهل والتغيب، أمّا القسم الثاني الذين يسارعون لأقسام هذا الوطن والتقلب من منصب إلى آخر، تقول أحلام فاضحة أحد الشخصيات السياسية المهمة على لسان خالد:" مثل" سي حسين" الذي أعرفه جيدا والذي

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص428.
[2]- المصدر نفسه. ص271.
[3]- المصدر نفسه. ص271.
[4]- المصدر نفسه.ص ن.

كان مدير إحدى المؤسّسات الثّقافية يوم كنت مديرا للنّشر وإذا به بين ليلة وضحاها يعيّن سفيرا في الخارج... بعدما طلعت رائحته في الداخل، فتكفلوا بلفّه في بضعة أشهر وبعثه إلى الخارج مع كل التشريفات الدبلوماسية خلف علم الجزائر ! ...". [1]

ورغم ضحالة هذه الأحداث وقتامتها إلا أنّها تعد أحداثاً عابرة بالنسبة لعمق تاريخ سيرتا وعنفوانه، هذه المدينة التي تحمل بين دفاتها قوة وجبروتا مكّنها من الصمود طيلة عهود، فلم يثن إقدامها لا الغزاة ولا الوصوليين وإن كانت هناك من إنزلاقات فلكل مدينة كبوة.

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص427.

المبحث الرابع: حفريات الذّاكرة والوعي المأساوي بالتّاريخ:

لقد كان لهذا التّاريخ المأساوي لمدينة قسنطينة أبعادا عميقة في ذكريات شخصيات الروايات الثلاثة، كما استقرت تلك الأحداث العنيفة وشما في ذاكرتهم، نجد من أبرز تلك الأحداث مظاهرات 8 ماي 1945 التي كانت بمثابة صفعة يقظة تلقاها الجزائريون من لدن الاستعمار، فكانت النواة الأولى لثورة التحرير، وقد تعدّدت الصّفات والنّعوت لذلك اليوم، فكان يوم الدّماء والدّموع، كما كان لتلك الجرائم التي اقترفت في حق شعب أعزل صفة المجازر التي لن تنمحي من ذاكرة الجزائريين.

في رواية نجمة نجد الأخضر يستحضر ذكريات اعتقاله يوم 8 ماي فتأتيه الصور مشحونة بالذكريات المؤلمة، وهو مرة ثانية معتقل داخل الزنزانة، غير أنّه هذه المرة معتقل لأسباب أخرى تبقى متعلقة بالاستعمار ومظالمه نجده يقول: " كأنّما هو يعيش حالة مرّ بها من قبل ...فاستعاد الأخضر ظروف اعتقاله الأول، وقد ضاعت في ثنايا الذاكرة..."[1]، فراحت الذكريات تتوالى وتتدفق لتعيد إلينا أحداث ذلك اليوم المشؤوم حينما ظن الجزائريون أنّهم بمساعدتهم لفرنسا سيحصلون على استقلالهم فخرجوا في مظاهرات سلمية، غير أنّ وحشية الاستعمار حال دون ذلك، يقول الأخضر:" كان فصل الربيع قد تقدم شوطا، منذ ما يربو عن السنة، ولكن النور نفس النور، في ذاك اليوم نفسه يوم 8 ماي انطلقت راجلا...فوجدت الساحات الثلاث فارغة...كانت أذناي كالغربال يملؤها دوي الطلقات النارية، وما كنت لأريد تصديق ذلك ولا لأتصور أن كل ذلك قد جدّ...".[2]

فالأخضر لا يصور الأحداث كما هي وإنّما يكتفي بالإشارة إلى فظاعتها ووحشيتها، فمشاهد المظاهرات تنساب متسلسلة دونما انقطاع لأنّه عايشها وتأثر بتلك المناظر المرعبة، كما ذاق ويلات التعذيب، فقد كان من مجموع المتظاهرين الذين ألقي عليهم القبض :" واستسلم الأخضر فقيّد المفتشون يديه ورجليه، ثم أثبتوا في القيدين عصا طويلة أفضت إلى شلّه عن كل حركة، ثم أخذوا سجينهم من وسطه وألقوا به في حوض الماء، انسلخ كتف الأخضر الأيسر...كان الأخضر يضطرب محاولا إخراج رأسه من الماء...".[3]

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة .ت: محمد قوبعة. ص52

[2]-المصدر نفسه. ص ن.

[3]- كاتب ياسين. نجمة .ت: محمد قوبعة. ص60.

وقد التقى الأخضر وهو بالسجن مع "الطيب" الدهان الذي أعدم رميا بالرصاص و"سي خليفة" الحلاق الذي أنهكوه ضربا بالسوط على صدره فـ " ...بدا صدره الطويل الدامي منحنيا تتخلله بقع زرقاء...كانت أسنانه تصطك...".[1]

كما التقى مع صديقه مصطفى الذي تجرع هو الآخر من ويلات الاستعمار، يقول الأخضر:" كان مصطفى يتخبط في بركة ماء أسود"[2] مصطفى الذي ألقي عليه القبض لأنه كان من المشاركين في مظاهرات 8 ماي، يقول مصطفى: " غمرتني نشوة الانتصار إذ وجدتني مع الأخضر في القاعة الوحيدة بالسجن المدني، صحبة عشرة من المساجين ! "[3] فلم يزدهما التّعذيب والسّجن إلاّ تحدياً وصموداً.

يرجع بنا مصطفى إلى يوم 13 ماي حينما تم إيقافه من لدن المفتشين الذين اقتادوه إلى مركز الدرك، يقول مصطفى: " وما إن دخلت حتى تلقيت ضربة تحت عيني خيّل إليّ أنها سقطت علّي من السقف...".[4]

ولم تتوقف المأساة عند هذا الحد، بل راح المستعمرون يقيمون الولائم أمام المعتقلين الذين يعانون آلام التعذيب والجوع. هاته الولائم التي كانت تقام من الخراف التي تم نهبها من الفلاحين الجزائريين الفقراء. ينقل لنا مصطفى هذا المشهد الذي يربطه بالماضي السحيق، حيث تتحد بذاكرته الصورتان صورة الرومان وأحفادهم الفرنسيين الذين انتهجوا طريق أجدادهم، يقول مصطفى:" وأقام حراسنا...وليمة أمام أعيننا تذكر بولائم نيرون، رأيناهم يذبحون الخرفان التي نهبوها من الفلاحين...".[5]

وهكذا كلّما طالت السهرة ازداد المستعمرون حنقا ورغبة في إذلال الجزائريين وتحقيرهم:" وعمد ناظر الدرك ...فذبح خروفا تدفق دمه على وجه الطيب، ثم رماني بأحشائه الحارة...وراحوا يشوون الذبائح..وانتهت الوليمة فألقى الناظر بما كان في كأسه وجهتنا...".[6]

كما كان تاريخ المظاهرات تاريخ الدماء والدموع، كان أيضا تاريخ مأساة العائلات الجزائرية أيضا، وقد كانت أسرة مصطفى أصدق مثال لفداحة الوضع الذي آل إليه الجزائريون في تلك الفترة التي تلت أيام المظاهرات مباشرة، فبالإضافة إلى استحضاره

---

[1]- المصدر نفسه. ص58.
[2]- المصدر نفسه. ص59.
[3]- المصدر نفسه. ص248.
[4]- المصدر نفسه. ص245.
[5]- المصدر نفسه. ص247.
[6]- المصدر نفسه. ص248.

لذكريات اعتقاله وتعذيبه استعاد تلك الصورة المأساوية التي اصطدم بها عندما خرج من المعتقل، حيث يصف مصطفى حالة أسرته بعد مذابح الثامن ماي:" كانت ساحة منزلنا خالية لم يهّب أحد للقائي...كان أبي في سريره يكتم أنينه...كان عناقنا أخرس. كان وجهه يلتهب حمى...وكانت أختاي في الغرفة الأخرى، ولم تكونا ترتديان فستان العيد. كانت ضفائرهما الطويلة محلولة..." [1]، ويواصل مصطفى سرد أحزانه التي بلغت ذروتها مع حالة والدته التي لم يكد يتعرف عليها جرّاء سلسلة المآسي التي تعرضت إليها:" وبصرت بجانبهما بشكل ممدد يبدو منه شعث من الشعر الأبيض..." [2].

فقد مات عدد كبير من عائلتهم، كما تم إعدام خاله مع أسرته رميا بالرصاص، وكانت خاتمة المأساة إبلاغها بموت مصطفى، مصطفى الذي وقف مشدوها لا يلوى على شيء أمام مأساتها التي تعبر عن مأساة وطن بأسره:" أتراني أجرؤ على تقبيلها...".[3]

ويذهب رشيد بأفكاره إلى أبعد من يوم الثامن ماي إلى تاريخ قسنطينة أيام كانت تدعى سيرتا التي سقطت في يد الاستعمار:" قسنطينة وعنابة التي كانت سلطتهما تمتد على نوميديا القديمة وقد أضحت اليوم مقاطعة فرنسية لا غير..." [4]، فقد ضعفت تلك القوة وتراجعت فانهزمت على يد الرومان ثم خلفهم أحفادهم فيما بعد الفرنسيون الذين يسعون إلى طمس معالمها ومحو آثارها، وذلك بإلغاء تاريخها وماضيها، غير أنّ وعي الجزائريين وصمودهم كان أقوى من ذلك، يقول رشيد:" ...لست أتحدث عن بقايا الرومان...ولكنّي أعني الآثار الدقيقة الثابتة عبر الأزمان، تلك التي تجري في عروقنا كدمنا، تلك التي نحملها في ذاتنا عميقة دون أن نجد الوقت ولا المكان المناسبين لرؤيتها إنها أنقاض الحاضر التي لا تقدر...". [5]

عكس ذلك مدى وعي الجزائريين وإدراكهم لمفهوم الوطن خاصة بعد مظاهرات 8ماي 1945، فقد أدرك الجزائريون أنّ هذا الوطن ملك لهم ويجب عليهم تخليصه من قبضة الطغاة، ولا يستحضر رشيد من ذلك اليوم إلا صورة سي مختار الذي تحدى قوات الاستعمار وخرج في شوارع قسنطينة، هذه المدينة التي استطاع الاستعمار قمعها فنامت في حزن عميق، يقول رشيد:" سي مختار العجوز الذي كال له الحاكم الفرنسي اللكمات بعد مظاهرات يوم 8 ماي، ثم سار عبر المدينة في مظاهرة لم يكن فيها غيره...يحمل

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة . ت: محمد قوبعة.ص249.
[2]- المصدر نفسه.ص ن.
[3]- المصدر نفسه. ص ن.
[4]- المصدر نفسه. ص182.
[5]- المصدر نفسه. ص ن.

خرقة كتب عليها بيتين من الشعر ابتدعهما، فنقشهما المارة المتجمهرون في ذاكرتهم: لتحي فرنسا صه يا عرب ! ...".[1]

يبدو أنّ هذا الشّعار رغم ما يحمله من تمجيد لفرنسا في الظاهر إلاّ أنّه تحريض واستفزاز للجزائريين على الانتفاضة ودعوة للتحرر من قيود الصمت، كما عبّر الشعار عن مأساة الجزائري هذا الجزائري الذي مورست عليه سياسة القمع والترهيب من محاولة فرض صوته فحتى "سي مختار" الذي غامر بهذا الفعل إلاّ أنّه أغلق فمه واكتفى برفع الخرقة في مدينة كان لصدى ركض خيولها وصليل سيوفها رهبة لكل من تسول له نفسه بالاقتراب من حماها.

غير أنّ بو الأرواح – بطل رواية الزلزال – نجده متشبثا بعهد الاستعمار الذي ما يزال يحتفظ بذكرياته دائم الحنين إلى عهده، لذلك نجده كلّما تأزمت الأوضاع على مستوى الواقع هرع إلى استرجاع ذكرياته وسرد تاريخ الإقطاعيين بمدينة قسنطينة، هذه الذكريات المشحونة بالحسرة والأسى على ذلك الماضي الذي ولّى دون رجعة يقول بو الأرواح: " المدينة انقلبت رأسا على عقب، زمن الفرنسيين كانت هادئة، هادئة بشكل ملفت للنظر...".[2]

وبذلك يستحضر بو الارواح ماضيه وماضي مدينة قسنطينة التي انقلبت رأسا على عقب وأضحى " الذين كانوا كلّ شيء في قسنطينة ثم صاروا لا شيء، وهؤلاء الذين كانوا – عكس ذلك– لا شيء ثم صاروا كل شيء..." [3] فأقاربه الذين كان في الماضي يحتقرهم تغيرت أحوالهم بعد الاستقلال، فابن أخيه الطاهر النشال أصبح بعد الاستقلال ضابطا في الجيش برتبة عالية، وعبد القادر الغرابلي صار أستاذ، وعيسى رجل الدين المتصوف تحول إلى نقابي، ومدينة قسنطينة البرجوازية أصبحت مدينة الشعب بكل مستوياته، كما أنّ رفاقه البرجوازيين مثل بلباي التاجر الثري تغير حاله يقول بلباي:" يوم استغنيت عن العمال وشمّرت ذراعي كي أوصل لقمة إلى غيري لأتمكن من بعد ذلك من إيصالها إلى فمي، وإلى أفواه أبنائي وأحفادي..." [4] وصديقه نينو رجل الأعمال انتهى حاله إلا دلاّل:" ها هو المسكين يدلّل في السباط ببرنس قديم، وجبّة ملبوسة ومذياع صغير...".[5]

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة ت: محمد قوبعة . 162

[2]- الطاهر وطار. الزلزال. ص12.

[3]- مصطفى فاسي. دراسات في الرواية الجزائرية. ص45.

[4]- الطاهر وطار. الزلزال .ص30.

[5]- المصدر نفسه. ص89.

هذا التغيير الذي اصطدم به بو الأرواح بعد الاستقلال حيث شهدت مدينة قسنطينة في هذه الفترة تحولا كبيرا على جميع المستويات، لذلك يثور بو الأرواح على هذا الواقع الذي يشهد احتضار الطبقة الإقطاعية، ويمهد للاشتراكية أو الثورة الزراعية التي يسعى بو الأرواح جاهدا لمحاربتها ولو على مساحة الذاكرة:" فالبطل لا يعمل للمستقبل ولكنه يعمل للماضي، وهو يحاول – وفي حالة يأس– أن يطيل ما أمكن من عمر الماضي"[1]، فينشئ بينه وبين الماضي روابط التعاطف والحنين بينما نجده يعلن القطيعة والسخط على الواقع، هذا الواقع المأساوي الذي قلب كل الموازين فقد حملت رياح الاستقلال معها بذور التغيير والثورة على كل ما له صلة ببقايا الاستعمار التي تكمن في هذه الطبقة البرجوازية، فكانت الثورة الزراعية إيذانا صريحا بنهاية عهد كان للإقطاعيين فيه باع طويل وميلاد عهد جديد هو للاشتراكيين.

كما تستحضر أحلام مستغانمي ذكريات الثورة وبالضبط تاريخ الفاتح من نوفمبر وذكرى الثامن ماي 1945 حيث استطاعت ذاكرة خالد بطل – ذاكرة الجسد– الولوج أكثر عبر ثنايا التاريخ واسترجاع تلك الأيام التاريخية المقدّسة ومطابقتها مع نظيراتها من أيام الإستقلال.

يعود خالد ذلك المناضل الذي شهد الثورة وما بعدها بذاكرته إلى تلك الأيام الخوالي حيث تقوده قدماه إلى سجن الكديا ذلك السجن الذي كان أوّل درس له من دروس النضال، حيث تذكر أحداث الثامن ماي 1945، يقول خالد:" في سجن " الكديا" كان موعدي النضالي الأول مع (سي الطاهر)...وكان سجن الكديا وقتها ككل سجون الشرق الجزائري يعاني فجأة من فائض رجولة، إثر مظاهرات 8 ماي 1945 التي قدمت فيها قسنطينة وسطيف وضواحيهما أول عربون للثورة، متمثلا في دفعة أولى من عدة آلاف من الشهداء سقطوا في مظاهرة واحدة، وعشرات الآلاف من المساجين...". [2]

وهكذا كان لتلك الذكريات أكثر من وجه للمأساة، فقد عكست مأساة وطن يناضل من أجل حريته واسترجاع أرضه، كما جسدت بشاعة الاستعمار ووحشيته الذي أسقط في يوم واحد:" خمسة وأربعين ألف شهيد...في مظاهرة هزت الشرق الجزائري كله..." . [3]

---

[1]- مصطفى فاسي. دراسات في الرواية الجزائرية. ص43.
[2]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص36.
[3]- المصدر نفسه. ص378.

كما استحضر خالد بعض الأسماء لأولئك الشهداء الذين آثروا الموت على خيانة الوطن، نجد منهم " إسماعيل شعلال كان مجرد عامل في البناء وكانت له مهمة حفظ وثائق " حزب الشعب"...وكان أوّل من تلقّى زيارة الاستخبارات...وبدل أن يفتح إسماعيل شعلال الباب ...فتح نافذته الوحيدة ورمى بنفسه على وادي الرمال ليموت هو وسره في وديان قسنطينة..."[1]، فاحتضنته قسنطينة ودارت سره في أعماقها، ويلي إسماعيل شعلال شهيد آخر لا يقل صمودا ووفاء هو عبد الكريم بن وطاف الذي تفانى الاستعمار في تعذيبه بعد أن تم اعتقاله بسجن الكديا، حيث يصف خالد ألمه الصامد وصوته المكابر، يقول خالد:" وهناك صوت (عبد الكريم بن وطاف) الذي كانت صرخات تعذيبه تصل حتى زنزانتنا خنجرا يخترق جسدنا أيضا ويبعث فيه الشحنات الكهربائية نفسها...فيرد عليه صوتنا بالأناشيد الحماسية والهتاف، ويصمت صوت بن وطاف..." [2]، لتتوّج روحه بنور الشّهادة، ويبقى صوته ترتيلة التحدّي التي ما تزال عالقة بذاكرة خالد، إضافة إلى صورة بلال حسين الذي صنع تاريخ الثورة وأغفله فيما بعد تاريخ الاستقلال، بلال حسين الذي "قضى سنتين في السّجن والتعذيب، ترك فيها جلده على آلات التعذيب. أذكر أنه ظلّ لعدّة أيّام عاري الصّدر عاجزا حتّى أن يضع قميصا على جلده حتّى لا يلتصق بجراحه المفتوحة...". [3]

غير أنّ التّاريخ يعود بوجه آخر وبنوع آخر من المآسي هذه المرة, فقد انتهى المجاهد بلال حسين بعد الاستقلال نهاية مأساوية كانت تتويجا لذلك الماضي النّضالي المجيد، يقول خالد معلقا على موته:" مات بائسا وأعمى، ومحروما من المال والبنين، اعترف قبل موته ببضعة أشهر لصديقه الوحيد، أنهم عندما عذبوه تعمدوا تشويه رجولته .... [4].كما اختار له القدر الشهر نفسه فكان يوم 27 ماي 1988"[5]، كما لو استشهد مع أبطاله الأوائل. وقد اتخذت ذاكرة خالد مسارا لولبيا في سرد أحداثها، حيث إنّها ما إن تفرغ من قصة حتى تعود إلى ذلك السجن لتستقي قصة أخرى ربما تكون أكثر ألما وأبلغ مأساة، فتعود بنا ذاكرة خالد مرة أخرى إلى سجن الكديا وبالضبط إلى سنة 1955 حيث تلقي الضوء على أحد دهاليزه المريبة وبالضبط إلى الزنزانة رقم 8، حيث كان أبطال تاريخ الجزائر الثوري معتقلون، يقول خالد:" يوم 10 نوفمبر 1955 بعد صلاة المغرب

1- المصدر نفسه. ص379.
2- المصدر نفسه. ص ن.
3- المصدر نفسه. ص381.
4- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص381.
5- المصدر نفسه. ص ن.

وبين الساعة السابعة والثامنة مساء بالتحديد، كان مصطفى بن بولعيد ومعه عشرة آخرون من رفاقه قد هربوا من الكديا، وقاموا بأغرب عملية هروب من زنزانة لم يغادرها أحد قبل ذلك اليوم...سوى إلى المقصلة"[1]، ليعود بعد ذلك شهر نوفمبر الذي كان الشهر الذي توحد فيه صوت الجزائريين على إعلان الثورة، ثم اقترن بعد ذلك بأشجع مغامرة قام بها أبطال الجزائر، يعود هذه المرة بعد الاستقلال مفرغا من البطولة هزيلا من رموزه، حيث يسترجع خالد مجد الماضي بغصة الحاضر :" كنا شعبا واحدا ترتعد الجدران لصوته قبل أن ترتعد أجسادنا تحت التعذيب. هل بحّ صوتنا اليوم...أم أصبح هناك صوت يعلو على الجميع. منذ أصبح هذا الوطن لبعضنا فقط...".[2]

كما أصبحت تلك الأيام التاريخية المطرزة بدماء الشهداء المقدّسة أياما للحسرة والأسف على واقع مزيّف تشوبه الشكوك والظنون" ولذا سيكون غدا يوما للحزن مدفوع الأجر مسبقا، لن يكون هناك من استعراض عسكري، ولا من استقبالات، ولا من تبادل تهاني رسمية...سيكتفون بتبادل التهم...ونكتفي بزيارة المقابر...".[3]

وهكذا تعود الذكريات حزينة لزمن لم يستطع فيه التاريخ أن يعيد نفسه، لذا نجد خالد يستنهض الأطلال في محاولة لنقل الحاضر بعيون الماضي، فيستعيد خالد ذكرى إلتقائه مع كاتب ياسين داخل سجن الكديا في أثناء مظاهرات الثامن ماي 1945، يقول خالد:" أذكر أنّ ياسين كان مدهشا دائما كان مسكونا بالرفض وبرغبة في التحريض والمواجهة..." [4]. غير أنّ الأيام تدور دورتها والتاريخ يفرغ من محتواه، وتتنكّر الأحداث لصانعيها فيعيد القدر لقاءهما بعد الاستقلال، وهما في المنفى، هذا المنفى الذي كان إحدى مكافآت السلطة لثوارها ومناضليها،يقول خالد:" مرّت عدة سنوات قبل أن التقي بكاتب ياسين في منفاي الإجباري الآخر بتونس..." . [5]

ويبدو أنّ التّاريخ ما يزال يصبغ بمآسيه على كاتب ياسين ويلاحقه حتى بعد الاستقلال ليزيده معاناة تجلّت في دخوله دوامة المتناقضات والمفارقات في ظل تسوية غير منتظرة بين فترتين تاريخيتين كان يفترض منطقيا أن يكون بينهما الاختلاف التام والتغيير الجذري..[6]

---

[1]- المصدر نفسه. ص384.
[2]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص378.
[3]- المصدر نفسه. ص29.
[4]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص385.
[5]- المصدر نفسه. ص ن.
[6]- نور سلمان. الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر.ص481.

وهكذا يتناغم الواقع مع الذاكرة، حيث استطاعت الكاتبة أن تجمع بين تجربة كاتب ياسين لتعمق بها رؤيتها ولتدلّل على ماضي اقترن بالبطولة والإخلاص وواقع أصبح للحسرة والاغتراب.

فيختم ذكرياته بأفجع ذكرى وينتهي عند آخر تاريخ كان عام 1988 فكان تاريخ مأساته التي هي مأساة الوطن وذلك بموت أخيه حسان الذي يعد من أول دفعة للأبرياء الذين قتلوا بين فئة متمسكة بالحكم وفئة تسعى للحكم، يقول خالد: " ذات يوم من أكتوبر 1988 جاء خبر موته هكذا صاعقة يحملها خط هاتفي مشوش..."[1]، لتبلغ الذاكرة ذروتها المأساوية، وذلك حينما ترتبط بذراع خالد التي تنتصب أمام هذه الأحداث إنها ذراع المناضل التي صنعت التاريخ الثوري وأهانها تاريخ الاستقلال فتستنهض الذاكرة الذراع المبتورة لتعبر عن مأساة الواقع، يقول خالد:" يستوقفني جمركي عصبي في عمر الاستقلال لم يستوقفه حزني ولا استوقفته ذراعي...فراح يصرخ في وجهي بلهجة من أقنعوه أننا نغترب فقط لنغتني، وأننا نهرّب دائما شيئا في حقائب غربتنا، بما تصرح أنت...؟" [2].

وهكذا لم تكن هذه الذراع شاهدة على المجد والفخر، وكل تلك التضحيات والأحداث، وإنّما أصبحت طرفا في العذاب والمعاناة وخيبة الراهن " كان جسدي ينتصب ذاكرة أمامه ولكنه لم يقرأني يحدث للوطن أن يصبح أميّا..." [3]. فيأتي الجواب مملوءا بالشجى والغصة، يقول خالد: " أصرح بالذاكرة ...يا ابني..." [4]

ذاكرة تحمل الكثير من المفارقات التي لا يمكن لجزائر الاستقلال أن تستوعبها.وإذا كان يوم الثامن ماي 1945 قد حمل لأبطال نجمة المآسي والوعي، الوعي ببداية تاريخ جديد هو للجزائريين فإنّ " الثورة الزراعية" قد حملت مأساة بو الأرواح ووعيه بميلاد عهد جديد ليس له وإنّما للاشتراكيين، نجد أنّ الاستقلال لم يحمل معه سوى المآسي لخالد بطل – ذاكرة الجسد– لتبلغ ذروتها مع سقوط الجزائر في دوامة الإرهاب.

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص463.
[2]- المصدر نفسه. ص482.
[3]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص482.
[4]- المصدر نفسه. ص ن.

الفصل الثالث

قسنطينـة الرمز والتاريخ

- تمهيد: الأسطورة والرمز.
- المبحث الأول: رمزية قسنطينة.
- المبحث الثاني: السيرة الذاتية بين الأسطورة الرمز.
- المبحث الثالث: التاريخ المغيّب أو المسكوت عنه.

تمهيـد: الأسطورة والرمز

لقد سبق وبينّا في الفصل السابق العلاقة بين الأسطورة والتاريخ، وذلك أنّ الأسطورة عبارة عن ترميز وتكثيف وتعميق التّاريخ كما أنّها تتضمّن الحقائق التاريخية أو الأدبية أو الدينية أو الفلسفية، ولكن على شكل رموز تم استيعابها بمرور الزمن على أساس ظاهرها الحرفي[1]، ويرى "جيليار دوران" أنّ الأسطورة:« نظم لوقائع رمزية في مجرى الزمان»[2]، حيث يلتقي معه "تايلورTaylor في أنّ "الإنسان البدائي استطاع أن يصنع الأسطورة نتيجة تأملاته للكون، وإيمانه بـ "حيوية الطبيعة" " إلى درجة تجسيدها على نحو رمزي، فمجموعة الطقوس التي كان يقوم بها ليست إلاAnimisme".

تجسيدا لبعض الأفكار الغامضة لديه عن الكائنات العليا التي تملأ الكون، والتي تزخر بها أساطيره سوى نوع من العون المادي الذي أعانه على إطفاء شكل من أشكال الوجود والذاتية على تلك الأفكار، كما لم تكن سوى رموز لهذه الأفكار نفسها[3]، ويذهب "شتراوس" إلى أنّ : «الرمز في الأسطورة، هو الذي يؤسس وجودها عامة ونسيجها خاصة»[4]، فالرمز يوظف المتخيل والانزياحات للإشادة بالتعابير الباطنية والأفكار العميقة. ويعد الرمز أقوى دلالة وأفصح بيانا وأوسع معرفة لذلك يعدّ أهم ركيزة ترتكز عليها الأسطورة، فالرمز أداة تعبير للمادة الأسطورية لذا فسّر الفلاسفة الإغريقيون الأوائل الأساطير على أنّها : «كتابات ومجازات، اخترعها مؤلفون فضلوا اللجوء إلى التلميح والرمز والاستعارة»[5]، والذين عدوا آلهة الأساطير رموزا أقوى مادية، أو لمفاهيم مجردة.

وهكذا تتلاحم وتتعالق الأسطورة مع الرمز الذي يشكلها وتتشكل من خلاله حيث إنّها تتخذ منه مطية لتبليغ أفكارها وآرائها ولتجسيد حريتها وتأملاتها لهذا الكون، كما يساعدها الرمز على ولوج المطلق وذلك من خلال إنتاج عدد لامتناه من المدلولات وشحنها بطاقات رمزية لتتجاوز من خلاله حدود المعقول، كما تعدّ الأسطورة الفضاء الرحب الذي ينتعش فيه الرمز والوعاء الذي يحتويه ويرتقي من خلاله حدود الفنية عبر إصباغه بدلالات جديدة غير المتواضع عليها بإمداده بشخصيات وعوالم تخالف الواقع

---

[1]- نضال الصالح. النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة.ص14.

[2]- محمد عجينة .موسوعة أساطير العرب.دار الفرابي.بيروت. ط1.1994. ص74.

[3]- الرمز الأسطوري و البناء الاجتماعي .مجلة عالم الفكر .ص12. نقلا عن: نضال الصالح. النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. ص .

[4]- سميرحجازي. قضايا النقد الأدبي المعاصر الفكر الحديث. الدار البيضاء .1983 .ص106.

[5]-نزار عيون السود. نظريات الأسطورة. مجلة عالم الفكر .ص 214. نقلا عن: نضال الصالح .النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. ص15.

وتسبح في فضاء المتخيل واللامعقول، إذ تعد الأسطورة المرجعية التي يعتمد عليها الرمز ويستل من مادتها الأسطورية ليضمنها دلالاته.

وفي الأخير نجد أن الأسطورة تستعين بالرمز وتوظفه للتعبير عن مقاصدها وبناها العميقة كما أن الرمز يستلهم من الأسطورة أبعادها العجائبية وصفاتها الغرائبية لتكثيف إيحاءاته.

المبحث الأول: رمزية قسنطينة:

قسنطينة سيرتا المدينة التي ذاع صيتها عبر الأزمنة والعصور حيث تفجر عبق الحضارة والفنون والعلم والأصالة، فراحت المخيلة الجزائرية تنسج حولها أروع الحكايا وتحبك أجمل الأساطير عن جسورها ومزاراتها، باياتها وأوليائها كما أنها أسرت خيال المبدع الجزائري فخلدها في أورع كتاباته مصورا صمودها وبسالة رجالها تارة، وعراقتها وإغراء غاداتها تارة أخرى، فتتعالق بذلك المرأة مع المدينة لتشكل الوطن ومنه الأمة.

وقد اتفق الروائيون الثلاث –كاتب ياسين– الطاهر وطار–أحلام مستغانمي على أن تكون قسنطينة هي نقطة الانطلاق لأحداث مريرة عاشها الشعب الجزائري كما صورت جرح وطن مهدور الكرامة مشتت الأواصر. فتبزغ نجمة في رواية كاتب ياسين لتدلل على هذا الوطن الذي يتأهب للنهوض، فمن هي نجمة؟ هذه المرأة السراب، الطيف الذي يجول بأرض الجزائر؟

يبدو اسم نجمة واضحا من الغلاف لتكون فيما بعد بطلة الرواية ونجمة هي فتاة في مقتبل العمر، فاتنة رائعة الجمال تميزت برشاقة قدها ونضوج أنوثتها وسمرة بشرتها مما جعلها محط الاهتمام، هذه المرأة التي يتصارع الأبطال عليها ويقتتلون لأجلها، يحاولون امتلاكها فتمتلكهم، لقد كانت هذه المرأة الأمازيغية "في طفولتها شديدة السمرة، قريبة من السواد، وكانت هركولة، متوترة الأعصاب، متينة البنيان، دقيقة الخصر...".[1]

نلمح من هذه الصفات "أنها أسطورة أكثر منها امرأة...".[2]

هي رمز لكل أرض غسلتها دموع الأرامل ودماء محاربيها، هذه المرأة المجهولة النسب والأصول، الغامضة الملامح، الشبح الأبيض الهائم في شوارع الجزائر "وجعل ذلك الطيف يبتسم لي بأبهته التي لم أعرف لها مثيلا من قبل..."[3] لتتحد بذلك صورة المرأة الطيف السراب مع صورة المدينة "يبتسم لي كما لو كان خيالا قد اتخذ أشكالا وأبعادا تجسد أمامي مدينة الطفولة ذلك العالم القديم الذي يفتنني ويبهرني..."[4]، هذه المدينة المثالية مدينة الطفولة والحلم والبراءة ترمز أيضا "لكل مدينة من مدن الجزائر..."[5] هذا

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص80.
[2]- سعاد محمد خضر. الأدب الجزائري. ص198.
[3]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص113.
[4]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص113.
[5]- سعاد محمد خضر. الأدب الجزائري المعاصر. ص191.

الوطن الضائع الجذور هذا التراب الحائر، فنجمة "ليست سوى بذرة البستان، وإرهاص الخيبة وأريج الليمون...".[1]

إنها تمثل الجزائر الوطن والأرض، الجزائر الغاضبة، المتمردة الممزقة ابنة الجزائر وفرنسا "فنجمة ابنة امرأة فرنسية كما أنها ابنة القبيلة العريقة فهي بذلك سجينة التناقض العقيم..."[2] هذه المرأة التي قدم الجزائريون أنفسهم في سبيلها غير أنهم لم يستطيعوا امتلاكها، فأرض الجزائر صامدة تجري الأحداث على سطحها فلا تهز من كيانها، إنها امرأة –الأرض– التي يتنازع الرجال أبوتها وحبها وقد أرادها كاتب ياسين من أم فرنسية وأب جزائري غير معروف لتمثل روح الجزائر الممزقة كما أنها تمثل ذلك الجيل من الأبناء التائهين بين هويتهم وانتماءهم لكأنهم لقطاء...[3]

هذا الشعب اليتيم الذي يبحث عن والد يتبنى قضيته ويناضل من أجلها ويوحد شملهم إنها فكرة الوطن " لأن هذا الوطن لم يولد بعد، كثر آباؤه فما استطاع أن يولد في وضح النهار..."[4]، والذي يبحث عن من يبعثه فتكون بذلك:"نجمة هي نقطة الانطلاق للبحث وراء البلد الضائع وتدل عليه...".[5]

فتنطلق من قسنطينة الحضارة والعراقة إلى مدينة التي تماثلها مجدا وأصالة "بونة" عنابة "من قسنطينة إلى عنابة، ومن عنابة إلى قسنطينة...كانت محتجبة بالسواد، يصطحبها زنجي كان حارسها...".[6]

لتصور حركة الشعب المستمرة وبحثه عن هذه الأرض المفقودة ولذا تختفي نجمة في أرض كبلوط أرض العزة والكرامة والأجداد "ما نحن إلا قبائل نكبت واستؤصلت ليس في تمجيد القبيلة من ردّة ولا رجعة إلى الوراء، فهي الآصرة الوحيدة التي بقيت لتجمع شتاتنا ولتعود إلينا منزلتنا...".[7]

فشجرة القبيلة قطعت واستحال الرجوع إلى القبيلة ويجب البحث عن بعث فكرة الأمة التي هي في طور الإرهاصات، فالقبيلة تجذّر لفكرة الوطن ومن ثمة الأمة، هذه الأمة التي مزقها الاستعمار واغتصب أرضها، هذه الأرض التي تنتظر من يمدّها يد النجاة لتسترجع قوتها وجبروتها وتدافع عن كرامتها بكل قوة، لذلك فهي تبدو مجللة

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص87.
[2]- نور سلمان. الأدب الجزائري بين الرفض والتحرر. ص427.
[3]- المرجع نفسه. ص440.
[4]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص191.
[5]- سعاد محمد خضر. الأدب الجزائري المعاصر. ص199.
[6]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص190.
[7]- المصدر نفسه. ص134.

بالسواد وهذا لقتامة الرؤيا في تلك المرحلة وانسداد الأفق أمام أبنائها ويدين كاتب ياسين فرنسا التي ألبست نجمة ثوب الحداد مشيرا إلى أن الوضع ليس سوى ألم الولادة الذي ينذر بميلاد عهد جديد، فالجزائر تموت لتبعث قوية صامدة ويوغل كاتب ياسين بجذور الجزائر إلى الماضي القديم إلى الأندلس حيث الحضارة والرقي والازدهار فها هي نجمة:"وقد تشخصت فغدة امرأة – نجمة الأندلسية– ابنة الفرنسية..."[1]، فقد انطلق من القبيلة ليصل إلى فكرة الوطن ومنها الأمة.

إنها أرض المغرب التي مزقها الاستعمار لينفرد بها إنها صورة الأرض المغتصبة عنوة يتنازع هذه الأرض النابضة الأحياء والأموات وأكثرهم قلقا هم المقتولون والضحايا فيشدونها إليهم وكأنها غطاء يلفهم ويحميهم من صقيع الغربة، أرادها ياسين أرض الأحياء، ولكنها في الواقع أرض ممزقة لا يستقر فيها إلا الذين يدفنون في جوفها وحدهم...[2]، ولذلك فهي تخطف في جبال الناظور الذي هو امتداد للأدغال، أدغال إفريقيا حيث ربط الجزائر بالعمق بالداخل "إفريقيا" الجزائر جزائرية إفريقية فيحتفظ بها الزنجي الذي يوحي إلى إفريقيا التي تحرس الجزائر...[3]

نجد بأن نجمة عكست قسنطينة التي تومؤ إلى الجزائر التي يحاول الجزائريون استعادتها والتي تمثل الروح والوحدة التي تحويهم "إن نجمة ليست الوحدة التي يمكنني أن أذوب فيها من غير أن أخشى الانحلال..."[4]، فالبحث عن نجمة كان بحثا عن الوطن لكأنهم أضاعوا ذواتهم فراحوا يتقصون أثر نجمة.

نجمة التي ستبعث من قمة الناظور قوية ساخطة تجرف القشة وتأصل للصخور، إنها نجمة ظل الكاهنة ويسري في عروقها دم بني هلال، رمز العزة والأرض الغاضبة التي يموت منها ولها شباب الجزائر الحانقة هي كل ذلك وأكثر، قصة الدم وقد ثار أريق وعفن وتألق نجما. يهيم وراء ظلها. عبثا غمر من العاشقين برز منهم أربعة جمع بينهم النسب والوله، مراد، الأخضر، رشيد ومصطفى يبحثون عنها وكأنهم يبحثون عن الذات وقد استعصت واحتجبت وراء شبح كبلوط الجد الفاتح وحال دون الوصول إليها كابوس المستمر...[5]

---

[1]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة. ص186.
[2]- نور سلمان.الأدب الجزائري بين الرفض والتحرر. ص427.
[3]- سعاد محمد خضر.الأدب الجزائري المعاصر. ص198.
[4]- نور سلمان. الأدب الجزائري بين الرفض والتحرر. ص426.
[5]- كاتب ياسين.نجمة . محمد قوبعة. صفحة الغلاف.

نجمة التي تجسد رحلة عذاب هذا الشعب، فكاتب ياسين يبحث عن الموطن "الأم" مشخصا إياه في شخص "امرأة" نجمة فتصبح رمزا للجزائر[1]، وتكون نجمة بمثابة روح البلاد التي تسري ونسيمها الذي يعبق. فهي ابنة الكل وعشيقة الكل وكما وصفها كاتب ياسين "هي روح الجزائر الممزقة من البداية، والمهددة بمختلف التوترات والتمزقات الداخلية.."[2].

نجمة ترمز إلى روح الجزائر، إلى الثورة التي احتوت زمانها الخاص على نحو من الغموض والتعقيد من الماضي والحاضر والمستقبل...[3]

فهي تمثل الأسطورة بالنسبة لرشيد أسطورة قبيلة كبلوط وتمثل بالنسبة للخضر التاريخ البطولي للجزائر وأسطورة الأمير عبد القادر.

أما عند سي مختار فهي تمثل أسطورة قسنطينة بنسائها ورجالها وعراقتها، وبالنسبة لمراد ومصطفى فتمثل أسطورة المرأة الساحرة التي تراود حلم كل رجال وتمثل كذلك هذا الخيط الذي يربط بين أبناء القبيلة الواحدة.

نجد في المقابل قسنطينة في رواية ذاكرة الجسد قد تشخّصت في هيئة امرأة جميلة اسمها أحلام والتي يناجيها خالد بطل–ذاكرة الجسد– من بداية الرواية إلى نهايتها متغزلا، عاذلا، باكيا، عاشقا لينتهيَ به المطاف مستسلما راثيا ما آلت إليه "يا مرأة كساها حنيني جنونا، وإذا بها تأخذ تدريجيا ملامح مدينة وتضاريس وطن..."[4] وقد تبدّت هذه الملامح من خلال شعرها الأسود الطويل[5] الذي يوحي بجسور قسنطينة، وجبهتها العالية علو جبال قسنطينة، وكانت التلال في الحاجبين السميكين المستديرين، أما عن عيونها الواسعة العسلية فهي حقولها القمحية ذات اللون العسلي، وتلك الابتسامة الغامضة وشفتيها المغريتين إنه ترابها الأحمر الخصب الذي يغري بالإخصاب والنّماء...[6]، وتلك السّمرة الغجرية[7]، إنها سمرة بنات البحر الأبيض المتوسط وبذلك تتوحد أحلام مع الطبيعة القسنطينية لتضم إليها كامل التراب الجزائري حيث نجد الراوي"يربط في رواية ذاكرة الجسد بين المرأة والمدينة، وبين أحلام وقسنطينة، وأحيانا يربط بين أحلام والوطن

---

[1]- حفناوي بعلي. أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية.دار الغرب للنشر والتوزيع. 2002. ص183.
[2]- المرجع نفسه. ص184.
[3]- المرجع نفسه. ص ن.
[4]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص17.
[5]- المصدرنفسه. ص60.
[6]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص63.
[7]- المصدرنفسه. ص22

(الجزائر)..." [1]، وقد كان المحلّ "غرناطة" وما حواه سببا لتذكر المرجعية قسنطينة الممثلة في أحلام بفعل التماثل "كان حبك يأتي مع العطور والأصوات والوجوه، مع سمرة الأندلسيات وشعرهن الحالك..."[2] لتتوحد قسنطينة بغرناطة ومنه المغرب بالأندلس فيوقظ ذلك الماضي التليد، ماضي قسنطينة "الجزائر" المشرق أيام انتماءها إلى الدولة الحفصية، فقد كانت الدولة الثانية بعد عاصمة الحفصيين، لذلك قال الوزان:"وكان من عادة ملوك تونس أن يعطوا قسنطينة لابنهم البكر..."[3]، هذه المدينة التي ما تزال ملامح عراقتها ومجدها أيام المغرب امتداد للأندلس "فهل يمكن أن أنساك في مدينة اسمها ..غرناطة.." [4]

وقد كان لاستحضار "أحلام" بمدينة غرناطة إشارة إلى إحدى أهم أديبات الأندلس "ولادة بيت المستكفي"[5] التي تعد عماد فن بن زيدون حيث نجد الرسالة الهزلية التي أنشأها على لسان ولادة يهجو من خلالها بن عبدوس..[6] إضافة إلى قصائده منها القصيدة القافية والتي دمج فيها بين حب ولادة وجمال الطبيعة.

أني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا...[7]

فتلتقي أحلام مع ولادة في أن كلتيهما مبدعة فالأولى كاتبة "منعطف النسيان"[8] والثانية شاعرة تقول ولادة:

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر... [9]

كما أنهما كانتا محط الاهتمام والمنافسة فالأولى كانت المنافسة بين رجلين هما خالد وزياد[10]، أما ولادة فقد "اشتهرت بأخبارها مع الوزيرين بن زيدون وبن عبدوس...". [11]

---

[1]- صالح مفقودة. المرأة في الرواية الجزائرية. ص251.
[2]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص247.
[3]- نقلا عن عبد الله حمادي. أصوات من الأدب الجزائري الحديث. ص324.
[4]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص17.
[5]- هي ولاّدة بنت محمد بن عبد الرحمان الأموي ولقبه المستكفي بالله من بيت خلافة. كان بيتها مثابة للأدباء والشعراء وتميز شعرها بالعذوبة إلا الهجاء. توفيت في قرطبة في 484هـ.
ينظر ياسر خالد سلامة. موسوعة نساء في القمة. دار صفاء للنشر والتوزيع. عمان. ط1. 2003م. 1423هـ. ص304.
[6]- محمد رضوان الداية. في الأدب الأندلسي. دار الفكر. دمشق. ط1. سبتمبر. 2000. ص350.
[7]- حنا الفاخوري. ديوان بن زيدون. دار الجيل. بيروت. ص398.
[8]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص264.
[9]- محمد رجاء حنفي عبد المتجلي.الأندلس.صفحات مشرقة. "الشاعر العاشق". مالعربي .ع الكويت. ط1. 2004. ص123.

[10]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص232.
[11]- ياسر خالد سلامة.موسوعة نساء في القمة. ص304.

كما خلدت كل من أحلام وولادة فنيا فالأولى من خلال لوحات خالد "ها هي حنين النسخة الناقصة عن قسنطينة، في لقاء ليليّ مع اللوحة الأصل"[1]، والثانية من خلال قصائد بن زيدون التي منها هذه الأبيات حيث يهدد من خلالها بن عبدوس ويتوعده ويسخر منه

أثرت هزبر الشرى إذ ربض ونبهته إذ هذا فاغتمض

ومازلت تبسط مسترسلا إليه، يد البغي لما انقبض [2]

غير أن أحلام ابنة شهيد ناضل لاسترجاع ملكه "سي الطاهر"[3] أما ولادة فهي ابنة خليفة ضعيف أضاع ملكه حيث اشتهر والدها بالتخلف والضعة والانغماس بالملذات... [4]

غير أنه إن فرقهما النسب فقد جمعهما المصير نفسه فأحلام انتهت إلى ضابط عسكري يكبرها بسنوات وجعلت ولادة من الوحدة نهاية حاسمة لقصتها.

إلا أنهما في الأخير كانتا مدينتين الأولى اسمها قسنطينة والثانية اسمها الأندلس مدينتين فتحتا بأقدام العسكر.

فمدينة قسنطينة "مدينة فتحت اليوم عنوة بأقدام العسكر، ككل مدينة عربية..."[5] وبكاها تماما كما بكى عبد الله الصغير غرناطة... [6]

فإذا كانت ولادة قد تضوّع شذاها بالأندلس لجمالها وفنها فإن أحلام قد ذاع صيتها بالجزائر لأنها سليلة المجد والتاريخ العريق الذي تعدان ثمرة من ثمار الأندلس الفردوس المفقود.

كما عكست غرناطة ذلك الماضي العريق لتاريخ الأندلس والعصر الذهبي للحضارة الإسلامية والفردوس المفقود وذلك الحلم الحضاري الذي أجهض في الأندلس، فقد كان الحلم حلما إنسانيا يراود كل المسلمين وكل شعوب البحر الأبيض المتوسط لأن فتح المغرب والأندلس حقق للالتقاء بين المشرق والمغرب من جهة والشرق العربي والغرب الأوروبي من جهة أخرى، وبين المسلمين والمسيحيين كما حققت الانفتاح على كل الحضارات.

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص336.
[2]- حنا الفاخوري. ديوان بن زيدون. ص161.
[3]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص456.
[4]- محمد رجاء حنيفي عبد المتجلي.الأندلس صفحات مشرقة. "الشاعر العاشق". ص122.
[5]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. 1993. ص436.
[6]- المصدرنفسه. ص248.

كما أشار ذلك السوار (المقياس)[1] الذي كان بمعصم أحلام على ذلك الواد الذي يحيط بقسنطينة الذي وصفه الأديب العبدري البلنسي بـ"وقد دار بها واد شديد الوعر، بعيد القعر، أحاط بها كما يحيط السوار بالمعصم...".[2]

وعلى الأرجح أنه واد الرّمال، وبذلك تلتحم أحلام بقسنطينة فتأخذ تدريجيا "ملامح قسنطينة، تلبسين تضاريسها، تسكنين كهوفها وذاكرتها ومغاراتها السرية، تزورين أولياءها، تتعطرين ببخورها، ترتدين قندورة عنابي من القطيفة...".[3]

كما عكس ذلك الثوب العنابي المصنوع من القطيفة والمطرز بخيوط الذهب أصالة وعراقة تراث قسنطينة هذا الثوب الذي توارثته قسنطينة جيل بعد آخر "ثوبك المطرز بخيوط الذهب، والمرشوش بالصكوك الذهبية، معلقة شعر كتبتها قسنطينة جيلا بعد آخر على القطيفة العنابي..."[4] ويومئ هذا الثوب المطرز بخيوط الذهب على ثراء ووجاهة القسطنينيين إذ تتصف قسنطينة بخصلتين:"هما: شجاعة الرجال ووفرة المال..."[5]، كما أن هذا الثوب يعتقد أن صناعته قد انتقلت مع العرب الفاتحين ثم شكلت الرصيد الثقافي والشخصية الحضارية لسكان هذه المنطقة.

تجلت قسنطينة أيضا في تلك الحلي التقليدية المتوارثة وأبرزها "المقياس" السوار الذي "كان إحدى الحلي القسنطينية التي تعرف من ذهبها الأصفر المضفور، ومن نقشتها المميزة..."[6]، إضافة إلى "الخلاخل" التي تعد نوعا من أنواع المقياس "تلك"الخلاخل" التي لا يخلو منها في الماضي، جهاز عروس ولا معصم امرأة من الشرق الجزائري..."[7]، وذلك الحزام الممتلئ بحبات الذهب والذي يطوق خصر أحلام التي ترمز إلى كل القسنطينات فتبدو أكثر أنوثة وإغراء "وحزام الذهب الذي يشد خصرك، لتتدفقي أنوثة وإغراء، هو مطلع دهشتي..."[8] لكأنه جسر "قنطرة الحبال" يطوق خصر قسنطينة فيبدو جسدها كهيكل قصيدة جاهلية وقد جمع ذلك البيت الذي يدعى بحسن التخلص[9] الذي

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص135.
[2]- عبد الله حمادي. أصوات من الأدب الجزائري الحديث. ص320.
[3]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص160.
[4]- المصدرنفسه. ص430.
[5]- عبد الله حمادي.أصوات من الأدب الجزائري الحديث. ص316.
[6]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص61.
[7]- المصدر نفسه. ص ن.
[8]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد.ص62.
[9]- عرفه الحموي "أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما".
يوسف حسين بكار. بناء القصيدة في النقد العربي القديم. دار الأندلس. بيروت. ط2. 1982. ص222.

يؤلف بين الأجزاء ويحدث تناغم سمفونيا متميزا من دون أن يلفت انتباهنا فيزيدها إبداعا، تماما كما يشد جسر "قنطرة الحبال" قسنطينة رابط بين أجزاءها فيزيدها فتنة حيث يحمل ذلك الجسر سر قسنطينة كما يضفي على جسدها سحرا وفتنة ومن بين تلك العادات والتقاليد التي تسم قسنطينة نجد الحناء "أكاد ألمح آثار الحناء على كعب قدميك المهيأتين للأعياد..." [1]، حيث: "يعكس استعمالها جانبا جنسيا إغرائيا يرتبط بطبيعة الأنثى وأسرارها الحميمية.."[2]، كما توحي بالثبات والأصالة، وعلى الأرجح أن اللون الأحمر يوحي إلى دماء الشهداء التي جعلت من أجسادها جسر لتمر من فوقه الجزائر فتخضب أقدامها بدمائهم الطاهرة لترسوَ على قمم الكرامة الشامخة.

كما تعد وسيلة من الوسائل الشائعة للزينة وهو ما تغنى به الشعراء وخلدها الفنون والأدباء ويظهر ذلك جليا في أغاني "المالوف" والتراث الغنائي القسنطيني.

وكانت الملاءة السوداء أهم ثوب اتصفت به القسنطينيات وهذه الملاءة التي لبستها القسنطينيات كثوب حداد على أعظم رجل من رجالها "صالح باي" "وما زالت تلبس حداده حتى اليوم مع ملاءات نساءها السوداء...دون أن تدري..." [3]، فقد توارثت القسنطينيات حداده جيلا بعد آخر، فكان أبلغ دليل على نضج الوعي الثوري لدى نساء الشرق الجزائري وجرأتهن على مواجهة الاستعمار في ذلك الزمن، ومع تلك النوعية من النساء اللائي كن على استعداد لحمل تاريخهن وأصالتهن حتى الموت، "لأن الذاكرة ثقيلة دائما، لقد لبسته"أمّا" عدة سنوات متتالية، ولم تشك من ثقله. ماتت وهو في معصمها..." [4] فقد كن متشبثات بكل ماله صلة بالوطن، عكس الجيل الجديد الذي "اختصر الأثواب العربية القديمة بأثواب عصرية من قطعة أو قطعتين، واختصر الصيغة والحلي القديمة، بحلي خفيفة تلبس وتخلع على عجل..."[5]، تلك الحلى التي يتصدرها "المقياس" السوار الذي يربطه الراوي بالأمومة، كما يعكس أصالة وتراث قسنطينة الذي لم تقدر "أحلام" الجزائر الجديدة على استيعاب معناه وفك رموزه فـ"السوار هو رمز للأصالة، وحفظ التاريخ والارتباط بالتاريخ صعب وثقيل على الجزائر المعاصرة، جزائر ما بعد الاستقلال...".[6]

---

[1]- أحلام مستغانمي.ذاكرة الجسد. ص160.

[2]- خاوة نادية. الاشتغال السيميولوجي للألوان وأبعادها الظاهراتية في "ديوان البرزخ والسكين". عبد الله حمادي. الملتقى الثالث. السيمياء والنصالأدبي.ع3 دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع. عين مليلة. 2004. ص349.

[3]- خاوة نادية. الاشتغال السيميولوجي للألوان وأبعادها الظاهراتية في "ديوان البرزخ والسكين". عبد الله حمادي.ص349.

[4]- المرجع نفسه. ص135.

[5]- خاوة نادية. الاشتغال السيميولوجي للألوان وأبعادها الظاهراتية في "ديوان البرزخ والسكين". عبد الله حمادي. ص135.

[6]- صالح مفقودة. المرأة في الرواية الجزائرية. ص315.

هذه الجزائر الجديدة التي بددت حلم الشهداء، والمجاهدين المخلصين بوقوعها في شباك الانتهازيين فـ:"هذه المرأة تحمل في ذراعها سوار، هو بطاقة هويتها..."[1] ترمز لقسنطينة العريقة التي تبنى أبوتها الشهداء فهي بنت هؤلاء الذين أريقت دماؤهم لأجل شرفها تجسدت في هيئة فتاة جعلتها الكاتبة ابنة شهيد "سي الطاهر"، التي استسلمت للانتهازيين فأحلام "هنا رمز للمدينة رمز للمرأة أيضا باعتبار هذه المرأة ابنة شهيد، وباعتبارها ثمرة الجهاد، لكن الثمرة الغالية يقطفها انتهازيون..."[2]، الذين لا يجذبهم إليها سوى استنزاف خيراتها وتجريدها من ثرواتها، فتدخل بذلك قسنطينة "الجزائر" مرحلة صعبة، قضت فيها على كل جهود شهداءها وأبطالها، فبعد أن تألقت دماءهم نجوما في سماءها وأجسادهم وشم انتصار على أرضها، غدت الدماء المراقة دماء عذراء اغتصبت، ولم تستطيع الأرض احتواء عار هزيمتها فما كان لجرائد ونشرات الأخبار الفرنسية إلا أن تتسابق بنقل صورها باهتمام لا يخلو من الشماتة...[3] اتجاه هذا الوطن الذي لم تستطع قوتها العظمى تشتيته، واستطاعت المصالح الشخصية تفتيته.

كما تجلت قسنطينة من خلال المرأة المخاطبة من طرف البطل خالد حيث تتفرد قسنطينة بنطق حرف التاء "تساء" "وكنت أنا أستعيد لهجتي القديمة معك. كنت ألفظ التاء "تساء" على الطريقة القسنطينية..."[4]، كما تفرد رجالها بمناداة نسائهم ب"يالاّ" [5] والأم بـ"أمّا"[6] و"أميمة" "كنت أناديك بحنين "يا أميمة" بذلك النداء الذي ورثته قسنطينة دون غيرها، عن أهل قريش منذ عصور." [7]. وكلمة "حبيبي" التي حمّلها القسنطينون معاني المحبة والود والثقة المطلقة حيث كان، رجال قسنطينة يطلقونها على أعزّ صديق لهم إكراما وتقديرا له...[8]، كما اتسم رجال قسنطينة بلبس ذلك الشاش والبرنس المتألق بياضًا بياضًا [9]، وكان لنسائها الطريقة نفسها في تعصيب الرأس على جنب بالمحارم الحريرية وإخفاء علبة "النفة" في صدورهن...[10]. وعلى الأرجح أن تحمل النفة هنا دلالة الأفيون وقد ارتبطت بصدور الأمهات لأن حرارة تلك الصدور تمنح أبناءها من الحب والحنان ما

---

[1]-المرجع نفسه. ص253.
[2]- المرجع نفسه. ص ن.
[3]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص464.
[4]- المصدر نفسه. ص160.
[5]- المصدر نفسه. ص161.
[6]- المصدر نفسه. ص160.
[7]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص161.
[8]- المصدر نفسه. ص ن
[9]- المصدر نفسه. ص267.
[10]- المصدر نفسه. ص105.

يرويهم حدّ الثمالة، كما يعبق منها ذلك العطر السحري عطر الأمومة. هاته الأمومة التي استبدلها خالد بأحلام التي "تناظر صورة الأم... وهي قسنطينة، وهي الأم والوطن...".[1]
والوطن...".[1]

كما جسد تطابق المدينة قسنطينة والمرأة أحلام في أكثر من لوحة، كانت أوّلها لوحة حنين:"إنها تؤمك.."[2] وآخرها كانت بعد خمسة وعشرين سنة عكس من خلالها صورة جسر "قنطرة الحبال" [3]، غير أنه هذه المرة يحمل ملامح مختلفة ودلالات جديدة، حيث كان الاختلاف بين اللوحتين يكمن في أن اللوحة الأولى عكست صورة قسنطينة التي تعبر عن الجزائر في صورة طفلة ما تزال في المهد، أما اللوحة الثانية فقد اكتملت صورة الجزائر فجاءت في هيئة فتاة مكتملة ناضجة، غير أن اللوحتان تتفقان في أن كلتيهما على أُهْبَةِ التّحول، فاللوحة الأولى تخلع ثوب الطفولة واللوحة الثانية تلبس ثوب الحداد كما جمعت "تونس وتاريخ 1957" [4] بين أحلام وقسنطينة فحملت لوحة قسنطينة "اسم حنين" والفتاة اسم "أحلام" ووقّعهما الرجل نفسه "خالد" بكل حيرة وحرقة، فالحيرة حينما تحولت تلك الطفلة إلى حبيبة [5] والحرقة حينما زفّت للانتهازيين ولم تكونا في الأخير إلا الوطن:"كيف يمكن أن تمرغي اسم والدك في مزبلة كهذه، أنت لست امرأة فقط، أنت وطن..." [6] فيربط قسنطينة بالمرأة أحلام والتي تولد بتونس التي تومئ إلى قرطاج والتي أسستها امرأة "إليسا" وقسنطينة التي أعطتنا الكاهنة، هذه المرأة الأسطورية التي تشبّعت بروح قسنطينة المناضلة، الثائرة ضد كل الغزاة فتلتحم بذلك المدينة مع المرأة هنا تلتقي "الكاهنة" مع "إليسا" من خلال المدينتين قسنطينة وقرطاج بوصفهما رمز للمقاومة؛ فمقاومة الأولى لمختلف الغزاة والأجانب، الرومان والبيزنطيون، وقبائل الفاندال القادمة من إسبانيا...[7]، والمقاومة الثانية البطولية للرومان "الحروب الفونية"[8] ودخولها ودخولها عالم المتخيل الملحمي من خلال الأساطير، وكذلك تطرح قضية التكامل بين الشرق الجزائري و"الجزائر بصفة عامة" مع العمق الجغرافي التونسي الاستراتيجي وهكذا

---

[1]- صالح مفقودة. المرأة في الرواية الجزائرية. ص251.
[2]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص188.
[3]- المصدر نفسه. ص134.
[4]- المصدر نفسه. ص73.
[5]- المصدر نفسه. ص ن.
[6]-المصدر نفسه. ص324.
[7]- حليم ميشال حداد. موسوعة قصة وتاريخ الحضارات العربية. ص112.
[8]-مرت هذه الحروب بثلاث مراحل المرحلة الأولى من 264 ق.م إلى 341 ق.م والثانية بين 218 ق.م إلى 202 ق.م والأخيرة انتهت عام 146 ق.م. راجع: عاطف عيد. موسوعة تاريخ الحضارات العربية. ص27.

يتناغم المغرب العربي الأندلسي مع نظيره المشرقي "فكل مدينة عربية اسمها قسنطينة..."[1] لأن المرجعية العربية واحدة فقد تكون بلقيس ملكة سبأ[2] يمانية من أهل مأرب اعتلت العرش بعد وفاة أبيها حكمت اليمن وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم:"إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم "[3]، أو سمير أميس التي أنشأت مدينة بابل العظيمة، وجسر الفرات وشيدت معبد بلوس، ونقشت على الآثار ما يدل على سطوتها قولها:"لقد خلعت علي الطبيعة شكل امرأة، إلا أن أعمالي قد فاقت أعمال أشجع الرجال، فحكمت إمبراطورية نبنوس التي تمتد شرقا حتى نهر هيانام وجنوبا إلى أرض العطر والمر، وشمالا إلى بلاد الشيبان والصوجديان..."[4] كما نجد الزباء أو زنوبيا التي اشتهرت بجملها وشجاعتها ودهائها وبأسها، فقد امتد حكمها من الفرات إلى البحر المتوسط بالإضافة إلى القدس وأنطاكيا ودمشق[5] هذه المرأة التي حاربت الرومان وقال عنها أورليان إمبراطور روما:"إن الذين يتكلمون باحتقار عن الحرب التي خاضها ضد امرأة يجهلون طبيعة زنوبيا وقوتها، فمحال أن يحصر استعدادها الحربي من حجارة وسهام، ومختلف أنواع الأسلحة والأدوات الحربية..."[6]، وفي الجزائر نجد جميلة بوحيرد هذه الشابة الجزائرية التي ضربت أروع مثل في التضحية والفداء من أجل الوطن المسلوب الحرية وشرف الأرض المغتصبة المهدورة الدماء، التي بقيت كلماتها محفورة في ذاكرة الجزائر:"إن الذين عذبوني هكذا لا يملكون أن يذلوا الإنسان ماديا كما فعلوا في جسدي، وروحيا لما فعلوا في نفوسهم..."[7] مخلدة بذلك أفظع صورة من صور الوحشية الاستعمارية اتجاه الشعوب المستعمرة.

فإذا كانت أحلام قد أخذت من إليسا ذكاءها ومن بلقيس سحرها وسطوتها على قلوب الرعية فإنها تحمل صلابة زنوبيا وجموح سمير أميس كما تختزن في أعماقها أحزان ولاّدة بَيْدَ أنها ورثت من جميلة بوحيرد تضحيتها وصمودها فـ:

"ما أصغر (جان دارك) فرنسا

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص174.
[2]- ياسر خالد سلامة. موسوعة نساء في القمة. ص98.
[3]-سورة النمل/الآية 23.
[4]- ياسر خالد سلامة. موسوعة نساء في القمة. ص84.
[5]- مرجع نفسه. ص85.
[6]- مرجع نفسه. ص87.

[7]- ياسر خالد سلامة.موسوعة نساء في القمة. ص243.

في جانب (جان دارك) بلادي..."[1]

إنها المرأة التي تجمع بين كل النساء، فتأخذ من كل امرأة أغلى ما فيها، لتتجلى كآلهة منحوتة من الصخر الأسمر ومن حجر الخلود والمزينة باللآلئ النفيسة، إنها المرأة المدينة، المرأة الحياة التي ما انفكت تغذي متخيل الإنسانية بكل الرموز والإيحاءات والأحلام.

تعكس رواية الزلزال- للطاهر وطار- الوجه المشوّه لقسنطينة حيث صورت الوضع المتدهور الذي انتهت إليه قسنطينة بعد حرب التحرير، وذلك من خلال الجولة التي قام بها عبد المجيد بوالارواح بطل الرواية، عرض من خلالها بؤس المجتمع الجزائري الكادح، كما استطاع أن ينقل لنا صورة شوارع وأحياء قسنطينة.[2]

هذه الأحياء الراقية التي تحولت إلى أحياء فوضوية بعد أن كانت مدينة قسنطينة "متحضرة جدا، ومليئة بالدور الجميلة والبناءات المحترمة، كالجامع الكبير والمدرستين والزوايا الثلاث أو الأربع...."[3] هذه البنايات الجميلة تحولت إلى بنايات داكنة متسخة "انتصبت أمامه عمارة داكنة، غير متميزة الطوابق، تنبث في نوافذها عقود الفلفل والخرق والأواني التي لم تعد صالحة للاستعمال..."[4]

فقد أصبحت تلك الدور الجميلة والبنايات المنتظمة مهترئة وقذرة ومثقلة بالسكان، أما عن الأزقة والشوارع التي وصفها الرحالة المصري عبد الباسط في القرن العاشر هجري بقوله:"كانت هذه الأبنية منتظمة غير متصلة بعضها البعض، كما أن أزقتها وساحاتها كانت ذات تخطيط بديع..."[5]

غير أنها تحولت إلى أزقة قذرة تتخللها المجاري والمسارب والخرق المليئة بالمياه الراكدة القذرة تنبعث منها رائحة العفونة، كما انتشرت البنايات القصديرية الفوضوية المتداخلة "على اليمين يتواصل الجزء الخلفي للشارع، مبنى طيني، مغطى بصفائح القصدير (....) الخرق والأخشاب والصفائح متداخلة، والمياه الداكنة تنساب منها..."[6]

---

[1]- نزار قباني.الأعمال الشعرية الكاملة. منشورات نزار قباني. بيروت- لبنان. ط15. 2002 .ج1. ص435.
[2]- محمد مصايف.الرواية العربية الحديثة. الدار العربية للكتاب. تونس. 1983.ص56.
[3]- عبد الله حمادي.أصوات من الأدب الجزائري الحديث.ص324.
[4]- الطاهر وطار. الزلزال. ص152.
[5]- مجاني بوبة.مدينة قسنطينة في الفترة الاسلاميةدراسة اجتماعية واقتصادية. مجلة العلوم الإنسانية.جامعة قسنطينة .ع8 1997ص64
[6]- الطاهر وطار. الزلزال. ص149.

كما عكس انتشار البصاق في الطرقات إلى التخلف الثقافي والانحدار الحضاري لدى سكان المدينة إذ ينتشر "لمعان البصاق في الشوارع والأرصفة والساحات..."[1] كما تجلت قسنطينة من خلال وصف سكانها إذ لم تعد قسنطينة حكرا على الباشاوات والآغاوات وإنما أصبحت مدينة الشعب الكادح والعمال، هؤلاء الفقراء الذين استغلتهم الطبقة البرجوازية فقد عكست شخصية بالباي أحد أصدقاء بوالارواح النهاية التي آلت إليها تلك الفئة التي كان أصحابها ينعمون في الخيرات التي يستلبونها من الفقراء والعمال الكادحين، الذين عانوا في أثناء الاستعمار غير أن أحوالهم تغيرت بعد الاستقلال وانقلبت الموازين، فغدا بالباي ذلك الأرسطقراطي الكبير "شيخا بلحية كثة... وعراقية بيضاء موسخة... وقميص ممزق مرقع على صدره،... وبلغة متهرية في قدميه... وامتلاء البطن خلفه نتوء العظام..."[2] فقد تغير بالباي في شكله وجسمه، فرجال قسنطينة خاصة منهم التجار الأصليين غادروها ولم يبق منهم إلا القليل، هذا القليل ساءت وضعيته[3] وهي إشارة واضحة إلى انتهاء عهد الطبقة البرجوازية وبداية عهد جديد للطبقة الكادحة، طبقة الشعب، فقد تلاشت تلك الطبقة وتوحد الشعب الذي ناضل من أجل جزائر واحدة وشعب موحّد، وطرد الاستعمار الذي شتت المجتمع وخلق تلك الامتيازات والفوارق بينه وبين الشعب وبين أبناء الشعب الواحد. فكانت الثورة بنوعيها قبل الاستقلال وبعد الاستقلال نتيجة لتأزم الأوضاع وتدهور حالة الشعب وخاصة أفراد الطبقة الكادحة الذين ينعتهم بالباي بـ:"الرعاة والحفاة يدخلون من الريف والقرى ليقتلوا الأسياد (...) إيه كم آغا وكم باش آغا، وكم قائدا، وكم ضابطا مات على يد راعي أغنام، أو خماس أو حطاب أو فحام أمام هذا المطعم..."[4]

فقد عكست قسنطينة تلك المرحلة الصعبة التي عاشها المجتمع الجزائري بعد الاستقلال كما صورت انتشار الفوضى والاضطراب والفقر بين أوساط الشعب بالإضافة إلى انتشار الأكواخ وتدهور مستوى المعيشة إذ نجد الفقراء يملأون الشوارع بالإضافة إلى تجمعهم حول مزبلة بولفرايس والحروب التي كانت تقوم بين البؤساء لسد جوعهم " خلق كثير من سكان الأكواخ، شيوخ وكهول أطفال، ذكور وإناث، يحومون طوال السنة

---

[1]- محمد مصايف. الرواية العربية الجزائرية الحديثة. ص81.
[2]- الطاهر وطار. الزلزال. ص24.
[3]-مصطفى فاسي. دراسات في الرواية الجزائرية. ص29.
[4]- الطاهر وطار. الزلزال. ص29.

حول مزبلة بولفرايس، يلتقطون الفضلات والمرميات العظام التي يلقيها الناس، يعيدون هناك طبخها في الماء...."[1] هذا التدافع الذي ينتهي غالبا بالاقتتال.

وتعكس هذه الصور معاناة الشعب ومدى حرمانه من أبسط الحقوق المتمثلة في "الغذاء" كما انتشرت الآفات الاجتماعية بين أوساط "الشعب" بسبب تدهور المستوى الثقافي والتعليمي فهؤلاء الأطفال أبناء الشعب مكانهم ليس الشوارع والمزابل، فقد استبدلت تلك الأيدي البريئة الأقلام والكتب بالخناجر والسواطير وانتقلت من المدرسة إلى المذبحة "صاح أحدهم، فهرول عشرات الأطفال من جميع الاتجاهات هاربين بأوان ورقاع ملأى باللحم والخناجر والسواطير في أيديهم..."[2] كما انتشر العنف والإجرام بين الأطفال "كان هناك طفل ممدد، والخنجر في بطنه، والدم يسيل..."[3] وبذلك تكشف قسنطينة عن وجهها المخيف المرعب الذي تميزت به في تلك المرحلة الحرجة التي مرت بها قسنطينة.

إنهم دون شك ضحايا هذه الطبقة وتلك المدينة المتوحشة، إنهم أبناء الشهداء جاؤا يطالبون بحقوقهم وإنصاف قضيتهم، التي طالما هُضِمَتْ من طرف هذه الطبقة التي دعمها الاستعمار هذا الوباء الذي سلبهم أرضهم، الأرض التي تمثل الشرف والكرامة مستعينا بتلك الطبقة الإقطاعية، فيأتي عبد المجيد بوالارواح ليصور احتقاره وتقززه من تلك الطبقة طبقة "الشعب"؛ العمال، الفلاحين الكادحين، وذلك من خلال تصنيف سكان قسنطينة إلى صنفين: الطبقة البرجوازية، الأسياد الذين يقطنون المدينة ويتميزون بكونهم متحضرين أثرياء وذلك من خلال تعاملهم مع الأوروبيين والتي ينتمي إليها. والصنف الآخر الممثل من خلال سكان الريف الفلاحين والعمال ويتصفون كونهم فقراء ومتخلفين وخدم لأنهم يخدمون الأوروبيين فَعُومِلُوا على أساس أنهم عبيد لهم...[4].

وتتجلى ملامح الأريسطوقراطيين من خلال شخصية بوالارواح إذ أنهم يتميزون بالبطون المنتفخة والملامح القاسية والبخل...[5]، إضافة إلى حب الذات والاستغلال البشع للطبقة الكادحة واحتقارها حيث تبدى ذلك واضحا من خلال سلوك وتصرف بوالارواح في أثناء جولته بقسنطينة فـ" الهوة الطبقية بلغت حدا لن تلتقي فيه طبقة بأخرى

---

[1]- المصدر نفسه. ص67.
[2]- المصدر نفسه. ص148.
[3]- المصدر نفسه. ص ن.
[4]- محمد مصايف. الرواية العربية الجزائرية. ص68.
[5]- مصطفى فاسي. دراسات في الروايات الجزائرية. ص37.

إلا على أنقاض الأخرى[1]، لذلك نجد بوالارواح يصطدم بواقع جديد ومدينة أخرى ترفض حلمه عكس المدينة القديمة التي كانت تسعى جاهدة لخدمته، فالواقع الجديد تجاوز حلمه لأن طبقة الشعب دفعها بؤسها دفعة قوية نحو النضال والممارسة الثورية على الصعيد الاجتماعي وبوساطة الديمقراطية الموجودة...[2]، حيث نجد بوالارواح ناقما ساخطا عليها:"لا وحّد الله لكم شملا ولا أبقى لكم سمعا، تركتم الرعي والخماسة، وأشغال الحلفة والصبار..."[3].

بوالارواح يرفض التعايش مع الواقع الجديد الذي تحكمه العدالة والمساواة، فالتعليم مجاني ولكل أفراد الشعب، كما أن العلاج أصبح بالمستشفيات التي كانت في الماضي حكرا على المعمرين وعملائهم – الإقطاعيين– صار ملكا للشعب، حتى المناصب الحكومية أصبحت في متناولهم فبعضهم تقلد رتب عسكرية والبعض نقابيين وآخرون أساتذة وأئمة وموظفون لدى الدولة...[4]، لذلك يجد بوالارواح صعوبة في التأقلم مع الوضع الجديد وموقفه "يدل على ضعف الطبقة البرجوازية – الإقطاعية– على المعايشة مع باقي الجماهير الكادحة التي بدأت تدرك معنى الحرية والحياة المتحضرة والعدالة الاجتماعية..."[5] ولذلك نجد بوالارواح ينهار أمام هذا الوضع الجديد ويرفض المساواة مع العامة "الشعب".

كما صوّرت قسنطينة الانحراف الديني وذلك من خلال انتشار البدع والخرافات كالتضرّع للأولياء وزيارة الزوايا فنجد الشيخ عبد المجيد بوالارواح يتجه إلى ضريح سيدي راشد للصلاة هذا العالم الفقيه الذي كان قد حاربها أيام كانت قسنطينة الفقهاء والعلماء قسنطينة "بن باديس"؛ "تمتم الشيخ عبد المجيد بوالارواح أمام باب قصير مطلي بالأخضر الداكن.. جئت تصلي ركعتين في ضريح سيدي راشد، ومتى كنت أُومن بالأضرحة والمقامات؟ لقد حاربتها إلى جانب الشيخ بن باديس ودعوت الناس إلى نبذها. إنها عبادة قبور، بدعة أبدعها العوام..."[6]، فقد عكس عبد المجيد بوالارواح فئة من

---

[1]- واسيني الأعرج .الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية.ص81.
[2]- المرجع نفسه. ص82
[3]- الطاهر وطار. الزلزال. ص80.
[4]- واسيني الأعرج .الطاهروطار تجربة الكتابة الواقعية. ص80
[5]- واسيني الأعرج. الطاهروطارتجربة الكتابة الواقعية.. ص83
[6]- الطاهر وطار. الزلزال. ص129.

المصلحين كانوا يتظاهرون بالإصلاح ومحاربة الخرافات إلا أنهم يحملون قناعات دينية متخلفة، وعقلية تؤمن بالخرافات...[1].

ولذا نجد بوالارواح يستنجد بالأولياء ويعدهم بتقديم "الوعدة" التي تعني القربان فيبتهل بوالارواح أمام ضريح سيدي راشد قائلا:"... وعدتك كبيرة يا سيدي راشد، شمعة، بل علبة شمع إن أوقفت هذا المشروع، وحافظت لي ولعباد الله الصالحين على أرضنا..."[2]، فبوالارواح يلجأ إلى أولياء الصالحين "سيدي راشد"، "سيدي مسيد" وغيرهم، داعيا إياهم أن يستجيبوا لدعواتهم بصفتهم أولياء لمدينة الصالحين الذين يكسبونها سمعتها ومكانتها في نفوس الناس، كما أنه لا يفرق بين الدين والخرافة...[3] مادامت تحقق مصالحه وتخدم نواياه، إذ "لفت انتباهه صورة رأس الغول على حصانه، وسيف السيد علي يشقهما ويقطعهما إلى جزءين قرن حاجبيه في استنكار، ثم انفرجت أساريره، لا تفاصيل في الدين..." [4] ، كما عكس حديث وشكوى بوالارواح إلى سيدي راشد طريقة الاعتراف في الكنيسة لدى المسيحيين..[5]، وهي إشارة إلى الرواسب والمخلفات التي خلفها الاستعمار والتي ما تزال عالقة بذهنية الشعب الجزائري بمختلف فئاته كما يذهب بوالارواح أبعد من هذا، إذ يستنجد بصاحب الدابة ويحرّضه "ابدأ يا صاحب الدابة بسكان قسنطينة الجدد، الذين يثقلون كاهل صخرتها، ويتسببون في زلزالها، ابدأ بكل صاحب بدعة يا صاحب الدابة..."[6].

يستغيث بوالارواح بصاحب الدابة للقضاء على سكان قسنطينة الجدد الذين يمثلون الطبقة الفقيرة حيث يُكِنُّ لهم الحقد والاحتقار كما يقصد بالبدعة كلمة الاشتراكية التي تعد في نظره أنها "مشروع إلحادي خطير..."[7] لذلك يفضل أصحاب البدع والخرافات والطرقية[8] لأنهم في نظره أفضل من الذين يحاولون التسوية بينه وبين العامة" الشعب" الشعب" وذلك بانتزاع أراضيه وتوزيعها عليهم[9]، كما نجد انتشار التدجيل والشعوذة

---

[1]- محمد مصايف. الرواية العربية الجزائرية. ص62.
[2]- الطاهر وطار. الزلزال. ص133.
[3]- مصطفى فاسي. دراسات في الروايات الجزائرية. ص33.
[4]- الطاهر وطار.الزلزال. ص131.
[5]- مصطفى فاسي.دراسات في الرواية الجزائرية. ص33.
[6]- الطاهر وطار .الزلزال. ص52.
[7]- المصدر نفسه. ص31.
[8]- المصدر نفسه. ص65.
[9]- محمد مصايف.الرواية العربية الجزائرية. ص63.

وذلك من خلال وصف بوالارواح لكتبة الحروز وضَارِبُو خط الرمل[1] وقارئوا الطالع، حيث نقل بوالارواح حوار إحدى العجائز مع الطالب الذي يقصد به كاتب الحروز.

"وحيدي يا سيدي الطالب، قرّة عيني... سجل نفسه للذهاب إلى فرنسا... أكتب له حجابا يمنعه من السفر يا سيدي الطالب..."[2]، وهذا ما يحيلنا على وصف الورتلاني لبعض المظاهر السلبية في هذه المدينة إذ يصفها بأنها مدينة يقل فيها الحلال ويكثر فيها الحرام والمتشابه وينتشر فيها الكثير من الدراويش ورجال الغيب.[3]

كما انتشرت الفحشاء وبرزت ظاهرة دخيلة على المجتمع القسنطيني الذي عرف بشهامة رجاله وعفة نساءه، هي ظاهرة التسول بالأعراض، وتردي القيم الأخلاقية والدينية "أنا عاطل عن الشغل، وفي حاجة إلى نصف لتر من الزيت، هيا تشرب قهوة في منزلي ستفرح بناتي وزوجتي وأختها، بناتي واحدة في العشرين والأخرى في التاسعة عشر أما أخت زوجتي ففي الثانية والعشرين..."[4]. تلك صورة من صور الحسرة التي ميزت مرحلة مرحلة الاستقلال، وعكست المعاناة التي تعاني منها هذه الطبقة"الشعب" التي تكمن في الفقر المادي والتخلف الثقافي وغياب الوعي الديني.[5]

وعلى الأرجح أن عائشة زوجة بوالارواح ترمز للأرض المغتصبة التي خانها كما خانها والده من قبل وذلك بتسليمها للاستعمار فـ:"علاقته مع الأرض تتشابه مع علاقته التسلطية– الاستغلالية للمرأة، ومع "ممارساته الجنسية" المريضة، الإشكالية، الملتبسة".[6] الملتبسة".[6]

عكست مدينة قسنطينة ذلك الصراع القائم بين أصحاب المجتمع الواحد، الطبقة الغنية أصحاب التجارة والأموال والأراضي "الطبقة البرجوازية" مقابل الطبقة الفقيرة المحرومة طبقة الفلاحين والعمال والخماسين، طبقة "الشعب".

كما صورت معاناة "الشعب" وبؤسه، هذا الشعب الذي لم يدّخر جهدا لتحرير أرضه من قيود الاستعمار حتى يقع في أغلال مخلّفاته الطبقة البرجوازية غير أنه في النهاية يكسر أغلاله ويستعيد مدينته.

---

[1]- الطاهر وطار.الزلزال. ص138.
[2]- المصدر نفسه. ص138.
[3]- عبد الله حمادي. أصوات من الأدب الجزائري الحديث. ص325.
[4]- الطاهر وطار .الزلزال. ص54.
[5]- إبراهيم عباس. الرواية المغاربية. ص14
[6]عمار بلحسن .صراع الخطابات حول القصوالإيديولوجية في رواية الزلزال للطاهر وطار. م فصول. ع01-02. 1989. ص136.

المبحث الثاني: السيرة الذاتية بين الأسطورة والرمز:

لقد كان لحضور السيرة الذاتية طابعه المميز الذي طبع أحداث الروايات الثلاث، حيث تركت بصماتها واضحة ساهمت في بلورة وعي الشخصيات ورسم مسارها كما استطاعت أن تنقل لنا آراء وأفكار الروائيين الثلاث.

فكانت " نجمة" صوت كاتب ياسين وألمه في فترة الاحتلال التي كتبها من وراء القضبان، ومن تحت التعذيب، فجاءت نابضة بالحرية والعنفوان يملأها الحب، حب " نجمة " التي : " تمثل الجزائر الوطن والأرض، والجزائر الغاضبة، والجزائر غير الموحدة، ويتكرر حضور نجمة في أعمال "كاتب ياسين" حاملة شهادة شعب بأكمله"[1].

كما عكست شخصيات " نجمة" جوانب مهمة من حياة كاتب ياسين، حيث عاشت هذه الشخصيات ماضيه وتجاربه، وذلك من خلال إيراده لأسطورة أجداده " كبلوط" وذكره لتاريخ الجزائر القديم وتاريخ الاحتلال الفرنسي الذي عاشه بكل مآسيه خاصة مجازر الثامن ماي 1945، حيث :" تهيمن على الموقف بأكمله قصة رمزية تحكي البحث عن وطن، تسير موازية لقصة حب فيها عدة عناصر، من سيرة الكاتب الذاتية..." [2]. فكان الرفاق الأربعة "رشيد، الأخضر، مصطفى، مراد" خير ممثل لسيرة ذاتية جمعية عكس من خلالها كل بطل من الأبطال الأربعة ملمحا من ملامح كاتب ياسين.

فقد صور رشيد جانبا من جوانب الثقافة الشعبية والروح الأسطورية والتاريخية التي تحلى بها كاتب ياسين، وذلك من خلال سرده لأسطورة أجداده " كبلوط" التي: " ولدت بريشة كاتب ياسين قصة تخيلها هو جزئيا، وأخذها في الأساس من خرافات الأجداد، قصة الجد الأكبر "كبلوت"[3]. هذه القبيلة العريقة التي قدمت إلى الجزائر في عهود غابرة من مكان ما من الشرق الأوسط واستقرت في الناظور، بالقرب من قسنطينة. وقد كانت هذه القبيلة قوية خاضعة لزعيمها كبلوط، ولم ترضخ هذه القبيلة للغزاة إلى أن جاء الفرنسيون واستأصلوا القبيلة".[4]

كما حمّل الكاتب بطله رشيد حبه وهيامه لمدينة قسنطينة، هذه المدينة الضاربة في التاريخ "سيرتا" العريقة التي تعاقبت عليها مختلف الحضارات منها " الرومان"، الأتراك،

---

[1]- نور سلمان.الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر. ص426.
[2]-عايدة أديب بامية. تطور الأدب القصصي الجزائري. ت: محمد صقر. ص83.
[3]-حفناوي بعلي. أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية. ص185.
[4]- كاتب ياسين.نجمة. ت: محمد قوبعة. ص130-131.

العرب..، وهي أيضا مدينة الطفولة، فقد ولد كاتب ياسين بقسنطينة.[1] بالإضافة إلى المدينة الثانية التي ترعرع بها وهي مدينة " عنابة"، تلك المدينة النائمة بين أحضان البحر الأبيض المتوسط، يقول رشيد: " لقد سكنت المنطقتين على التوالي، سكنت الصخرة فالسهل، حيث عرفت سيرتا وهيبونة العظمة ثم الانحطاط...". [2]

فقد اشتغل كاتب ياسين عاملا بالموانئ وبالزراعة[3]، لذلك عاش متنقلا بين سهول قسنطينة وموانئ عنابة، كما عبّر رشيد عن انتشار الفقر والجوع في أوساط الشعب الجزائري في أثناء الاحتلال، إضافة إلى انسداد الآفاق أمام الشباب الجزائري الذي وجد نفسه ممزقا بين الشرق "الجزائر" والغرب "فرنسا"، لذلك نجد كاتب ياسين يعود إلى الأصل والمنابع إلى أجداده وماضي الجزائر لبعث هذا الوطن الممزق الذي يسعى الاستعمار إلى تزييف تاريخه، يقول كاتب ياسين: "إنني عندما أجلس في مكتبي، أبحث عن نفسي أبحث عن الجزائر الضائعة"[4]. وذلك من خلال عرض تاريخ نوميديا القديم، فهي إشارة من الكاتب على لسان بطله رشيد أنه مثلما حارب النوميديون الرومان والأتراك سينتصر الجزائريون على الفرنسيين لأنهم غزاة مثلهم، فهو يسترجع الماضي لمقاومة الحاضر وكشف زيفه، فمدينة قسنطينة " سيرتا" وعنابة "هيبونة" كغيرها من: "المدن التي عرفت الكثير من الحصار وذاقت ويلاته، تفقد طعم النوم، تنتظر الهزيمة دوما، فلن يفاجئها الغزو ولن تهزم..." [5]. إنها ما تزال صامدة تتوعد الغزاة الفرنسيين.

كما غاص رشيد في ذاكرة الكاتب واستطاع أن يلقي الأضواء على طفولته، حيث تحدث كاتب ياسين عن التحاقه بالمدرسة القرآنية إرضاء لوالده، يقول رشيد: " حدث ذلك فترة دخولي المدرسة القرآنية، وقد فعلت ذلك إرضاء لخاطر أمي"[6]. والدته التي كانت تتقن اللغة العربية فقد: " كان والدها رجل أدب، موهوبا...علمها اللغة العربية.." [7]. أما كاتب ياسين الذي زاول دراسته في بادئ الأمر بالمدرسة القرآنية بتوجيه من والده في " كتاب القرية ليتعلم العربية ويحفظ القرآن الكريم، ولكنه ما لبث أن نقله إلى المدرسة الفرنسية...". [8]

1- http. thawra.alwehda.gov.sy.archive.asp
2- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة .ص182.
3- حفناوي بعلي.أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية. ص187.
4- عايدة أديب بامية. تطور الأدب القصصي الجزائري. ص74.
5- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة.ص181.
6- المصدر نفسه. ص113.
7- حفناوي بعلي.أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية.ص273.
8- المرجع نفسه. ص273.

ويعد جيل كاتب ياسين أول جيل تلقى تعليمه باللغة الفرنسية[1]، غير أنه لم يمكث بالمعهد طويلا، إذ سرعان ما تركه إثر مشاركته في مظاهرات الثامن ماي 1945. وقد عكس كلا من الأخضر ومصطفى مقتطفات من طفولة كاتب ياسين الخاصة بحياته داخل المدرسة الفرنسية، وذلك من خلال تسليطه الضوء على القاعة والتلاميذ وبعض الأساتذة الفرنسيين الذين كانوا يدرسونه. كما عرض الكاتب طريقة معاملة الفرنسيين للتلاميذ الجزائريين واستهانتهم بمعتقداتهم. يقول كاتب ياسين موجها خطابه إلى كل الفرنسيين على لسان بطله مصطفى: " أستاذي العزيز، لن أسلم ورقة امتحاني...فاليوم يوم المولد النبوي...إن أعيادنا غير مسجلة في تقاويمكم، لقد أحسن الرفاق صنعا إذ لم يأتوا...". [2]

وكان لمظاهرات الثامن ماي 1945 أثرا بالغا في نفسية وحياة كاتب ياسين، فكان تأثيرها جليا من خلال مشاركة كل من الأخضر ومصطفى في المظاهرات ودخولهما السجن، إذ يسرد أحداث تلك المظاهرات وتجربة دخوله السجن من خلال الأخضر ومصطفى، يقول كاتب ياسين:" وحفر الأخضر بسكينه على المقاعد وعلى الأبواب: استقلال الجزائر، غادر الأخضر ومصطفى نادي الشباب بحثا عن اللافتات، كان الفلاحون على أتم الاستعداد للمسيرة"[3]. حيث يصف بداية المظاهرات التي كان يفترض أن تكون سلمية لولا تدخل أحد المعمرين " فأطلق النار على العلم...فانهال الرصاص واضطرب قادة المسيرة...". [4]

فكانت هذه المظاهرات بمثابة تيار الوعي وبداية النضج الثوري والفني بالنسبة لكاتب ياسين، فكان يشارك في المظاهرات وهو في سن الخامسة عشر، ويحكي كاتب ياسين عن ماضيه، يقول: "كنت أخرج مع المتظاهرين أطالب بالحرية معهم في شوارع سطيف بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ! لقد قتلت فرنسا العشرات من إخواني الجزائريين أمامي... لقد شرخت كل أعماقي..." [5]. فتبقى فضاعة ذلك اليوم راسخة بذاكرة كاتب ياسين الذي نقل وحشية تلك الجرائم من خلال ذكريات مصطفى:

---

[1]- عايدة أديب بامية. تطور الأدب القصصي الجزائري. ص59.
[2]- كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة .ص232.
[3]- المصدر نفسه. ص238.
[4]- المصدر نفسه. ص239.
[5]- www.azzaman.com.azz.articles.2004.07.07 .سيار الجميل. الجزائر لم يستكمل قدومها في العالم. نسوة ورجال. ص13.

" مات من عائلتي – منذ يوم 8 ماي 1945– أربعة عشر شخصا، فضلا عن الذين أعدموا رميا بالرصاص...".[1]

كما أن وجود كاتب ياسين بجانب إخوانه الجزائريين المناضلين بالسجن قد ساهم كثيرا في شحنه بالروح الوطنية، ويعلق كاتب ياسين على هذا:" دخلت السجن وخرجت منه فعرفت كيف أناضل وأثور ضد الأعداء...صرت أكثر قربا من شعبي لأنني عرفت التعذيب لأول مرة وأنا وحيد في الزنزانة السوداء...".[2]

وقد كانت هذه الفترة أصعب فترة من حياة كاتب ياسين، حيث " جنت والدته نتيجة اعتقادها أن ابنها قتل أثناء مظاهرات سطيف..." [3]. ويبدو ألم كاتب ياسين وحزنه العميق أكثر وضوحا حينما يصف مصطفى مأساته بعد الثامن ماي 1945 وشقاءه بين أم مجنونة ووالد مريض وأختيه الصغيرتين اللتين لخصتا مأساته في أغنية هي للرثاء أكثر منها للطرب:

" أخي في السجن
وأمي عقلها جنّ
وأبي على الفراش يئن...". [4]

عكس مصطفى مأساة كاتب ياسين وعذابه خاصة بعد زواج ابنة عمه التي هام بها حبا منذ طفولته التي ضمنها طفولة بطله مراد، حيث نشأ مراد مع نجمة التي هي في الحقيقة " زليخة" واسم نجمة: " هو رمز لابنة العم التي كنت متعلقا بها إلى حد الجنون! لم يكن اسمها نجمة، كان اسمها زليخة، وكانت متزوجة وتكبره بعشر سنوات..." [5]. لذلك لذلك جعل كاتب ياسين من نجمة امرأة متزوجة من كمال، وعلى الأرجح أن يكون عدم فوز أي من الأصدقاء الأربعة " بنجمة" ليس إلا تعبيرا عن حالته هو الذي لم يظفر بـ " نجمته" التي بقيت دوما بعيدة المنال، وكان لطفولة مراد مع ابنة خاله " نجمة"[6] بعضا من التشابه مع طفولة كاتب ياسين مع ابنة عمه التي هيمنت على مختلف كتاباته. وهكذا اجتمعت له ثلاث مقومات تناغمت فيما بينها لتنتج أديبا ومناضلا، بقول كاتب ياسين:"

---

[1] - كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة.ص86.
[2] - www.azzaman.com.azz.articles.2004.07.07 .سيار الجميل. الجزائر لم يستكمل قدومها في العالم. نسوة ورجال. ص ن.
[3] - عايدة أديب بامية. تطور الأدب القصصي الجزائري. ص146.
[4] - كاتب ياسين. نجمة. ص250.
[5] - www.azzaman.com.azz.articles.2004.07.07 .سيارالجميل.الجزائر لم يستكمل قدومها في العالم.ص13.
[6] - كاتب ياسين. نجمة. ت: محمد قوبعة.ص80.

لقد تمرست في كتابة الخواطر والشعر..لقد عبّرت عن كل ما في دواخلي من الوحشة والاغتراب !...". [1]

ولذلك نجد بأن " نجمة" هي الموضوع الوحيد التي يشغل فكر الأبطال الأربعة، كما يسعى الجميع للحصول عليها، ويبدو أن نجمة هي فكر كاتب ياسين وماضيه، كما أنها الأم والوطن، لذلك نجد الكاتب يصرح حول نجمة:" أليست هي الجزائر أيضا...إن حب الوالدة يعادل في عمقه حب الوطن...". [2]

نجد بأن الأبطال الأربعة قد استطاع كل واحد منهم أن يضيء جانبا من جوانب حياة كاتب ياسين سواء طفولته أو ثقافته الأسطورية أو التاريخية وجانبه النضالي، غير أنهم توحدوا جميعا في تجسيد حبه لنجمة التي تمثل ماضيه وحاضره، ثقافته ونضاله، تاريخه ومدينته، كانت الوطن الذي أنشأه أديبا ومناضلا.

في المقابل نجد أن الطاهر وطار قد اختار بطلا مناقضا لأفكاره، فقد جسد بو الأرواح النقيض بالنسبة للطاهر وطار، ويبدو أنه يرمي إلى التعبير عن أفكاره، وذلك من خلال عرض أفكار نقيضه بو الأرواح الذي عاش حياة الكاتب غير أن المواقف تختلف، فقد جعل الكاتب من بطله يسلك المسار نفسه الذي سلكه.

فالكاتب حفظ القرآن الكريم في طفولته، ثم التحق بمعهد عبد الحميد بن باديس، ثم سافر إلى جامع الزيتونة بتونس[3]، كما نجد أن بو الأرواح أيضا يخطو الخطوات نفسها، يقول بو الأرواح: "قرأنا العلم الشريف، وجالسنا العلماء، وكافحنا مع الشيخ ابن باديس...وتفقهنا في المذاهب الأربعة..." [4]. واختلفت العودة من تونس، فكانت عودة عودة الطاهر وطار ليلتحق بصفوف جيش التحرير[5]. حيث استعان بعلمه وتفقهه في الدين لخدمة الوطن ونصرة قضيته.

كما عكست تضامنه والتحامه مع الشعب، وهذا ما يخالفه فيه بطله بو الأرواح الذي يستغل الدين والعلم لخدمة مصالحه والسيطرة على فئة الشعب، يقول والد بو الأرواح: "إن عدت بعلم يجهله بنو قومك، ويخضعون له، ويحتاج إليه الفرنسيون، للتحكم أكثر، يكن لك شأن ولي شأن..."[6]. ويبدو الاختلاف صارخا فالكاتب سليل أسرة مناضلة

---

[1] -www.azzaman.com.azz.articles.2004.07.07 سيار الجميل.الجزائر لم يستكمل قدومها في العالم. ص13.
[2] - عايدة أديب بامية. تطور الأدب القصصي الجزائري. ت: محمد صقر. ص147.
[3] - http .ar.wikipedia.org.wiki
[4] - الطاهر وطار.الزلزال. ص13.
[5] - http .ar.wikipedia.org.wik
[6] - الطاهر وطار.الزلزال.ص173.

مناضلة أورثته العلم والنضال، فقد كان :" الجد أمي لكن له حضور اجتماعي قوي ...هو كبير العرش الذي يحتكم عنده، وهو المعارض الدائم للمثلي السلطة الفرنسية،

وهو الذي فتح كتابا لتعليم القرآن المجيد بالمجان..." [1]، غير أن بطله متحدر من سلالة خائنة أورثته الخيانة والاستبداد، ويبدو ذلك جليا من خلال قول والده السابق.

ولذلك نجد الكاتب يعرّي بطله ويكشف مخططات وأهداف هذه الشخصية التي تتخذ من الدين والعلم قناعا تخفي خلفه " صورة ظاهرها الدين والتقوى وباطنها الخبث والخداع، وحينئذ لا يصبح الدين سوى حجة يستند إليها في الحاضر لتبرير الماضي، ويسترجع الماضي لتكريس الحاضر..." . [2]

وحتى في العودة إلى الماضي نجد أن بو الأرواح ساخطا ناقما على تردي الأوضاع وتدهورها وانقلاب المدينة رأسا على عقب[3]. عكس الطاهر وطار الذي يسترجع الماضي بحميمية حيث " إننا نشعر أن الكاتب من خلال تصويره للمكان في هذه المدينة يراجع ماضيه، لعله الحنين إلى الطفولة أو إلى عهد الشباب..." . [4]

وهذا ما نلمسه من موقف بطله المناهض الناقم على هذه المدينة. كما نلمح من خلال الأحاديث التي تنقل إلى بو الأرواح من خلال تجوله بالمدينة تعاطف الكاتب مع فئة الشعب وانتمائه إلى هذه الطبقة، بحيث نجده يكشف معاناتها وبؤسها في ظل سيطرة واستبداد الطبقة الإقطاعية التي يمثلها بطله، وهكذا يضعنا الكاتب منذ البداية أمام تيارين التيار الاشتراكي الذي يمثله الكاتب والذي هو في مرحلة المخاض والتيار المعاكس التيار الإقطاعي الذي هو في طور الاحتضار. فقد عكس الكاتب التيار المتفتح الذي يهدف إلى خدمة الشعب ومحاربة الفوارق الطبقية، في حين مثّل بطله الجانب الإقطاعي الذي يميز بين الطبقة البرجوازية المالكة والطبقة المحكومة طبقة الفلاحين والعمال والكادحين، هذا التيار المتزمت الذي يعتمد على الدين لتبرير استبداده للحفاظ على ممتلكاته التي نهبها من الشعب.

ويبدو أن بو الأرواح ضد هذه الطبقة " الشعب" ومعارض لتيار الاشتراكية فـ:" موقف بو الأرواح من الاشتراكية واضح، فهو نابع أولا من طبقيته، فهذه التي تسمى " الثورة الزراعية" ما جاءت إلا لكي تأخذ منه أملاكه..." [5]. ويسمي الحكومة التي تتبنى

---

[1]- المصدر نفسه. ص13.
[2]- مخلوف عامر.توظيف التراث في الرواية الجزائرية. ص95.
[3]- الطاهر وطار.الزلزال. ص12.
[4]- مصطفى فاسي. دراسات في الرواية الجزائرية. ص45.
[5]- مصطفى فاسي. دراسات في الرواية الجزائرية. ص34.

الاشتراكية بـ " حكومة الكفار الملحدين..." [1]. في المقابل نلمس تحمس الكاتب لهذا المشروع " الثورة الزراعية" وتبنيه لأفكار الاشتراكية وإيمانه بمبادئها.

وعلى الأرجح أن تكون رواية الزلزال بمثابة وثيقة ولاء ومساندة لتيار الاشتراكية، ودليل إدانة وسخط على النظام الإقطاعي، حيث تبتدئ الرواية بتيه البطل وتنتهي بانهياره، فقد شكل الكاتب الجانب الإيجابي المرغوب على مسار أحداث الرواية والحلم المنشود لدى الجماهير.

نجد أن بطله يعكس الجانب السلبي المنبوذ على مجريات أحداث الرواية وعلى مساحة الواقع المعيش في تلك الفترة.

وقد استطاع الكاتب أن يعبر من خلال نقيضه عن مأساة طبقة بأسرها، كما حملت أفكاره بذور التغيير الذي تطمح إليه هذه الطبقة وتسعى إلى تطبيقه الحكومة. كما نقل موقف الإقطاع من ذلك كله عن طريق عرض لأفكار وأحاسيس بو الأرواح عبر مسار الأحداث الروائية. فكان الزلزال على ما يبدو زلزلة لتلك الأفكار العتيقة التي كانت مهيمنة في تلك الفترة. غير أن بو الأرواح على ما يبدو أنه في بعض المواقف نجده ينفلت من قبضة الكاتب ليعكس هو الآخر سخط نقيضه الطاهر وطار على تلك الطبقة والمبالغة في تشويه صورتها والميل كل الميل للاشتراكية مع المبالغة في الإشادة بمشروعها، حيث أنه: " ترك النهاية مفتوحة على عدة تفسيرات ولكنها كلها تصب في معين واحد، هو سقوط الإقطاع..." [2].

وفي الأخير نجد أن الطاهر وطار قد عالج من خلال عرض أفكار وتصرفات نقيضه مشاكل الشعب ووضعهم المعيشي القاسي في ظل السيطرة الإقطاعية.

أمّا في رواية «ذاكرة الجسد» نجد أن الكاتبة تدمج وبطريقة شيقة سيرتها الذاتية مع الخيال حيث أنـها تستعين بذكريات والدها المناضل الذي «طبع حياتها بشخصيته الفذة وتاريخه النضالي ..... ».[3]

فكانت رواية «ذاكرة الجسد» ذاكرة أحلام الكاتبة المستوحاة من ذكريات والدها المناضل الذي كانت بصماته واضحة من خلال شخصيتي ‹خالد› و‹سي الطاهر›، وكان الجسد جسد الجزائر الوطن الجريح.

---

[1]- الطاهر وطار.الزلزال. ص26.

[2]- واسيني الأعرج. الطاهر وطارتجربة الكتابة الواقعية. ص96.

[3]- مراد مستغانمي. أحلام مستغانمي ...سيرة حياة . مجلة الاختلاف .ع3. ماي 2003 .ص 22.

فقد تقاطعت بعض من ملامح حياة والد الكاتبة مع حياة ‹سي الطاهر› الذي عكس شخصية القائد البطل الوفي لمبادئ الثورة والمخلص لوطنه، لذا تشابهت تجربة ‹ سي الطاهر› مع والد الكاتبة فقد «عرف هذا الأب السجون الفرنسية بسبب مشاركته في مظاهرات 8 ماي 1945. وبعد أن أطلق سراحه ...أصبح ملاحقا من قبل الشرطة الفرنسية بسب نشاطه السياسي...»[1]، كما خبر ‹سي الطاهر› أيضا السجون الفرنسية مما أدى به «ليهرّب ...أسرته الصغيرة عندما أبعدته فرنسا عن الجزائر في الخمسينات، بعد عدة أشهر من السجن قضاها بتهمة التحريض السياسي...»[2]، وكانت قبلتهما تونس فبعد «أشهر قليلة، يتوجه محمد الشريف مع أمه وزوجته وأحزانه إلى تونس...»[3]، ليتوج هذا الانتقال بميلاد أحلام الكاتبة، ففي خضم تلك «الظروف التي كانت تحمل مخاض الثورة، وإرهاصاتها الأولى تولد أحلام في تونس...».[4]

وبذلك يتقاطع ميلاد الكاتبة مع ميلاد بطلة الرواية فكلاهما ولدتا بتوقيت الثورة.

و تومىء أحلام البطلة إلى جانب من حياة أحلام الكاتبة بدءا بالاسم، فالاسم واحد هو ‹أحلام›، فكانت أحلام الكاتبة حلم ذلك المناضل الذي «أدهش مرة إحدى الصحفيات عندما سألته عن مسيرته النضالية، فأجابها مستخفا بعمر قضاه بين المعتقلات والمصحات والمنافي، قائلا: إن كنت جئت إلى العالم فقط لأنجب أحلام فهذا يكفيني فخرا إنها أهم إنجازاتي أريد أن يقال إنني "أبو أحلام" أن أنسب إليها ...كما تنسب لي...»[5]، بينما كانت أحلام البطلة أحلام الشهداء، وأحلام كل الذين ناضلوا في تلك الفترة، هي حلم الحرية والاستقلال حيث تومئ الكاتبة إلى حرص هؤلاء المناضلين على تحقيق حلمهم ورغبتهم في تأصيله على أرض الواقع. " أكان يتشاءم من وضعك القانوني هذا، ويريد أن يسجل أحلامه في دار البلدية، ليتأكد من أنها تحولت إلى حقيقة...وأن القدر لن يعود ليأخذها منه ..."[6]، كما عكست أحلام البطلة مسار أحلام الكاتبة التي أكملت دراستها بباريس ،وهي كاتبة تتقن اللغة العربية لتحقيق بذلك حلم والدها الذي بذل " كل ما بوسعه ...لتتعلم ابنته اللغة العربية التي منع من تعلمها...".[7]

---

[1]- مرجع نفسه. ص22.
[2]- أحلام مستغانمي . ذاكرة الجسد. ص64
[3]- مراد مستغانمي. أحلام مستغانمي.سيرة حياة . ص 22.
[4]- المرجع نفسه. ص22.
[5]- المرجع نفسه. ص21
[6]- ذاكرة الجسد. أحلام مستغانمي. ص44.
[7]- مراد مستغانمي. أحلام مستغانمي...سيرة حياة. ص22

وقد عبرّت الكاتبة عن ذلك من خلال قولها:" إنه لم يتوقع أيضا لك مستقبلا كهذا، لقد ذهبت أبعد من أحلامه، إنك الوريثة لكل طموحاته ومبادئه. كان رجلا يقدس العلم والمعرفة ويعشق العربية... "[1]، وعلى الأرجح أن تكون الكاتبة قد ألحقت هذا البوح المملوء بالفخر والامتلاء لتعبر من خلالهما عن ثقافتها، فالكاتبة تُعدّ من " أول دفعة معرّبة تتخرج بعد الاستقلال من جامعات الجزائر"[2]، كما أنها قد اختارت اللغة العربية لكتابة رائعتها وذلك لتثأر لوالدها الذي بقي وفيا لوطنه وذاكرته النضالية.

« وبذلك يتبين أن أحلام في الرواية هي أحلام مستغانمي في كثير من الأوجه ومع ذلك فإنه لا يمكن اعتبار الرواية سيرة ذاتية....»[3]، كما كان لحضور مدينة قسنطينة بتاريخها وأساطيرها الشعبية داخل المتن الروائي ليس إلا لإرضاء ومحاولة إشفاء غليل ذاكرة والدها وتعبيرا عن مدى ولعه بها، فهذه المدينة التي طالما غذت فضول الكاتبة وذلك من خلال تلك القصص التي كان يرويها لها والدها عن هذه المدينة فقد « كانت له القدرة على سرد الكثير من القصص عن المدينة الأصلية أي مسقط رأسه ‹قسنطينة› مع إدماج عنصر الوطنية وتاريخ الجزائر في كل حوار يخوضه، وذلك بفصاحة فرنسية وخطابة نادرة...». [4]

ومن بين هاته القصص قصة اسمهم التي وردت على لسان ‹خالد› والتي يبدو أنها تروي قصة أحد أجداد الكاتبة يقول ‹خالد› : «عندما أتذكر فجأة، تلك القصة التي نسيتها تماما...قصة جدّك البعيد الذي رمى بنفسه من جسر...بعدما توعده أحد البايات بالقتل...عندما جاءه خبر خيانته وتآمره عليه مع بعض وجهاء قسنطينة للإطاحة به. هو الذي كان مبعوثه ورسوله الخاص ...ورجل ثقته. كان جدي يومها أضعف من أن يقف بمفرده في وجه ذلك الأمر القاطع بالقتل.

وكان أيضا أكبر من أن يقاد ليقف بين يدي ذلك الباي ذليلا...، ولذا عندما أرسل الباي من يحضره إليه ...كان جدي جثة في هوة سحيقة...سمعت هذه القصة مرّة واحدة من فم أبي يوم سألته عن سر هذا الاسم...»[5]، وتواصل الكاتبة على لسان بطلها سرد سبب حملهم لهذا الاسم، فقد« كان الانتحار في حد ذاته عارا وكفرا...ولهذا هاجرت

---

[1]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص123.
[2]-مراد مستغانمي. أحلام مستغانمي... سيرة حياة .ص23
[3]- صالح مفقودة .المرأة في الرواية الجزائرية . ص251.
[4]-مراد مستغانمي. أحلام مستغانمي ...سيرة حياة . ص22
[5]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد .ص346.

عائلتنا بعد ذلك إلى غرب الجزائر مستبدلة باسم نكرة اسمها الأول، ولم تعد إلا بعد جيل أو أكثر باسم لمدينة أخرى...».[1]

وعلى الأرجح أن يكون هذا الاسم ‹مستغانمي›.

كما صور ‹خالد› البعد الأسطوري لثقافة والد الكاتبة وذلك من خلال تعرضه لأساطير والحكايا الشعبية التي تنفرد بها هذه المدينة والتي نجد منها أسطورة « سيدي محمد الغراب»[2] وأسطورة «صالح باي»[3]، كما نقل بعض الطقوس التي كانت تمارس بمزارات قسنطينة[4]، كما استطاع أن يسبر أغور الحضرة وينقل لنا أجواءها وذلك من خلال طقوس العيساوه .[5]

ومن خلال ما سبق ذكره نلمس مدي ثراء وعمق ثقافة والدها إضافة إلى حنينه وشوقه لمدينته لذلك نجده يسترسل بالحديث عن حكايا باياتها وجسورها كاشفا عاداتها وتقاليدها وكل طقوسها، كما استطاع ‹خالد› أن ينقل لنا تاريخ والدها النضالي وأن يكشف لنا ما أفرزته الثورة وما حمله الاستقلال.

ويمكن الاهتداء إلى جوانب من مسيرة والد أحلام الكاتبة النضالية حيث تتقاطع المحاور الكبرى لمسيرتها النضالية ولتاريخهما البطولي التي طبعتها أحداث تاريخية أهمها الثامن ماي 1945، وذلك من خلال مشاركتهما في هذه المظاهرات، يقول ‹خالد›: « اليوم...عندما أذكر تلك التجربة، تبدولي لكثافتها ودهشتها، وكأنها أطول مما كانت رغم أنها لم تدم بالنسبة لي سوى ستة أشهر فقط...».[6]

واستطاع ‹خالد› أن يجسد مأساة والدها بعد الاستقلال فقد انهارت أحلامه ببناء جزائر مستقلة وتعميرها بعد أن سقطت بأيدي الانتهازيين والوصوليين الذين احتكروا خيرات الوطن يقول ‹خالد› :«هاهم هنا...كانوا هنا جميعهم...كالعادة، أصحاب البطون المنتفخة...والسجائرالكوبية...والبدلات التي تلبس على أكثر من وجه. أصحاب كلّ عهد وكلّ زمن...أصحاب الحقائب الدبلوماسيّة. أصحاب المهمات المشبوهة، أصحاب السعادة وأصحاب التعاسة، وأصحاب الماضي المجهول...»[7].

---

[1]- المصدر نفسه. ص ن.
[2]- المصدر نفسه. ص350.
[3]- المصدر نفسه .ص ن.
[4]- المصدر نفسه. ص ن.
[5]- المصدر نفسه. ص431.
[6]- المصدر نفسه. ص36.
[7]- أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد.ص423.

غير أن النهاية قد اختلفت بالنسبة للبطلين فوالد أحلام الكاتبة انتهى في مصحة للأمراض العقلية تقول أحلام: «أبي لم يكن مجنونا، لقد كان مناضلا، كان أبي نموذجا للمناضل الذي ضحى من أجل الوطن ورأى أحلامه تنهار أمامه...»[1]. وانتهى ‹خالد› إلى المنفى[2] بعدما ضيّق عليه الخناق بالوطن، وهكذا بدا بأن أحلام مستغانمي قد استغلت شخصية ‹خالد› لتعبر من خلالها عن تاريخ والدها المناضل، كما حمّلته قناعتها وآراءها المستوحاة من ذكريات والدها الذي:«راح يتواصل معها بالكتابة إليها في كل مناسبة وطنية عن ذكرياته النضالية وذلك الزمن الجميل عاشه مع الرفاق في قسنطينة...»[3]. فدمغ حياتها بمعاناة ووعي مضاعفين جراء ما يحدث بالوطن، كما كان لمعايشتها لواقع الجزائر أثر واضح ساهم في بلورة وعي شخصياتها، وذلك ما تلمحه في بعض مواقف ‹خالد› إذ تخاطب أحلام الأصوليون وكل الذين استنزفوا الجزائر : «سيبقى لنا الدم والذاكرة، بهما سنحاسبكم...بهما سنطاردكم، بهما سنعمر هذا الوطن من جديد...»[4]، وتوضح أحلام موقفها بعبارة صريحة:« لا يمكن وأنا على قيد الحياة أن لا أهاجم الذين سرقوا الجزائر وسرقوا أحلامنا واغتالوا الوطن...»[5].

في الأخير نجد كلا من ‹خالد› و‹أحلام› و‹سي الطاهر› قد استطاعوا أن يكشفوا عدّة جوانب من حياة الكاتبة المتشبعة بالروح الوطنية والوعي التاريخي المستوحى من ذاكرة نضالية هي لوالدها، تقول أحلام مستغانمي:« في النهاية نحن دائما تحت رحمة أشياء، حدثت في طفولتنا ولا نشفى منها...»[6].

فكانت «ذاكرة الجسد» رواية أعادت من خلالها الكاتبة كتابة التاريخ برؤيا أكثر عمقا تتخللها الروح الأسطورية التي تعكس بواطن اللاوعي الشعبية، فأحيت الشخصية الجزائرية العميقة وبعثت الجزائر ذات الجذور البعيدة الغور، بحرارة كتابية ولغة شاعرية ناشدت من خلالها الماضي المتمرد والحاضر المزيف والمستقبل المهدور، كما صورت آلام الشعب ونزيف الوطن .

ومن خلال ما سبق نلمح أن السيرة الذاتية قد استطاعت أن تتسلل عبر غلالة الرمز إلى أعمال الأدباء الثلاث حيث كانت صدى لأهم الأحداث التي أثرت على

---

[1]- آسيا موساوي وبشير مفتي.حوار.ص26.
[2]- أحلام مستغانمي .ذاكرة الجسد. ص43
[3]- مراد مستغانمي. أحلام مستغانمي... سيرة حياة.ص23.
[4]- ذاكرة الجسد . أحلام مستغانمي. ص471.
[5]- المصدر نفسه. ص431.
[6]- آسيا موساوي وبشير مفتي .حوار.ص25.

مسيرتهم الحياتية والتي يمكن الاهتداء إليها عن طريق تسليط الأضواء الكاشفة على أهم الشخصيات الروائية والتركيز على الخطوط العريضة لمسارهم الدرامي.

المبحث الثالث: التاريخ المغيّب أو السكوت عنه:

لقد وظف التاريخ المسكوت عنه ليقول ما لم يقله التاريخ الرسمي، ولينقب عما أخفته الحقائق التاريخية، وأغفلت تدوينه كتب التاريخ عن هذه المدينة؛ مدينة سيرتا قسنطينة التي تمثل قلب التاريخ ومنبع الذاكرة ورمز الذكرى، وذلك من خلال الأدب القصصي أو المحكي، فراحت المخيلة الإبداعية تسرد خلفيات الاحداث التاريخية حيث، امتزج من خلالها التاريخ بالأسطورة وأدى هذا الإمتزاج إلى إنتاج التاريخ المؤسطر.

إذ توسم من خلاله الروائيون الثلاث من التنقيب عن خبايا تاريخ سيرتا فحكاية تاريخ سيرتا قبل الاحتلال وفي أثناءه وبعد الاستقلال ترويها كل من نجمة والزلزال، وذاكرة الجسد بطريقة تاريخية رمزية والمحور هو بعث الشعب الجزائري، حيث نشعر بأنفاس التاريخ ونبض الأسطورة ابتداء من الصفحات الأولى من رواية نجمة التي عمد كاتبها إلى العودة إلى ماضي الجزائر ونفخ روح التاريخ، تاريخ الجزائر الموغل في القدم. كما استعان بأسطورة " كبلوط " مستلهما في ذلك تاريخ قبائل الجزائر تلك القبائل التي تمثل الهوية والإنتماء والماضي العريق، هذه القبيلة التي استطاعت توحيد الجزائر بقوة القسم والسيف، والتي كان لها باع طويل قبل الإحتلال وفي أثناءه.

إذ تسلط " نجمة " الأضواء على هذه القبيلة وتحكي صمودها وبسالتها، لتعكس بذلك ثقافة الجزائر وتروي قصة أمجادها ردا على التاريخ الفرنسي المزيف الذي قوقع الأنا الجزائرية وأذابها في الأخر الذي يمثله الإحتلال الفرنسي إذ يؤكد " **Dorothy Pickles** " قبل عام 1830 لم يكن هناك إقليما يسمى الجزائر وإنما حصلت هذه المنطقة على حدود مستقرة بعد الإحتلال الفرنسي بل وحملت أيضا اسم الجزائر" [1].

فجاءت " نجمة " إحياء لهذه الأنا التي ترمز إلى الشعب الجزائري وإثباتا لأصالته وتاريخه عبر سرد مسيرته النضالية وعراقته وبعث هويته وثقافته وذلك من خلال العودة إلى نوميديا تارة والنهل من أسطورة الأجداد " كبلوط " تارة أخرى، فقد خاطب كاتب ياسين فكر الجزائر الواعي وذلك بسرد تاريخه العريق الممثل في تاريخ نوميديا كما داعب خياله واستدعى خلفيته الثقافية الممثلة في أسطورة قبيلة " كبلوط " يقول كاتب ياسين: " ليس في

[1] Dorothy Pickles.Algeria and France . p17. نقلا عن: دراسات في تاريخ الجبزائر. ناهد إبراهيم دسوقي. منشأة المعارف الإسكندرية. 2001. ص10

تمجيد القبيلة من ردة ولا رجعة إلى الوراء فهي الآصر الوحيدة التي بقيت لنجمع شتاتنا ولتعود إلينا منزلتنا "[1].

وقد اختار كاتب ياسين الحديث عن تاريخ الجزائر نظرا لهيمنة الاستعمار الفرنسي في تلك الفترة ومحاولته تغييب تاريخ سيرتا –الجزائر– وطمس معالمها وقد جاء ذكر هذا واضحا على لسان رشيد الذي يقول : "...(**في المدينة التي** " **جاء ديغول يمنحني فيها لقب المواطنة**..."[2]. لذلك انصب اهتمام الكاتب على بعث ذلك التاريخ الجزائري العريق الذي تجاهله الاستعمار وليؤكد وجود هذه الأمة من جهة ومحاولة تغذية الوعي الجزائري بتاريخ آخر هو تاريخ الجزائر المستعمرة المناهض لتاريخ فرنسا المستعمرة من جهة أخرى.

ويبدو موقف كاتب ياسين من خلال ماجاء على لسان بطله مصطفى واضحا لا لبس فيه وهو يرافع عن تاريخ الجزائر قائلا: " أتعرف ما قرات فيما كتب " **تاسيت** "؟ إنك لتجد هذه الأسطر في الترجمة الجاهزة عن أقريكولا : " كان أهل مقاطعة بريطانيا بفرنسا يعيشون كالوحوش...فصمم أقريكولا على تشجيعهم على حياة الدعة والمتعة... فراح يعلم أبناء الرؤساء منهم، ودس في تعليمه إياهم تلقينهم بأنه كان يفضل سجية البريطانيين وطبعهم على ماكتسبه الغاليون من مهارة، فغدا أولئك الناس وقد أغرموا بلغة الرومان ... بعد أن كانوا يكرهونها... ذاك ما نقرأه فيما كتبه " **تاسيت** " وكذلك نرزح اليوم، ونحن من سلالة النوميدين تحت استعمار الغاليين! ".[3]

فكان استعمال التاريخ القديم للجزائر لنسف التاريخ الاستعماري الذي يقول بأن الجزائر فرنسية لذلك سعى الكاتب إلى: " تصحيح الصورة المشوهة لبلاده. وفي وضع الأشياء في مكانها المناسب "[4]، ليرد بذلك على المقولة الباطلة كون الجزائر فرنسية فكان الاحتكام إلى التاريخ الجزائري العريق إذ يؤكد كاتب ياسين ضرورة استقصاء التاريخ المغيب تاريخ الجزائر ونبذ التاريخ الجاهز المزور الذي يروج له الاستعمار الفرنسي يقول فاضحا ومعارضا التاريخ الفرنسي: " لقد حرمنا من وسائل الحقيقة للتعبير، إذن فثمة

---

[1]-كاتب ياسين. نجمة. ص134.
[2]- المصدر نفسه. ص161.
[3]- المصدر نفسه ص234.
[4]- تطور الأدب القصصي. عايدة أديب بامية. ت:محمد صقر. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص74.

حاجة للتحقق من المصادر، يجب أن نقرأ في ماض غني ليس موجودا بين أيدينا. فنحن نرى أنفسنا في مرآة مشوهة، ويجب أن نعبر عن ماضينا."[1]

وفي الأخير نجد أنه بالعودة إلى الأسلاف نكتشف تاريخ الحقائق ومعها حقائق التاريخ المغيب التي جهد الاستعمار الفرنسي إلى تزوير حقائقها وطمس أمجادها.

في المقابل نجد ان الطاهر وطار قد عمد إلى تعرية تاريخ الاقطاع عن طريق عرض ماضي هذه الطبقة البرجوازية بالجزائر خاصة في فترة مابعد الاستقلال وإلى بداية السبعينات، وقد اختار الكاتب شخصية بوالارواح الذي يتحدر من أسرة تركية ليكشف من خلاله عيوب الاقطاع الذين احتكروا البلاد واستغلوا العباد: " أضف إلى ذلك ماكان يقع بينهم من التنافس على بسط نفوذهم...مع الضغط على أبناء البلاد وارغامهم على الخضوع لسيطرتهم الاستبدادية دون تروّ أو نظر إلى مستقبل البلاد..."[2].

يتضح ذلك جليا من خلال مايرويه بوالأرواح عن ماصنعه مع الخماس إذ قام بانتزاع زوجته واغتصاب ابنته يقول بوالارواح:"عدت إلى الريف. لفتت انتباهي زوجة خماس. جميلة. ادخلتها الحوش هي وابنتها واغلقت عليها ..."[3]. كما قام بتهجير الخماس إلى فرنسا عنوة[4]، ثم قتل الزوجة والابنة خنقا[5]، فبوالارواح هو الوريث الشرعي لهذه الطبقة التي عانى منها الجزائريون الأمرّين الاستغلال بالإضافة إلى تكاتف هذه الطبقة مع الاستعمار الفرنسي على الاطاحة بالمقاومة التي قام بها الفلاحون فقد: " كان انتصار القوة الاستعمارية على دولة عبد القادر انتصار الاقطاعية ايضا. كان الاقطاعيون احلافا لتلك القوة كلما اتسع نفوذها منحت لعائلاتهم سلطتها وامتيازاتها ليكونوا اعواننا لإدارتها.[6]

فقد استقى الكاتب هذه المعلومات من ماضي الاقطاع بالجزائر، وتم توظيفها لتأكيد خيانة هذه الطبقة وتحالفها مع الاستعمار ضد الشعب الجزائري صاحب الارض يقول بوالارواح: " أبي كان عظيما رئيس قبيلته وزعيم قومه عندما كان الفرنسيون يدقون بمطارق من حديد، أبواب منطقتنا كانت قبيلتنا تقاتل ببسالة... أرسل أبي إلى الفرنسيين يعلمهم أعطيكم المكافحين وأعطوني الباقي ...دخل الفرنسيون المنطقة قتلوا كل قادر

---

[1]- Mon vrai public est en algerie. P 21 . نقلا عن: تطور الأدب القصصي. عايدة أديب بامية. ت: محمد صقر. ص74.

[2]- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. ص464.

[3]- الطاهر وطار.الزلزال. ص179.

[4]- المصدر نفسه. ص32.

[5]- المصدر نفسه. ص179.

[6]- برنيان و أندري نوشي. إيف لاكوست:الجزائر بين الماضي و الحاضر.ص301.

على حمل السلاح...وعلقوا لأبي النياشين واعلنوه زعيما واعطوه أرضا كبيرة كل الارض...".[1]

لقد استطاع الكاتب كشف التاريخ المغيب الذي يتعلق بماضي الاقطاع وكشف زيف هذه الطبقة وخيانتها للثورة، كما فضح استبدادها ومعاملتها السيئة للفلاحين بالاضافة إلى انه قدم ومن خلال شخصية بوالارواح هيمنة هذه الطبقة على المجتمع وسيطرتها على مختلف مناحي الحياة كالتعليم والعلاج يقول بوالارواح معلقا عن حديثه مع عازف الزرنة الذي نال ابنه منحة من الدولة لمواصلة تعلمه: " إذا ماصار ابنك هكذا. فما تراه يكون ابن الغني وابن الطبيب وابن المهندس، ومن يبقى لصنع الفريك والسمن وجمع البيض وصنع الصوف؟ هكذا فجأة واحدة من القعر من أسفل السافلين إلى أعلى عليين ".[2]

الواضح للعيان أن الطاهر وطار يعد الاتراك من خلال رمز عبد المجيد بوالارواح أناسا مستعمرين واصل الطبقة البرجوازية اتراك مستعمرون، ومن ثم فالاتراك مستعمرون وليسوا محررين وليسوا فاتحين، بل إن هؤلاء هم النواة الحقيقية للطبقة البرجوازية ستدعمهم فيما بعد الطبقة البرجوازية الفرنسية ببرجوازية أكثر حداثة، ولأجل ذلك يعد واسيني الاعرج ثورة المقراني عام **1871** هي ثورة الفلاحين ضد الطبقة البرجوازية والاخطر ان تزول البرجوازية الحديثة بعد **1962** وتبقى هاته الطبقة [3]. وقد عبر عبد المجيد بوالارواح عن أسفه لزوال الاستعمار نتيجة التوأمة التي حدث بين طبقة برجوازية سالفة وطبقة برجوازية لاحقة وتزوال اللاحقة وتستمر السالفة بمساوءها.

أما بالنسبة لأحلام مستغانمي فنجدها تكشف الفترة الحرجة التي عاشتها الجزائر بعد الأستقلال خاصة بعد سقوط الجزائر في أيدي الانتهازيين الذين نهبوا الجزائر، وحاكموا أبطال الثورة فـ:" بين أول رصاصة وآخر رصاصة تغيرت الصدور، تغيرت الاهداف... وتغير الوطن ".[4]

فقد سلطت الكاتبة قلمها لكشف أولئك الوصوليين والطفيليين وبعض الثوار الذين باعوا ماضيهم مقابل رصيد أو منصب في الوزارة، كما قامت السلطة بتشديد الخناق على الثوار الذين مازالوا متشبثين بوطنيتهم، يعلق خالد بطل " ذاكرة الجسد " فاضحا أساليبهم

---

[1]- الطاهر وطار .الزلزال. ص172.
[2]- المصدر نفسه. ص85.
[3] - واسيني الاعرج.اتجاهات الرواية العربية في الجزائر. ص17.
[4] - أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص29.

في تعتيم الحقائق وإدانة رجال الثورة يقول: " كم من ملايين أنفقت وقتها على مهرجان للفرح ظل الاول والاخير، وكانت أهم انجازاته التعتيم على محاكمة قائد تاريخي... كان أثناء ذلك يستجوب ويعذب رجاله في الجلسات المغلقة... باسم الثورة نفسها... ".[1]

هذه الثورة التي يُعتقد أنها الانتصار المطلق بينما تخفي بين طياتها وقائع واحداث مأساوية استطاعت الكاتبة أن تتجاوز من خلال تلك الاحداث النظرة الاسطورية للثورة وأن تفجر حقائق اخرى كما تطرح طروحات وقناعات مناقضة لها فالكاتبة تسعى لتقصي الحقيقة واكتشاف التاريخ المسكوت عنه، تقول الكاتبة: " لا يمكن وأنا على قيد الحياة أن لا أهاجم الذين سرقوا الجزائر وسرقوا أحلامنا واغتالوا الوطن، كيف أغفر للذين أهدروا ماضينا ويصرون على هدر مستقبلنا".[2]

وقد كان لاستحضار التاريخ المغيب، هذا التاريخ الذي يمثل وجه الثورة الآخر كما يرصد إخفاقات الاستقلال وانتكاساته، تاريخ يتقفى البعد الآخر الذي يتعلق بالثوار والحكام لذلك ترفض أحلام تاريخ الثورة الجاهز، هذا التاريخ الذي اتخذ ابعاد اسطورية لا صلة لها بوقائع الثورة الحقيقة تقول أحلام البطلة: " لا أريد أن أكون ابنة لأسطورة، الأساطير بدعة يونانية. أريد أن أكون ابنة لرجل عادي بقوته وبضعفه، بانتصاراته وبهزائمه. ففي حياة كل رجل خيبة ما وهزيمة ما، ربما كانت سببا في انتصار آخر...".[3]

وهكذا استطاعت أحلام مستغانمي ان ترصد حقائق ووقائع مناقضة ومناهضة لحقائق ووقائع جاهزة تكفل الأصوليون بتحريفها والتعتيم على مخالفاتها ومخلفاتها الممثلة في سقوط الجزائر في دوامة " الازمة ".

فإذا قاوم كاتب ياسين التاريخ الفرنسي المزيف وبعث التاريخ الجزائري المغيب فإن الطاهر وطار قد حارب تاريخ الاتراك وكشف ماضيهم المجهول المستبد، نجد أن أحلام مستغانمي سعت إلى فضح السلطة التي تمثل الطبقة الحاكمة والتي تهدد هذه الطبقة الوسطى التي أسس لوجودها كاتب ياسين ودافع عنها الطاهر وطار.

وهكذا نجد أن كلُ من الادباء الثلاث قد احتكم للتاريخ المغيب جاعلا منه حجة إشعاعية لمحاربة التاريخ الجاهز المزيف. هذا التاريخ المغيب استطاع ملء ثغرات التاريخ الذي أُسقطت بعض أحداثه عمداَ كما استطاع أن يبعث تاريخا جديداَ هو من صنع الشعب.

---

[1] - أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد. ص205

[2] - أسيا موساوي. بشير مفتي.الحوار. ص26

[3] - أحلام مستغانمي. ذاكرة الجسد .ص120.

خاتمة

بعد هذه الدراسة التي مكنتني من معايشة كثير من الفضاءات النقدية الهامّة، يجدر بي الآن أن أقدّم صورة عامة ومختصرة عن هذا البحث من خلال خاتمة تتضمن أهم النتائج المتوصل إليها والآفاق المعرفية التي يفتحها هذا البحث، إذ يمكن حصرها فيما يلي:

أن كلا من الروائيين الثلاثة حاول القيام بعملية أسطرة لمدينة قسنطينة التي تجلت بوجه أخر وبروح جديدة، هذا التصور الأسطوري تم مزجه بالتاريخ المؤسطر الذي يتموقع بين الأسطورة والتاريخ.

فقسنطينة مدينة جديدة تكشف عن عبقريتها التاريخية والأسطورية، كما استطاعت الأسطورة أن تحرر دلالات فنية وجمالية وحضارية ماكانت لتتم لولا عراقتها وحضارتها من خلال المسكوت عنه، وكل واحد من هؤلاء الروائيين قدّم رؤية معينة لقسنطينة نظرا لتنوعها وثرائها، فقسنطينة تماثل المرأة التي أحبها كل أديب بطريقته الخاصة وبعبقريته الفذّة، فجاءت هذه الكتابات سنفونية خالدة تتعدى الزمن وتتحدى الانتكاسات، وتبحر في عالم كله طوباوية وأحلام وحرية.

كما رسم هذا البحث مستويات التواصل والتفاعل بين كل مكونات الثقافة الجزائرية القائمة على الاختلاف والتنوع والثراء، إضافة إلى أننا نجد أن الأسطورة قد تسللت إلى الفضاء وشكلته وفق الروح الابداعية للروائيين الذين أدركوا أهمية الأسطورة في نسج العوالم الأدبية والثقافية والحضارية.

وقد استطاع الروائيون توظيف الأسطورة وتحميلها دلالات عميقة لتعبّر عن رؤيتهم الايديولوجية ونظرتهم للعالم لابراز موقفهم من الحياة، والعالم كما تعبّر الأسطورة عندهم عن رؤية جمالية سردية تعيد تشكيل العالم من خلال عبقريتهم الأدبية.

كما استطاعت السيرة الذاتية أن تتسلّل عبر غلالة الرمز إلى أعمال الأدباء الثلاثة، إذ كانت صدى لأهم الأحداث التى أثّرت في مسيرتهم الحياتية، والتى يمكن الاهتداء إليها من طريق تسليط الأضواء الكاشفة على أهم الشخصيات الروائية والتركيز على الخطوط العريضة لمسارهم الدرامي، وفي الأخير نستشف احتكام الروائيين الثلاثة للتاريخ المغيّب جاعلين منه حجة اشعاعية لمحاربة التاريخ الجاهز المزيّف، هذا التاريخ المغيب استطاع ملء ثغرات التاريخ الذي أسقطت بعض أحداثه عمدا كما استطاع أن يبعث تاريخا جديدا هو من صنع الشعب.

ومن خلال كل ما سبق ذكره يمكننا القول إنّها وقفة فلسفية لتفكيك فكرة الجدل القائم بين الأسطورة المؤرّخة والتاريخ المؤسطر، وفتح آفاق الابداع من طريق فلسفة الأسطرة وعدم الوقوف عند حدّ التأريخ .

أمّا بالنسبة للآفاق المستقبلية التي يفتحها البحث فهي انفتاح الدراسة على علوم الأسطورة وحوار الثقافات والمثاقفة، دون أن نسقط من حسابنا التناص الأسطوري الذي يحتاج إلى تعميق، إلاّ أنّه يثقل البحث الذي لا يحتمل هذا التوسع، ربّما سيكون موضوع دراسات لاحقة، فقسنطينة التي غذّت المتخيّل الأدبي الغربي وخاصة عند الرومانسيين في حاجة إلى دراسة وتعمق.

لم تكن هذه الدراسة إلا محاولة لولوج عالم الأدب الأسطوري والتفاتة إلى روائع الأدب الجزائري الذي مازال ينتظر الأدب، فهل من مدّكر؟

في الأخير نخلص إلى عدّة اشكاليات، نذكر منها:

1- هل استطاع المنهج الأسطوري احتواء النص الأدبي؟

2- وهل استطاع أن يقول ما لم يقله النص؟

3- هل حقق النص الأدبي تواصله مع آليات النقد الأسطوري؟

4- كيف تم تفاعل هاتين التركيبتين مع بعضهما؟

5- وكيف كان استثمار هذا المنهج – النقد الأسطوري- بوساطة تضافر المناهج المستعانة....

الملخص

تعاملت الرواية الحديث تعاملا إبداعيا مع المدينة التي لم تعد ذلك الإطار الخارجي وذلك الديكور الجامد الذي تجري فيه الأحداث وتتحرك داخله الشخصيات بل أضحت في هذا الجنس الأدبي كائنا حيا يتدفق بالحياة ويعكس تجربة إنسانية وجودية، حيث نسجت الرواية الحديثة علاقات تماه وتعالق عضوية مع عالم المدينة.

وقد واكبت الرواية الجزائرية هذه التحولات التي حصلت في الشرق والغرب وقامت بأسطرة المدينة ومسرحتها ودمجها في الصيرورة التاريخية وديناميكية الحياة وذلك بالتعبير عن معانات الإنسان العربي وعن الاغتراب وعنف التاريخ، وبهذا استطاعت الكتابات الروائية الجزائرية رسم جماليات المدينة وشعريتها بفضل تبني إستراتيجية حداثية في الكتابة.

وتمثل قسنطينة في الرواية الجزائرية ذاك الجبروت الذي فرض نفسه بقوة على المبدعين لأنها مدينة عريقة تتقاطع فيها الأسطورة مع التاريخ، ولأنها تجد لنا طريقة أو بأخرى على أسطورة عجائب الدنيا السبع، وعلي حدائق بابل المعلقة وعلى الجسور المعلقة التي تمثل معجزة معمارية فريدة من نوعها في العالم، بفضل موقعها الجغرافي التميز وصخرتها المتربعة على عرش السُّمو والعلو ووواديها الأسطوري" الوادي الكبير".

ولهذا يسعي البحث الموسوم بـ:" **قسنطينة بين الأسطورة والتاريخ في روايات نجمة، الزلزال، ذاكرة الجسد**". إلى دراسة الأبعاد الأسطورية والتاريخية التي تتفاعل داخل مجموعة من الروايات الجزائرية التي خلدت مدينة قسنطينة، إذ تقوم الإشكالية على طرح جملة من الأسئلة التي يمكن تلخيصها في مايلي:

– لماذا حظيت قسنطينة دون غيرها من المدن الجزائرية بهذا الإهتمام الكبير من لدن الأدباء الجزائريين والأجانب؟

– كيف استطاعت رواية "نجمة" لكاتب ياسين أن تؤسس للمدينة الأسطورة، التي ستؤثر لاحقا تأثيرا كبيرا في روايات كل من مالك حداد ووطار وأحلام مستغانمي

– كيف تتأسس في الرواية الجزائرية أسطورة الفردوس المفقود وأسطورة العود الأبدي، وكيف نفسر هاجس الحنين على الجذور والبدايات؟

ويبدأ البحث بتمهيد كان عتبة أولى تبصَّر القارئ بماهية الأسطورة وتقاطعاتها مع أهم الفنون الأدبية ثم انتقلت على الفصل الأول الذي يحوي الشق الأسطوري لهاته المدينة ويتقصَّي تشكيلاتها.

أما الفصل الثاني فيحوي الجانب التاريخي لمدينة قسنطينة ويترصد تحويلاتها ثم جاء الفصل الثالث ليبرز هذا التمايز والتلاقح المثمر بين الأسطورة والتاريخ بوساطة الرمز.

وكانت الخاتمة لرصد أهم النتائج المتوصل إليها ولفتح آفاق مستقبلية لدراسة جوانب أخرى لم يتعرض إليها البحث.

Le roman moderne S'est intéressé A' la ville et A' tout ce qu'elle représente comme symbole et valeurs. La ville après avoir été un espace d'imagination et de création.
Le roman algérien a accompagné ces évolutions qu'a connues le roman dans le monde. Il a pu mythologiser la ville et la transformer en spectacle pour exprimer la crise de l'individu et de la société. La ville devient un espace de déperdition et d'aliénation.

Costantine occupe une place importante dans le roman algérien. Son passé. Sa gloire. Son emplacement géographique. Son urbanisme et son histoire font d'elle une ville originale. Cette spécifité a nourrit l'imaginaire des écrivains étrangers et Algériens.
J'ai choisi trois romans pour analyser la ville de constantine et la manière d'exprimer le mythe. Le symbole et l'histoire.

IL faut dire que c'ets " nadjma " de kateb yacine qui a posé le mythe initial.

Les autres ramanciers notamment Tahar wattar ont repris ce mythe pour lui donner d'antres forme et d'autres significations. Il s'agit aussi de montrer les relations qui existent dons ces roman.entre l'histoire et le mythe.

J'ai comméncé l'étude par une intreduction pour expliquer la réalité du mythe et son rapporte avec L'histoire. Puis j'ai développé dans le premièr chapitre la présence du mythe de constantine dans les romans étudiés.

Le deuxième chapitre est consacré 'a l'aspect historique de la ville dans ses rapportes avec le mythe. Le dernier chapitre est consacré a' cette rencontre problématique et créatrice entre le mythe a l'histoire.

J'ai terminé ma recherche avec une conclusion qui résume les résultas de l'étude et auvre des pesspectives nouvelles pour le roman algérien en général et pour le thème traité en particulier.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

أولا: مصادر البحث

أ- العربية

1. أحلام مستغانمي .ذاكرة الجسد. موفم للنشر. الجزائر. 1993.
2. حنا الفاخوري .ديوان بن زيدون.دار الجيل. بيروت
3. طاهر وطار.الزلزال.الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1973.
4. كاتب ياسين.نجمة. ت محمد قوبعة. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.ط2. 1987.
5. الكتاب المقدس العهد القديم والعهد الجديد.
6. نزار قباني .الأعمال الشعرية الكاملة. منشورات نزار قباني. بيروت. لبنان. ط15. 2002. ج1.

ب- الفرنسية

7. Kateb Yacine.Nedjma.Edition du seuil .1956.

ثانيا: مراجع البحث

أ- المعاجم والقواميس والموسوعات

8. ابراهيم عباس. الرواية المغاربية الجدلية التاريخية والواقع المعيش . المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار. 2002 . دار الهدى للطباعة والنشر. عين مليلة.ط1. 2003.
9. أحمد كمال زكي. الأساطير. دار العودة. بيروت. ط2. 1979.
10. أليكسي لوسيف .فلسفة الأسطورة. ت.منذر بدر حلوم. دار الحوار للنشر والتوزيع.ط1 سورية.2000.
11. أندري برنيان. أندري نوشي. إيف لاكوست. الجزائر بين الماضي والحاضر. ت سنطبولي –رابح ومنصف عاشور. ديوان المطبوعات الجامعية.الجزائر. 1984.
12. أوفيد .التحولات.ت أدونيس. أبو ظبي. المجمع الثقافي. 2002.
13. حسن بحراوي .بناء الشكل الروائي. الفضاء. الزمن. الشخصية. المركز الثقافي العربي. بيروت. الدار البيضاء. ط1. 1990.

14. حفناوي بعلي .أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية. دار الغرب للنشر والتوزيع. 2002.

15. حنا الفاخوري .الموجز في الأدب العربي وتاريخه. م1. دار الجيل. بيروت. ط3 .2003.

16. داوود سلوم وحسن الربابعة.التأثر والتأثير بين التراث الشرقي والعربي والتراث اليوناني . المركز القومي للنشر. الأردن .1999 .

17. سعاد محمد خضر .الأدب الجزائري المعاصر.منشورات المكتبة العربية. بيروت. 1967.

18. سعيد علوش. الرواية والايدولوجيا في المغرب العربي. دار الكلمة للنشر. لبنان. ط2. 1983.

19. سميرحجازي.قضايا النقد الأدبي المعاصر الفكر الحديث. الدار البيضاء .1983

20. صالح مفقودة . نصوص وأسئلة. دراسات في الأدب الجزائري. دار هومة. الجزائر. ط1. 2002.

21. صالح مفقودة. المرأة في الرواية الجزائرية. دار الهدى للطباعة والنشر. عين مليلة.ط1 2003.

22. صموئيل هنري هووك. منعطف المخيلة البشرية. ت. صبحي حديدي. دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سوريا، 1983.

23. عاطف عيد. قصة وتاريخ الحضارات العربية. تونس. ق1 Beyrouth . Edito . creps.INT

24. عايدة أديب بامية. تطور الأدب القصصي الجزائري. ت محمد صقر. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر

25. عبد الحميد سعد زغلول .تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الأستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) .منشأة المعارف. الأسكندرية. 2000. ج1

26. عبد الرحمن بن محمد الجيلالي. تاريخ الجزائر العام (الجزائر بين الماضي والحاضر إطار نشأة الجزائر المعاصرة ومراحلها). ديوان المطبوعات الجامعية.الجزائر.ط7 1994.ج1

27. عبد الصمد عبد الزائد.مفهوم الزمن ودلالاته في الرواية المعاصرة. الدار العربية للكتاب.1988.

28. عبد القادر فيدوح .الرؤيا والتأويل دار الوصال . ط1. 1994.

29. عبد الله حمادي .أصوات من الأدب الجزائري الحديث. دار البعث. قسنطينة.2001
30. عبد المالك مرتاض .الميثيولوجيا عند العرب الدار التونسية للنشر. تونس. 1989.
31. عبد المالك مرتاض .عناصر التراث الشعبي في اللاز. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1987.
32. غالي شكري. محاورات اليوم السابع. دار الطليعة. بيروت. 1980.
33. فراس السواح .الأسطورة والمعنى. دار علاء الدين. ط1. دمشق. 1997.
34. فراس السواح .مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة .سوريا وبلاد الرافدين. دار الكلمة للنشر. لبنان. ط2. 1981.
35. فلادمير بروب.مورفولوجيا الحكاية الخرافية. ت. أبو بكر أحمد باقادر. النادي الأدبي الثقافي. جدة. 1989.
36. قاسم عبده قاسم.بين التاريخ والفولكلور. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. الهرم. ط2. 2001.
37. ك.ك.راثفين.الأسطورة. ت. جعفر صداق الخليلي. منشورات عويدات. بيروت.1981
38. كلود ليفي شتراوس .الأسطورة والمعنى. ت.صبحي حديدي.دار الحوار للنشر.اللاذقية ط1 .1985.
39. محمد حسن عبد الله.أساطير عابرة الحضارات الأسطورة والتشكيل. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع .القاهرة. 2000.
40. محمد رضوان الداية. في الأدب الأندلسي. دار الفكر. دمشق. ط1. سبتمبر. 2000.
41. محمد مصايف. الرواية العربية بين الواقعية والالتزام. الدار العربية للكتاب. تونس. 1983.
42. محمد معتصم . الرؤيا الفجائعية الادب العربي في نهاية القرن وبداية الألفية الثالثة. منشورات الاختلاف. ط1 الجزائر. 2003.
43. محمد معتصم .النص السردي العربي الصيغ والمقومات. شركة النشر والتوزيع الدار البيضاء. ط1. 2004.
44. مخلوف عامر .توظيف التراث في الرواية الجزائرية. منشورات دار الأديب. ط1. الجزائر. 2005.
45. مرسيا إلياد .مظاهر الأسطورة. ت. نهاد خياطة. دار كنعان للدراسات والنشر. دمشق ط1 1991.

46. مرشد أحمد .أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف.دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر. الاسكندرية. 2002

47. مصطفى فاسي .دراسات في الرواية الجزائرية. دار القصبة. الجزائر.2000.

48. منسق عبد الرحمان بوزيدة .قاموس الأساطير الجزائرية.منشورات CRASC.2005

49. ابن منظور الإفريقي المصري.لسان العرب. دار صادر بيروت. ط1. 2000.

50. نبيلة ابراهيم .أشكال التعبير في الأدب الشعبي. دار غريب. القاهرة.

51. نضال الصالح. النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. منشورات اتحاد كتاب العرب. 2001.

52. نور سلمان.الأدب الجزائري بين الرفض والتحرر.دار العلم للملايين. بيروت ط1. 1981.

و الجمالية للرواية الجزائرية. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1986

53. واسيني الأعرج.اتجاهات الرواية العربية في الجزائر. بحث في الاصول التاريخية. طبع المؤسسة للفنون المطبعية وحدة الرغاية. الجزائر.1989.

54. ياسر خالد سلامة .موسوعة نساء في القمة . دار صفاء للنشر والتوزيع. عمان. ط1. 2003م. 1423هـ.

55. يوسف حسين بكار .بناء القصيدة في النقد العربي القديم. دار الأندلس. بيروت .ط2. 1982.

الرسائل الجامعية والمجلات

أ- الرسائل الجامعية:

56. سعيدة بن بوزة .بنية المكان في روايات الطاهر وطار. رسالة ماجستير إشراف عمر بوقرورة.جامعة الحاج لخضر باتنة 2000-2001.

57. عبد الحليم منصوري. ملامح أسطورية في رواية الحوات والقصر للطاهر وطار. مقاربة نقديةأسطورية رسالة ماجستير. إشراف عبد المجيد حنون. جامعة باجي مختار عنابة 2000.2001.

58. وناسة صمادي. التناص في رواية الجازية والدراويش. رسالة ماجستير. إشراف الطيب بودربالة. جامعة الحاج لخضر باتنة 2002-2003.

ب- المجلات:

59. مجلة العلوم الإنسانية. جامعة محمد خيضر. بسكرة. ع 10. نوفمبر 2006 الجزائر.
60. مجلة العلوم الإنسانية. جامعة قسنطينة. ع8. 1997.
61. مجلة العربي.وزارة الإعلام. ط1. 15 أكتوبر 2004. الكويت.
62. محاضرات الملتقى الثالث. السيمياء والنص الأدبي. ع 3. دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.عين مليلة. 2004.
63. مجلة التواصل.ع 9. الجزائر.2002.
64. مجلة فصول. الهيئة المصرية العامة للكتاب.القاهرة. م8. العددان 1-2. 1989
65. مجلة المعرفة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. ع 197. يوليو. 1978
66. مجلة العربي.ع 457. ديسمبر 1996. الكويت.
67. مجلة اللغة والأدب. معهد اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر.ع 13. 1998.
68. مجلة التبيين. ع 16. 2000. الجزائر.
69. مجلة المساءلة.الجزائر. ع2. عام 1992.ئ
70. مجلة الاختلاف .ع3.ماي 2003.

ج- موقع الأنترنيت

www.azzaman.com/azz/articles/2004/07/07-18/696.htm
http //ar.wikipedia.org/wiki
http// thawra.alwehda.gov.sy/archive.asp

فهرست الموضوعات

فهرست الموضوعات

مقدمة 4
تمهيد :الاسطورة والأدب**.....**10.
1- مفهوم الأسطورة 11
1.1- الأسطورة لغة: 11
1 .2- الأسطورة اصطلاحا: 12
1. 3- أنواع الأساطير 14
1. الأسطورة الطقوسية: 14
2. الأسطورة التعليلية: 14
3. الأسطورة الرمزية: 14
4 .الأسطورة التاريخية: 14
أ- الأسطورة الدينية: 15
ب- الأسطورة التاريخية: 15
ج- الأسطورة المجازية: 15
د- الأسطورة الطبيعية: 15
1. 4-خصائص الأسطورة: 16
1 .5 -وظائف الأسطورة: 17
أ. الوظيفة التبليغية: 17
ب. الوظيفة التفسيرية: 17
ج. الوظيفة الاستكشافية: 17
1 .6 -انتشار الأساطير وانحسارها: 18
الأسطورة والأدب: **.....** 19
I.الفصل الاول التشكل الأسطوري لمدينة قسنطنية 21
المبحث الأول: أسطورة البدايات والفردوس المفقود 22
المبحث الثاني: أسطورة الابن الضال 32
المبحث الثالث: التشكيل المكاني للأسطورة:.....42

أولا: رواية نجمة 43
أ- جبل الناظور: 43
ب- مدينة قسنطينة 44
ج- فضاء مدينة عنابة 45
د- فضاء الباخرة 46
هـ- فضاء السجن 47
ثانيا: روايتيّ الزلزال وذاكرة الجسد 48
ا- فضاء مدينة قسنطينة 48
ب- فضاء المساجد والأضرحة والزوايا 49
ج- الجسور: 51
د- المقهى والمطعم: 53
هـ- الساحات والشوارع والأنهج: 54
و- فضاء المباني: 56
ي- مدينة باريس: 57
1 شقة خالد: 57
2 معرض الرسم: 57
المبحث الرابع: التوظيف الأسطوري ودلالته 59
أولا.أسطورية العدد سبعة **59**
ثانيا.أسطورة القرابين **63**
ثالثا أسطورة الفردوس المفقود 67
II.الفصل الثاني قسنطينة التاريخ والحضارة 70
تمهيد تقاطع الأسطورة مع التاريخ **71**
المبحث الأول: قسنطينة عبر التاريخ 73
المبحث الثاني: قسنطينة التاريخ والحضارة 78
المبحث الثالث: عظمة التاريخ وزيف لواقع 86
المبحث الرابع: حفريات الذاكرة والوعي المأساوي بالتاريخ 92

III.الفصل الثالث قسنطينة الرمزوالتاريخ 101
تمهيد: الأسطورة والرمز **102**
المبحث الأول رمزية قسنطينة..... 104
المبحث الثاني: السيرة الذاتية بين الاسطورة والرمز 122
المبحث الثالث: التاريخ المغيّب أو السكوت عنه..... 134
خاتمة **140**
الملخص 143
Résumé du mémoire..... **146**
قائمة المصادر والمراجع..... **147**
فهرست الموضوعات..... **154**